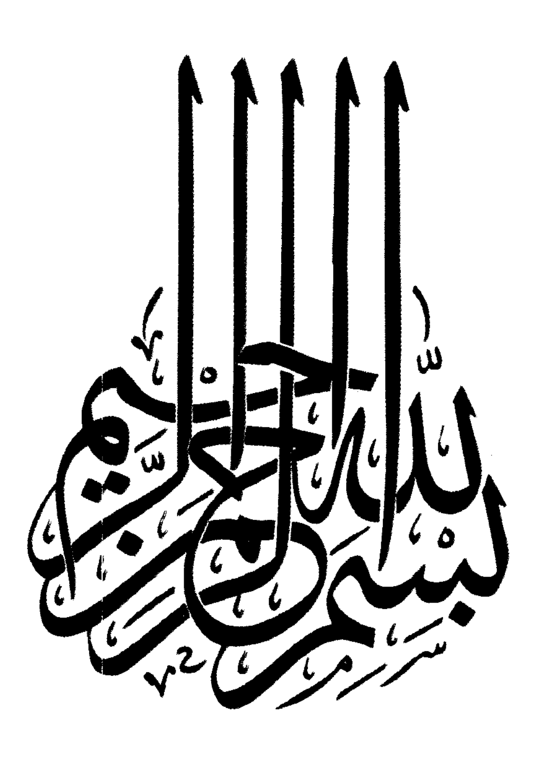


من آيات الإعجاز العلمي (٦)

النبات في القرآن الكريم

الجزء الثالث



الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - يونيو ٢٠٠٥م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة
تليفون وفاكس : ٤٥٠١٢٢٨/٩ - ٢٥٦٥٩٣٩


E-mail: Shoroukintl@hotmail.com
Shoroukintl@yahoo.com

من آيات الإعجاز العلمي (٦)



في القرآن الكريم

الجزء الثالث

أ.د. زغلول النجار

مكتبة الشروق الدولية



المحتويات

الموضوع | الصفحة





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف : ١ ـ ٥] .

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ، والذى استمرت الآيات فى مطلع سورة الكهف موجهة الخطاب إليه بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٦ ـ ٨] .

ثم أما بعد :

فإن الله ـ تعالى ـ قد مَنَّ على البشرية بمائة وعشرين ألف نبى ، واصطفى من هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً كان خاتمهم سيدنا محمد ﷺ الذى ختم الله ببعثته النبوات ، وبرسالته الرسالات ، فأكمل بها الدين ، وأتم النّعمة بمحكم كتابه ـ القرآن الكريم ـ الذى أنزله بعلمه على هذا النبى والرسول الخاتم ، ولذلك تعهد بحفظه فى نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ فحفظه حفظًا كاملاً على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يشاء الله ، وذلك تحقيقا لوعده الذى قطعه على ذاته العلية فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩].

وهذا العهد الإلهى الذى لم يقطع لرسالة سماوية من قبل يؤكد لكل ذى بصيرة أن القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدى الناس اليوم بنفس لغة وحيها - اللغة العربية - وعلى ذلك فالقرآن الكريم هو كلام الله الخالق فى صفائه الربانى، وإشراقاته النورانية، وهو مغاير لكلام البشر، فهو ليس بالشعر، ولا بالنثر، ولكنه نمط من العربية فريد، وصياغة متميزة، لم يدركها فصحاء العرب وبلغاؤهم وهم فى قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، وعجزوا عن الإتيان بشىء من مثله على الرغم من تحدى القرآن الكريم لهم بذلك من مثل قول ربنا - تبارك وتعالى -:

* ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨].

وقوله - عز من قائل - :

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

وقوله - سبحانه وتعالى -:

* ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٣، ٢٤].

وحين عجز فصحاء مشركى العرب وبلغائهم عن الإتيان بشىء من مثل القرآن الكريم لم يسعهم إلا أن يصفوه بالشعر أو بالسحر، وأن يتطاولوا على ما جاء فيه من قصص الأنبياء بأنه أساطير الأولين، وكان فى ذلك إقرار منهم بتميز ما سمعوه فإنه لا يمكن أن يكون من كلام الناس، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان : ٤ ، ٦].

وكابر مشركو قريش وكفارها، وعاندوا الحق المبين فى القرآن الكريم، والذى أنزله رب العالمين ليخرج الناس من ظلمات الكفر والشرك والضلال، إلى نور الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإلى الهداية بالتوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ، وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وهى من أعظم حقائق الوجود، ومن ضرورات فهم الإنسان لرسالته فى هذه الحياة: عبداً لله يعبده بما أمر، ويجتهد فى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

كابر الكفار والمشركون حتى كتب الله ـ تعالى ـ النصر لدينه، وأقام خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دولة الإسلام على أساس من هذا الهدى الربانى المنزل فى محكم كتابه والموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله.

وكما كابر كفار ومشركو قريش وعاندوا وحى السماء، عانده كل كافر ومشرك وظالم عبر التاريخ إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة؛ لأن الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن هذه الحياة ليبلو الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس أيهم أحسن عملاً، وليميز الخبيث من الطيب، وهو العليم الخبير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وبقى خفافيش الظلام من أعداء القرآن يثيرون الشبهة تلو الشبهة، والفتنة تلو الفتنة طوال القرنين الأول والثانى الهجريين، وبقيت هذه الخفافيش مستخفية بآرائها الفاسدة، ومتحينة الفرص للإعلان عن طرف منها باستحياء حتى كان القرن الهجرى الثالث فطفت على الوجه فتنة الادعاء بخلق القرآن الكريم وما استهلكت من جهود للرد عليها وعلى أمثالها من الشبهات التى استمرت إلى يومنا هذا، وتمثلت فى تطاولات عديدة من أقزام البشر على كتاب الله وسنة خاتم أنبيائه ورسله من أمثال البذاءات التى يتفوه بها الكثير من الإذاعات والقنوات الفضائية من أمثال «قناة الأموات» المسماة زوراً باسم «قناة الحياة»، وما تردده من أحاديث تنم عن

جهل فاضح بأبسط قواعد الدين الإسلامى الحنيف، وقواعد اللغة العربية الصحيحة، وحقائق التاريخ. وقد اشتهر العاملون فيها بالتزوير والتزييف والتحريف، وبالكذب على الله ـ تعالى ـ وعلى كتبه ورسله وبالعمالة لأعدى أعداء الأمة، وبالهروب من الحوار العلمى المتسم بضوابطه وآدابه فلجأوا إلى قبرص ليبثوا منها سمومهم، والباطل لن يعلو على الحق أبدًا، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧].

لذلك هيأ الله ـ تعالى ـ طائفة من عباده الصالحين من العلماء العاملين للدفاع عن القرآن الكريم بالكلمة الطيبة، والحجة البالغة، والمنطق السوى. وانطلاقًا من حقيقة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطى كل نبى وكل رسول عددًا من المعجزات والخوارق لتشهد له بالنبوة أو بالرسالة، وأن هذه المعجزات كانت مما برز فيه أهل العصر، وذلك من مثل نبى الله موسى (على نبينا وعليه من الله السلام) الذى بعث فى زمن انتشر فيه السحر والسحرة فآتاه الله من العلم ما أبطل به سحر السحرة، ونبى الله عيسى (على نبينا وعليه من الله السلام) الذى بعث فى زمن تميز فى الاهتمام بالقضايا الطبية والعلاجية فخلقه الله ـ تعالى ـ بمعجزة، وأمكنه من إبراء الأكمة والأبرص ومن إحياء الموتى بإذن الله، وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

ولما كان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ قد بعث فى زمن براعة العرب ـ ومنهم قومه. فى الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، آتاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ القرآن

الكريم وتحداهم به، ولا يزال هذا التحدى قائمًا دون أن يتقدم عاقل ليقول: إنه قد صاغ سورة من مثل سور القرآن الكريم، أما المجانين والعصاة الغارقون فى الضلال فلا حساب لهم.

انطلاقًا من هذه الحقيقة ركز المدافعون عن كتاب الله على جانب إعجازه النظمى/ البلاغى/ البيانى/ الدلالى.

ومع إيماننا بأن نظم القرآن الكريم معجز كما أوضح ذلك العديد ممن درسوا هذا الجانب فى كتاب الله، إلا أننا نؤمن بأن النظم إطار لمحتوى، وأن المحتوى أهم من الإطار، ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية وهى: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وكل قضية من هذه القضايا ـ إذا درست بشىء من الموضوعية والحيدة ـ تشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، لعجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشىء من مثله ـ وبأنه لا بد من كونه كلام الله الخالق فى صفائه الربانى، وإشراقاته النورانية، وفيما جاء به من الحق فى كل أمر من الأمور.

ومع يقيننا بأن القرآن الكريم هو كلام الله المحفوظ بحفظه فلا بد وأن يكون معجزًا فى كل أمر من أموره، فما من زاوية من زوايا هذا الكتاب العزيز ينظر منها إنسان محايد إلا ويرى منها جانبا من جوانب إعجازه؛ لأن كل ما فيه هو حق مطلق، وبذلك تتعدد جوانب إعجاز القرآن الكريم (بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشىء من مثله) بتعدد الزوايا التى ينظر منها إلى كتاب الله بشىء من الموضوعية والحيدة. وقد عرفنا من هذه الجوانب العديد، وخفى عنا الكثير الكثير، ومما أدركنا من جوانب الإعجاز فى كتاب الله: الإعجاز النظمى، والعقدى، والتعبدى، والأخلاقى، والتشريعى، والتاريخى، والتربوى، والنفسى، والاقتصادى، والإدارى، والغيبى، والعلمى، والرقمى، والحفظى، وإعجاز التحدى للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشىء من مثله؛ وحتى الأسماء الأعجمية فى هذا الكتاب الذى أنزله الله ـ تعالى ـ بلسان عربى مبين قد اتضح لها جانب من جوانب الإعجاز المبهر.

وحفظ القرآن الكريم على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية فى نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ دون أن يضاف إليه حرف واحد، أو أن ينتقص منه حرف واحد،

بينما تعرضت كل صور الوحى السابقة للضياع التام ـ وقد وكل حفظها لأصحابها فضيعوها ـ وأشبعوا ما بقى منها من ذكريات نقلت شفاها لعدة قرون بالتحريف تلو التحريف، وبالتجديف والتزييف، والحذف والإضافة حتى أخرجوها عن إطارها الربانى بالكامل، وجعلوها عاجزة كل العجز عن هداية أصحابها.

وهذا هو السبب الحقيقى من وراء المظالم العديدة التى تجتاح مختلف بقاع الأرض اليوم، وتغرقها فى بحار من الدماء والأشلاء، والخراب والدمار باسم عدد من الأديان المحرفة، والدين الحقيقى منها براء. . . !! وليس أدل على ذلك من الجرائم البشعة والتجاوزات غير الإنسانية التى ترتكب باسم نبى الله موسى (على نبينا وعليه من الله السلام) منذ أكثر من خمسين عامًا على أرض فلسطين، ولو بعث موسى اليوم لكان أول المتبرئين منها والمقاتلين لمقترفيها.

وليس أدل على ذلك أيضًا من الحروب الصليبية التى استمرت لأكثر من قرنين من الزمان، وتجددت مع حملات التفتيش وحملات الاستعمار وما صاحبها من تجاوزات تقشعر منها الأبدان، ثم مع الاستعمار الجديد الذى تترأسه اليوم الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها والذى ارتكب ولا يزال يرتكب من الجرائم على أرض كلٍّ من البلقان، والعراق، وأفغانستان، وبلاد كل من الأبخاز والشيشان، وفى جنوب الفيليبين وأراكان، وفى كلٍّ من الصومال والسودان وغيرها باسم السيد المسيح (على نبينا وعليه من الله السلام)، ولو بعث المسيح اليوم لكان أول المتبرئين منها والمحاربين لمقترفيها.

ويؤكد ذلك الجرائم التى ارتكبت ولا تزال ترتكب على أراضى كل من الهند، وتايلاند، وبورما وسيريلانكا والصين باسم كل من الهندوكية والبوذية، وغير ذلك من الجرائم التى ارتكبت ولا تزال ترتكب على كثير من أراضى المسلمين فى القديم والحديث باسم الدين، والدين الحقيقى منها براء.

ولهذه المفاضلة بين كتب تركت لأصحابها فضيعوها، وكتاب تعهد الله بحفظه فحُفظ، امتدح ربنا – تبارك و تعالى – القرآن الكريم فى العديد من آياته والتى منها قوله – عز من قائل – :

* ﴿ الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢].

* ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

* ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

* ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

* ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧].

* ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

* ﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد: ١].

* ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

* ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

* ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

* ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

* ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف: ١].

* ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه: ١-٤].

* ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

* ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان: ١، ٢].

* ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

[الفرقان: ٦].

* ﴿ الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ١-٣]

* ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

* ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ١، ٢].

* ﴿ حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ١-٣].

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

* ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

* ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١].

* ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

* ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

والقرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية فى أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، ولكن الله - تعالى - يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل فى يوم من الأيام إلى زمن كزمننا الراهن، يفتح الله - سبحانه وتعالى - فيه على الإنسان من معرفة بالكون وسننه ما لم يفتح من قبل، فيغتر الإنسان بالعلم ومعطياته وتطبيقاته فى مختلف المجالات مما أوصل الإنسان إلى عدد من التقنيات المتقدمة خاصة فى مجالات الشر من مثل التجسس، وصناعة الأسلحة غير التقليدية مما يعرف باسم أسلحة الدمار الشامل، والتطوير المذهل فى القدرات التدميرية للأسلحة التقليدية، ومحاولة توظيف ذلك فى الهيمنة على الشعوب الصغيرة واستنزاف ثرواتها، وإذلال أبنائها. كما تفعل كل من الولايات المتحدة وبريطانيا فى هذه الأيام. وقد دفعت القوة المادية العمياء المصاحبة

لهذه التقنيات المتطورة أبناء هذه الأمم إلى نسيان الموت، والحساب، والآخرة، والجنة، والنار، خاصة وأن هذه المفاهيم وغيرها من ركائز العقيدة قد اهترأت اهتراء شديدًا فى معتقدات غير المسلمين، مما دفع كثيراً من علمائهم إلى إنكارها، والسخرية منها، ولكى يقيم ربنا - تبارك وتعالى - الحجة على أهل عصرنا، أبقى لنا فى محكم كتابه أكثر من ألف آية كونية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى تقترب دلالتها من الصراحة، وهذه الآيات القرآنية تحوى من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفًا لأحد من الخلق فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحى، وذلك لأهداف عديدة منها ما يمكن إيجازه فيما يلى :

أولاً: الشهادة للخالق بطلاقة القدرة فى إبداعه لخلقه، ومن ثم الشهادة له - سبحانه وتعالى - بالألوهية، والربوبية، والوحدانية ؛ لأن كل شىء فى هذا الوجود قد خلق بقدر، وفى زوجية واضحة تشهد للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه .

ثانيًا: الشهادة لله - تعالى - أنه كما أبدع هذا الكون من العدم، وعلى غير مثال سابق، فهو قادر على إفنائه إلى العدم، وعلى إعادة خلقه من جديد، خاصة وأننا نرى الخلق من العدم والإفناء إلى العدم يتكرر أمام أنظارنا فى صفحة السماء، حيث تتباعد المجرات عن بعضها البعض بمعدلات تقترب من سرعة الضوء، وتتخلق المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع من حيث لا نعلم . كذلك فإننا نرى مختلف صور المادة والطاقة تبتلع بواسطة النجوم الخانسة أو الكانسة (الثقوب السود) إلى حيث لا نعلم ونرى التقاء اللبنات الأولية للمادة بأضدادها فتفنى إلى ما لا نعلم .

وعلى الرغم من ذلك بقيت قضية البعث وإنكار إمكانية وقوعه هى الحجة الرئيسية للكفار والملحدين، وللحائرين المتشككين ؛ لأنه من جهلهم يقيسون على الله ـ تعالى ـ بمقاييس البشر، والبشر لا يقدرون على الخلق، ولا على البعث بعد الموت، بينما إرادة الله ـ تعالى ـ لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق .

ثالثًا: هذه الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى يتناسب مع ما توافر لهم من علم بالكون

ومكوناته، وتظل هذه المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمنًا على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقًا لنبوءة المصطفى ﷺ فى وصفه القرآن الكريم بأنه «**لا تنتهى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

وليس هذا لغير كلام الله (تعالى)... !! **لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية فى القرآن الكريم غير الله الخالق**؛ لأنه كتاب قد أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفى فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشىء من هذه الحقائق العلمية التى لم تكتشف إلا فى القرنين الماضيين، ولا تزال تكتشف إلى اليوم وحتى يوم الدين.

والإشارات الكونية فى القرآن الكريم جاءت فى أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالى سدس مجموع آيات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهمًا كاملاً فى إطارها اللغوى فقط - على أهمية ذلك وضرورته - ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية - وهو ما نسميه بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم - دون توظيف الحقائق العلمية التى توافرت معرفتها لأهل زمننا؛ لأن فى هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمى ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون فى العلم - كلٌّ فى حقل تخصصه - ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التى تشير إلى مستقبلية الاستكشاف فى دلالات بعض الآيات القرآنية، وذلك من مثل قوله - تعالى -:

* ﴿**لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٧].

---

(١) الترمذى (٢٩٠٦)، والدارمى فى «سننه» (٢/ ٥٢٥ - ٥٢٦) من كلام عبد الله بن مسعود، وصححه الألبانى فى «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٦٧)..

وقوله - عز من قائل - :

* ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٩٣] .

وقوله - سبحانه وتعالى - :

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٧ ، ٨٨] .

وقوله - عز وجل - :

* ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وفى المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة ، محددة الدلالة ، واضحة المعنى ، لا تحتمل غير وجه واحد ، يفهمه البدوى فى قلب الصحراء ، كما يفهمه أكثر الناس ثقافة وعلمًا ، وهذا أيضًا جانب من جوانب الإعجاز القرآنى التى لا تحصى ولا تعد . ولذلك يحضنا ربنا - تبارك وتعالى - حضا على تدبُّر آيات القرآن الكريم فيقول - عز من قائل - :

* ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

ويقول عز وجل :

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] .

ويقول تبارك وتعالى :

* ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ : «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»(١) .

---

(١) الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٤٩) والخطيب فى «تاريخ بغداد» (٨/ ٧٧) .

وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه، وفهم رسالته المتضمنة فى آياته، والتماس غرائبه أى معرفة ما غمض من معانيه على قارئه، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الآيات الكونية التى تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره فى زمن تنزل الوحى، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن، بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له، والتى وضعها الله - سبحانه وتعالى - فيه، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شىء عنها، وهذا الانتظام والاطراد فى سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير فى مواطن كثيرة.

ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية فى القرآن الكريم عديدة، ولكن يمكن إيجازها فيما يلى:

١ - إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهمًا كاملاً فى إطار اللغة وحدها، والمعرفة كلٌّ لا يتجزأ.

٢ - إن الإسلام والمسلمين يتعرضان اليوم لهجوم ظالم فى جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية؛ بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ، وإنكارهم الوحى بالقرآن الكريم، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا - عصر العلوم والتقنيات المتقدمة - على حجية ذلك كله، وباللغة التى يفهمونها.

٣ - إننا قصرنا فى التبليغ عن الله - سبحانه وتعالى - وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيرًا، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم فضل الإسلام على غيره من الأديان، وفضل القرآن على غيره من الكتب: هو ما ورد من حقائق علمية راسخة فى كل من كتاب الله -سبحانه وتعالى- وفى سنة رسوله ﷺ؛ لأن العلم قد أصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا.

٤ - إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقى فيها كل الثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من تقنيات مختلفة، ولذلك

فإن إثبات سبق كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون هو من أنجح الوسائل لإقناع أهل عصرنا بصدق القرآن الكريم وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

٥ - إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وأعراضنا، وكرامتنا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقى بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر، ومنه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، والذى لو أحسنّا توظيفه فى الدعوة إلى دين الله لفتح الله - تعالى - علينا الدنيا من أطرافها، والتجارب المحدودة فى هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته. وعلى الرغم من كل هذه المبررات فقد عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يزالون، والسبب الرئيسى لذلك هو: ازدواجية التعليم، والمفاصلة الكاملة بين تعليم دينى / إنسانى / نظرى لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم، وتعليم مدنى / علمى / تقنى لا يعطى للدارس الحد الأدنى من الثقافة الدينية التى تعينه على فهم أصول دينه، وعلى حُسْنِ القيام بعباداته، وحُسْنِ التبليغ عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة والحجة البالغةَ. ونتيجة لهذه المفاصلة تَخوف كلٌّ من الشرعيين والعلميين من الخوض فى هذه التجربة التى بدأها علماء المسلمين فى أوائل القرن الهجرى الثالث، واستمرت فى مد وجزر حتى عصرنا الراهن. وإن كان بعض المعارضين لقضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد جانبه الصواب لجهل أو حقد أو عمالة، فأحسن فى كتابته إلى مستوى لا يليق بصاحب قلم، فإنا لا نولى هؤلاء العملاء، الصغار، الجهلاء التفاتًا، فلينعقوا بما يريدون وكل إناء ينضح بما فيه والحق يعلو ولا يعلى عليه، وقد أمرنا الإسلام العظيم بالترفع بالذات عن الهبوط إلى تلك المستويات المتدنية من البشر، ونكل حسابهم إلى الله ـ تعالى ـ.

من مبررات المعارضين لقضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم:

١ - اعتبارهم التفسير العلمى للقرآن الكريم نوعًا من التفسير بالرأى - وهو مذموم عندهم - ولكن المقصود بالرأى المذموم هو الهوى، وليس الرأى المؤسس

على الحقائق العلمية الثابتة التى يقبلها كل عقل سوى، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادى الملموس.

٢ - اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت إلى التفسير أول ما نفذت عن طريق محاولات السابقين التعرض لشرح دلالة الآيات الكونية استنادًا إلى ما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم، وقد أثبت العلم خطأها، كما جاء فى كتاب الدكتور الفرنسى موريس بوكاى (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم).

٣ - إن القرآن الكريم هو كلام الله - فى صفائه الربانى - ولذلك فهو حق كله، وثابت ثبوت الرواسى، والعلوم المكتسبة متغيرة، ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير، أى لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس، وللرد على ذلك نقول: إن القرآن الكريم - الذى هو فى الأصل كتاب هداية - نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة، وإننا لا نوظف فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلا الحقائق العلمية الثابتة التى حسمها العلم والتى لا رجعة فيها.

٤ - إن العلوم الكونية انطلقت فى زماننا من منطلقات مادية بحتة، لا تؤمن بما فوق المدرك من صور المادة والطاقة، ولذلك تصاغ أحيانًا صياغات منافية لأصول الدين، نتيجة للصراع المرير الذى قام فى بدايات عصر النهضة الأوروبية بين العلميين ورجال الكنيسة فى العالم الغربى، وانتهى بانحسار دور الكنيسة. وللرد على ذلك نقول: إن هذا الموقف كان فى البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمى فى الغرب، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين، ولذلك طالبنا ولا زلنا نطالب بضرورة أسلمة المعرفة بمعنى إرجاعها إلى أصولها الإسلامية أى بضرورة التأصيل الإسلامى للمعرفة.

٥ - إن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم - بغير خلفية علمية سليمة - إما تكلفوا فى تحميل الآيات ما لا تحتمله، أو توسعوا أكثر من اللازم فى إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعانى ما لا تقصده، والقرآن العظيم أجلّ من ذلك وأكرم، وللرد على ذلك نقول إن إثبات الإعجاز للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين - كلٌّ فى حقل تخصصه - وعلى

الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها، وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له ولا رابط، وهناك فرق كبير بين دور المحقق ودور الناقل.

وهذه الحجج كلها مردود عليها كما أشرنا عقب كل حجة منها، وخير رد عليها هو الدعوة إلى الالتزام بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - والتى أوجزها فيما يلى:

١ - حُسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ فى اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل.

٢ - فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والإلمام بجهود المفسرين السابقين.

٣ - جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والقراءات الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآنى، وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد فى فهم النص القرآنى؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ.

٤ - عدم التكلف، أو لىّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم من ذلك انطلاقًا من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين.

٥ - البعد عن القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها بأكثر مما أثبته القرآن الكريم وفسرته السنة النبوية المطهرة، مثل قضايا الروح، وحياة البرزخ، وموعد قيام الساعة، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، والميزان، والصراط والذات الإلهية - وغير ذلك من غَيبيات مطلقة لا سبيل للإنسان فى الوصول إلى معرفة شىء عنها إلا عن طريق وحىِ السماء.

٦ - مراعاة التخصص الدقيق لكل محقق لموضوع من موضوعات الإعجاز

العلمى فى كتاب الله - كل فى حقل تخصصه - لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض، وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل.

٧ - يجب تحرى الدقة والأمانة فى التعامل مع كتاب الله، والتجرّد عن كل هوى شخصى حتى يتحقق إخلاص النية فى ذلك.

٨ - الالتزام بتوظيف الحقائق العلمية فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، باستثناء حالة واحدة، وهى حالة الآيات والأحاديث التى تفصّل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاثة - خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائهم جميعًا ثم إعادة بعثهم من جديد - لأن هذه القضايا التى لا تخضع لإدراك الإنسان ومشاهدته بطريقة مباشرة، وبذلك لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير - أى وضع نظرية من النظريات التى تتعدد بتعدد خلفية واضعيها - وفى هذه الحالة يمكن للمسلمين الارتقاء بإحدى هذه النظريات السائدة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة صريحة لها فى كتاب الله - سبحانه وتعالى- أو فى سنة رسوله ﷺ.

٩ - يجب التفريق بين قضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى لكلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وذلك لأن التفسير العلمى هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية الكونية فى هذين المصدرين من مصادر وحى السماء، ونحرص فى التفسير العلمى على توظيف الحقائق العلمية كلما توافرت، ولكن لما كان العلم الكسبى لم يصل بعد إلى الحقيقة فى كل أمر من الأمور، فلا أرى حرجًا من توظيف النظرية العلمية السائدة فى تفسير الآية الكونية التى لا تتوافر حقائق لتفسيرها، ولا حرج فى ذلك حتى لو ثبت خطأ النظرية الموظفة فى التفسير بعد ذلك؛ لأن الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، ولكن ينسحب على جهد المفسر. أما الإعجاز العلمى فهو موقف من مواقف التحدى، والمتحدى لا بد أن يكون واقفًا على أرضية صلبة، ولذلك لا يجوز أن يوظف فى الإعجاز العلمى إلا الحقائق العلمية كما أوضحنا فى النقطة السابقة.

١٠ - عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم فى حدود المعارف العلمية المتاحة لهم كلٌّ فى زمانه .

الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم:

كتب كثيرون فى موضوع الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم تحت عناوين مختلفة مثل : (الإعجاز البيانى ، البلاغى ، الأدبى ، اللفظى ، النظمى ، الدلالى) منهم الجاحظ فى القرن الهجرى الثالث (ت ٢٥٥ هـ) ، ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦هـ) وكل من الواسطى (ت ٣٠٦ هـ) ، والرمانى (ت ٣٨٦ هـ) ، والخطابى (ت ٣٨٨ هـ) وهم من علماء القرن الرابع الهجرى ، وكل من الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) ، والقاضى عبد الجبار (٤١٥ هـ) ، والظاهرى (ت ٤٥٦ هـ) ، والجرجانى (ت٤٧١ هـ) ، والغزالى (ت ٥٠٥ هـ) من علماء القرن الخامس الهجرى ، وكل من القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ) ، والفخر الرازى (ت ٦٠٤ هـ) من علماء القرن السادس الهجرى ، وكل من السكاكى (ت ٦٢٦ هـ) ، والعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) فى القرن السابع الهجرى ، والزركشى (ت ٧٩٤ هـ) من أعلام القرن الثامن الهجرى ، والبقاعى (ت ٨٨٥ هـ) من القرن التاسع الهجرى ، والسيوطى (ت ٩١١ هـ) من أعلام القرن العاشر الهجرى ، والألوسى (ت ١٢٧٠ هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجرى ، ونشطت الكتابة فى موضوع الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطًا ملحوظًا ، وكان ممن خاضوا هذا المجال : الزرقانى ، محمد عبده ، محمد رشيد رضا ، الرافعى ، الجزائرى ، المراغى ، دراز ، أبو زهرة ، النورسى ، سيد قطب ، بنت الشاطئ ، بدوى ، البيومى ، العمارى ، والمطعنى وغيرهم .

الإعجاز العلمى للقرآن الكريم:

تناول الإشارات الكونية فى القرآن الكريم عديد من المفسرين فى ثنايا تفاسيرهم ومؤلفاتهم منذ القرن الهجرى الأول ، وكان فى مقدمتهم الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى

كتبه المعنونة «الحجة فى تثبيت النبوة»، و«نظم القرآن» و«الحيوان»، وابن حزم الأندلسى (ت ٤٠٥ هـ) فى كتابه «المفصل»، والغزالى (ت ٥٠٥ هـ) فى كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن»، والفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) فى تفسيره «مفاتيح الغيب» وكتابه «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز»، وطنطاوى جوهرى (ت ١٣٥٩ هـ) فى موسوعته «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم»، ومحمد بن أحمد الإسكندرانى الطبيب، وعبد الله فكرى، وعبد العزيز سيد الأهل، أحمد مختار الغازى، حنفى أحمد، محمد أحمد الغمراوى، محمد محمود إبراهيم، إبراهيم عبد القادر محمد فرج، محمد جمال الدين الفندى، عبد الرازق نوفل، يوسف مروة، عبد الغنى الخطيب، أحمد محمود سليمان، عبد الله شحاته، مصطفى محمود، يوسف السويدى، ومنصور حسب النبى، وعدد آخر من العلماء المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع.

وكان من طلائع المجاهدين فى هذا المجال كلٌّ من المرحومين ـ بإذن الله : الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى أستاذ الفلك السابق بكلية العلوم، جامعة القاهرة، ورئيس لجنة الخبراء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سابقا، والأستاذ عبد الرزاق نوفل المستشار السابق بوزارة الزراعة المصرية، والأستاذ الدكتور عبد المحسن صالح أستاذ علوم الأحياء الدقيقة السابق بجامعتى القاهرة والإسكندرية، والأستاذ الدكتور حسين كمال الدين الأستاذ السابق بهندسة القاهرة، والأستاذ الدكتور أحمد محمد مجاهد أستاذ النبات بجامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور محمد رشاد الطوبى أستاذ علم الحيوان بجامعة القاهرة.

وكان من فرسان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أخى الحبيب، الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل - رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم - وهو رئيس قسم الكيمياء الإكلينيكية السابق بكلية طب قصر العينى/ جامعة القاهرة، ورئيس الجمعية العربية للكيمياء الإكلينيكية، والذى وافته المنية فى مساء الثلاثاء ٢٢ من شوال ١٤٢٤هـ (الموافق ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٣م) فترك فراغًا كبيرًا، فقد كان - رحمه الله - فذًا فى تخصصه العلمى، حافظًا لكتاب الله، عالمًا

بالقراءات العشر، فقيها فى دينه، مقيمًا لشعائره، منافحًا عنه، وحاملاً لقضاياه، أسس العديد من المنشآت الطبية الإسلامية، ومراكز تحفيظ القرآن الكريم، والمدارس الإسلامية، والمساجد، ومساكن الطلبة المغتربين والطالبات المغتربات تحت إشراف إسلامى ملتزم، وكان من أوائل مؤسسى جمعية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، والذى احتضنها فى أحد أبنيته الخاصة، وكثيرًا ما حاضر وناقش وكتب فى هذا المجال وكانت إشراقاته العديدة نورًا لنا على الطريق، فرحمه الله رحمة واسعة وجعل مثواه جنات الخلد فى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا اللهم آمين.

وكان من فرسان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أخى العزيز الأستاذ الدكتور منصور محمد حسب النبى - رحمه الله رحمة واسعة - أستاذ ورئيس قسم الفيزياء بكلية البنات -جامعة عين شمس سابقا، والذى أثرى هذا المجال بكتابات مؤصلة تأصيلاً علميًا وشرعيًا صحيحًا، فجزاه الله خير الجزاء على ما قدم. وكان منهم الأستاذ الدكتور حسن أبو العينين - رحمه الله - أستاذ الجغرافيا الطبيعية بجامعة الإسكندرية سابقًا.

أما الأحياء من فرسان هذا الميدان فهم كثيرون وأسأل الله - تعالى - أن يبارك فى أعمارهم وأعمالهم، وأن يجعل جهودهم خالصة لوجهه الكريم حتى يكملوا المسيرة على خير إن شاء الله رب العالمين.

التحاقى بركب المشتغلين بقضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

بدأت الاهتمام بقضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ دخولى إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥١م، حين تعرضت - وتعرض غيرى من الطلاب المسلمين - لسيل من التحديات الوافدة مع تيارات التغريب المختلفة من مادية دهرية، يمينية أو يسارية، وكانت تيارات عاتية بأيدى العديد من الأساتذة والإداريين والطلبة الذين سخروا لمهاجمة الإسلام

والمسلمين، وكان فى مواجهة هذا التيار التغريبى تيار إسلامى قوى ينتصر لهذا الدين الخاتم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوى، وكان على رأس هذا التيار الراشد أستاذى وأستاذ جيل كامل ممن تخصصوا فى علوم الأرض وهو الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد القادر محمد فرج - بارك الله فى عمره وأحسن لنا وله الخاتمة - الذى كان يملأ محاضراته ومذكراته وأحاديثه بحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة فكوّن مدرسة علمية فى هذا المجال أسأل الله - تعالى - أن يجزيه عنا وعنها خير الجزاء. وكان من قادة هذه المدرسة الإيمانية الأستاذ الدكتور محمد محمود إبراهيم - رحمه الله رحمة واسعة - الذى كان يشغل منصب رئيس قسم هندسة التعدين والبترول بجامعة القاهرة فى ذلك الوقت وكتب كتابًا قيمًا بعنوان «إعجاز القرآن وطبقات الأرض»، وصال وجال بهذا الأمر فى العديد من المحاضرات والمناظرات على مستوى جامعة القاهرة وخارجها.

وكان من الفرسان المجاهدين فى هذا الميدان الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى - رحمه الله وأجزل له المثوبة - الذى عمل أستاذًا للصيدلة بجامعة القاهرة، وعميداً لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض حيث شرفت بمعيته، وسعدت بصحبته. ومن مؤلفاته العديدة: «فى سنن الله الكونية»، «الإسلام فى عصر العلم».

هذا بالإضافة إلى التحديات التى لقيتها فى طفولتى وشبابى من الحملات التنصيرية التى قادها عدد من المؤسسات البريطانية والأمريكية فى مصرنا الحبيبة، وكان من ضمنها المدارس والمستشفيات التنصيرية من مثل المستشفى الأمريكى فى مدينة طنطا والذى كان أطباؤه وممرضوه وإداريوه يجوبون الريف فى محافظة الغربية فى محاولات يائسة لشراء دين الفقراء والبسطاء بقطرة دواء أو بنصيحة طبية، ولكن باءت جهودهم بالفشل، وكان من ضمنها كلٌ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ونشاطاتها الثقافية، والكلية الأمريكية للبنات بالقاهرة وكانت الدراسة فيها داخلية لتعريض الطالبات لأطول مدد ممكنة من عمليات غسيل المخ، وكانت تصلنا أخبارهن بالتفصيل ونحاول الرد على ما يتعرضن له من ضغوط.

ثم شاءت إرادة الله - تعالى - أن أسافر إلى بريطانيا فى سنة ١٩٦١م للدراسة

لدرجة الدكتوراه، أى بعد خمس سنوات من وقوع الاعتداء الثلاثى الغادر على مصر فى سنة ١٩٥٦م، والذى اشتَرَكَتْ فيه كل من بريطانيا وفرنسا، والكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين، وكانت مشاعر البريطانيين مشحونة كراهية لكل من مصر، والعروبة، والإسلام . . !! ووجدتنى منذ اللحظة الأولى لوضع قدمى على التراب البريطانى مضطراً للدخول فى مناظرات وحوارات ساخنة مع أعداد من غلاة الحركة الصهيونية العالمية المتغلغلة فى المجتمع البريطانى والمهيمنة عليه بالرغم من قلة عددها الظاهر، ومع عدد من متعصبى الحركات الصليبية المحلية والعالمية، ومع غلاة المناصرين للسياسة البريطانية الاستعمارية وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت.

ويلى ذلك عملى فى عدد من الجامعات العربية، حيث كان الناس -فى غالبيتهم الساحقة- مفتونين بالقومية العربية فتنة كبيرة، ومن أجل انتصارهم لهذه الدعوة العرقية التى نهانا عنها رسول الله ﷺ صبوا جام غضبهم على الدين، وكان علينا أن نصبر على غلوائهم، وأن نحاورهم بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة والمنطق السوى.

ثم شاءت إرادة الله -سبحانه وتعالى- أن أسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين فى مهمة علمية قضيتها أستاذاً زائراً فى جامعة كاليفورنيا -لوس أنچيليس. وكلفت منذ الأسبوع الأول لوصولى إلى تلك المدينة بالمشاركة فى حوار ثلاثى بين الإسلام والمسيحية واليهودية تم فى جامعة كاليفورنيا، ثم على التلفاز الأمريكى، كما شاركت فى حوارات متعددة نظمها «مجلس الأديان فى المدينة» (The Inter -Religious Council)، وانتظمت فى إلقاء خطبة الجمعة، ومحاضرة السبت، طيلة إقامتى فى لوس أنچيليس، وفى الحوار مع العديد من المنظمات الدينية والفكرية فى المدينة، وتحركت منها إلى عدد من الجامعات والمدن الأمريكية الأخرى.

ثم حدث أن زار الولايات المتحدة الأمريكية وأنا مقيم بها فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود -رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم- وكان فى صحبته الكريمة كلٌّ من فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل -رحمه الله

وأكرم مثواه- ، وفضيلة الشيخ محمود خليل الحصرى -طيب الله ثراه وأكرم نزله- وطلب منى فضيلة الإمام الأكبر الترجمة عنه وله ، وكانت فرصة طيبة للنهل من علمه الغزير وللدخول فى حوارات عدة مفيدة .

وحدث أيضًا فى فترة إقامتى بالولايات المتحدة الأمريكية أن تمت زيارة الرئيس السادات للقدس الشريف وهو تحت الاحتلال الصهيونى الغاصب ، واشتعلت المشاعر بين معارض لتلك الزيارة وراضٍ بها ، وانهالت الطلبات علىّ للمحاضرة عن القضية الفلسطينية فى العديد من الجامعات الأمريكية ، وللحوار مع عدد من غلاة الصهاينة ومؤيديهم الدينيين والسياسيين على الأرض الأمريكية خاصة أبناء الكنيسة الإنجيلية . ومن خلال تلك المحاضرات والمناظرات اتضح لى بجلاء جهل الغربيين بحقيقة الإسلام وبواقع المسلمين ، واستغلال الحركات المعادية لنا : من صهيونية وصليبية واستعمارية لهذا الفراغ الذى تركناه ـ نحن المسلمين ـ بالتقصير فى التبليغ عن ديننا ؛ ليملأوا أذهان الغربيين بالخوف من هذا الدين ، وبتحذيرهم من إمكانية عودة المسلمين إلى وحدتهم ، وإلى تمسكهم بدينهم ، ووسائل الإعلام الغربية ـ فى غالبيتها ـ واقعة فى أيدى عتاة الصهيونية العالمية ، الذين وظفوها فى ملء قلوب الغربيين بكراهية الإسلام والخوف من المسلمين . وليس أدل على ذلك من سيل الكتابات تحت عناوين مستفزة من مثل «صراع الحضارات» ، «الخوف من الإسلام» ، «المسلمون قادمون» ، «الموجة الثالثة» ، «الله له تسع وتسعون اسمًا» ، «الإسلام والإرهاب» ، وغيرها .

وليس أدل على ذلك من المؤامرات الغربية التى أدت إلى ثلاث حروب بالخليج ، بالإضافة إلى حروب البلقان ، وأفغانستان ، والشيشان ، وكشمير ، وأراكان ، وجنوب كل من الفيليبين والسودان . وقد تعاظم حجم هذا الكيد فى غزو كلّ من أفغانستان والعراق ، وتعريض شعبيهما الأعزلين لأبشع صور التعذيب الوحشى والإذلال التعسفى النابع من حب التشفى . وفى الصمت المطبق للعالم كله إزاء الجرائم الإسرائيلية البشعة التى تقترفها منذ أكثر من خمسين عامًا مضت وحتى اليوم مجافية بذلك كل الأخلاق ، والقيم ، والأعراف ، والأديان ، والقوانين الدولية : من قتل للأطفال ، والنساء ، والشيوخ ، والشبان بالآلاف ، وهدم للمنازل ، والمساجد ،

والمدارس، والمستشفيات، وتجريف للأراضى الزراعية، وتخريب للبنية الأساسية، واعتقال لعشرات الآلاف من الشباب وتعريضهم للتعذيب الوحشى حتى الموت أو العاهات الدائمة، ونفى العشرات منهم إلى خارج حدود بلدهم. والإدارات الأمريكية المتعاقبة تعتبر كل هذه الجرائم دفاعًا عن النفس.

هذا بالإضافة إلى الصمت المطبق على مذابح المسلمين فى البلقان، وفى الشيشان، وفى كشمير وأراكان وجنوب الفيليبين وتايلاند وغيرها.

واتضح لى كذلك أن المخرج الوحيد لنا من هذا المأزق التاريخى هو حسن التعريف بهذا الدين من مصادره الصحيحة: القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، باللغة التى يفهمها أهل عصرنا وهى لغة العلم، وذلك بعرض جوانب الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، وللسنة النبوية المطهرة، دون الخوض فى الخلافات الدينية أو السياسية أو التاريخية.

وانطلاقًا من ذلك كان اهتمامى بهذه القضية التى كرست لها جزءًا كبيرًا من حياتى، وجبت من أجلها العالم من كندا، والدول الاسكندناقية وروسيا شمالاً، إلى استراليا، وجنوب أفريقيا جنوبًا؛ ومن الأمريكيتين غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا.

وفى إحدى هذه الجولات حدث أن دعانى سعادة الأخ العزيز الدكتور غازى القصيبى أثناء عمله سفيرًا للمملكة العربية السعودية بلندن لإلقاء محاضرة بالمركز الإعلامى السعودى لتلك السفارة وذلك فى مساء ٥/ ١١/ ١٤١٨ هـ (الموافق ٣/ ٣/ ١٩٩٨م)، وقد أثارت المحاضرة حوارًا ممتعًا بعدها، وعلق على المحاضرة الصحفى الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين بزاويته فى **جريدة الحياة والمعنونة «من الحياة»** وذلك بتاريخ ٧/ ١١/ ١٤١٨هـ (الموافق ٥/ ٣/ ١٩٩٨م) تعليقًا طيبًا.

ثم استضافنى الأخ الأستاذ أحمد منصور للقاء على قناة الجزيرة فى برنامجه المعنون «بلا حدود» وإذا بالبرنامج يحدث صدى كبيرًا عند الذين شاهدوه، وكانت منهم الأخت الفاضلة والصحفية القديرة الأستاذة ابتسام الهوارى التى كتبت عن هذا اللقاء فى يوميات الأخبار بتاريخ ٢٦/ ٦/ ١٤٢٠هـ (الموافق ٦/ ١٠/ ١٩٩٩م)

تحت عنوان «نحن أولى بعلمائنا» كلامًا فوق ما أستحق، فجزى الله الجميع عنى خير الجزاء.

وبعد ذلك بقليل استضافنى الأخ الكريم الأستاذ عاصم بكرى للقاء على القناة المصرية الثالثة، مما أثار تعليق العديدين من المهتمين بالقضية. ثم غبت فى عمل بانجلترا لفترة من الزمن عملت فيها رئيسًا لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا بمقاطعة ليستر.

وفى صبيحة الأربعاء العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢١هـ (الموافق السادس من ديسمبر سنة ٢٠٠٠م) مررت بالقاهرة بعد رحلة أخذتنى من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى دبى للمشاركة فى البرنامج الثقافى المصاحب لاحتفالاتها بجائزتها الدولية للقرآن الكريم، ومنها إلى الكويت بدعوة من وزارة الأوقاف فيها للمشاركة فى برنامجها الدعوى بمناسبة شهر رمضان المبارك، ومن الكويت إلى البحرين بدعوة من «جمعية النور للبر» للمشاركة فى برنامجها الثقافى بمناسبة الشهر الفضيل. ومن البحرين وصلت إلى القاهرة لأجد دعوة كريمة من الإذاعى الكبير والأخ العزيز الأستاذ أحمد فراج لاستضافتى فى حلقتين من برنامجه التليفزيونى الشهير «نور على نور». وبعد إتمام هذا اللقاء بأقل من أربع وعشرين ساعة غادرت القاهرة إلى لندن ومنها إلى ماركفيلد.

وبعد أسابيع قليلة أذيعت الحلقة الأولى من لقائى مع الأستاذ أحمد فراج ولم أشاهدها، ومن بعدها الحلقة الثانية ولم أشاهدها أيضًا، ولكن بدأت الاتصالات الهاتفية والبرقية تترى، وهى تحمل التعبير عن تأثر المشاهدين بهاتين الحلقتين لدرجة أن جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى مصر، بل فى كثير من الدول العربية قد علقت على هاتين الحلقتين بإعجاب شديد، وعلمت أنه تحت إلحاح المشاهدين قامت كل من القناة الأولى للتليفزيون المصرى، والفضائية المصرية، ببث الحلقتين متتاليتين ومجتمعتين عدة مرات فى غير سابقة لذلك. ولم تتوقف الاتصالات بى بخصوص تأثير هاتين الحلقتين على مصر والمصريين، بل جاءت من عدد غير قليل من كبار الشخصيات العربية والإسلامية، وكان من أهم هذه الاتصالات بى اتصال مؤسسة الأهرام الصحفية ممثلة فى رئيس مجلس إدارتها

الأستاذ الكبير إبراهيم نافع -حفظه الله- الذى طلب مقابلتى عند أول زيارة لى للقاهرة، فاستجبت لذلك شاكرًا ومقدرًا.

وفى فجر الاثنين ١١/ ١١/ ١٤٢١هـ (الموافق ٥/ ٢/ ٢٠٠١م) وصلت إلى القاهرة بعد رحلة أخذتنى من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى كل من الرياض، وجدة، والمدينة المنورة حيث حضرت مؤتمرًا عن القرآن الكريم، فاستقبلت فى مطار القاهرة استقبال الفاتحين. وفى صبيحة اليوم التالى سعدت بلقائى بالأخ الكريم الأستاذ إبراهيم نافع الذى عرض علىّ مشكورًا تخصيص صفحة كاملة بجريدة الأهرام الغراء للكتابة عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فشكرته على ذلك ودعوت له بكل خير. وقد رعى الأستاذ الكبير على غنيم نائب رئيس مجلس الإدارة ومدير عام المؤسسة هذا الأمر بعنايته واقترح الصحفى الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع عنوانًا للصفحة هو «من أسرار القرآن».

وابتداءً من الاثنين ٢٩/ ١/ ١٤٢٢هـ (الموافق ٢٣/ ٤/ ٢٠٠١م) بدأت فى كتابة مقال أسبوعى بجريدة الأهرام الغراء تحت هذا العنوان: «من أسرار القرآن: الإشارات الكونية فى القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية» فى سلسلة صدر منها حتى تاريخ ٢/ ٤/ ١٤٢٦هـ (الموافق ١٠/ ٥/ ٢٠٠٥م) أكثر من مائة وخمسة وثمانين مقالاً.

والكتاب الذى يقع بين يدى قارئه الكريم يمثل تسعا من تلك المقالات، جمعتها تحت عنوان: **من آيات الإعجاز العلمى (٦): النبات فى القرآن الكريم (٣)**، وقد سبق أن صدر فى هذه السلسلة جزءان عن «النبات فى القرآن الكريم» تناولا جوانب الإعجاز العلمى فى خمس عشرة آية من آيات هذا الكتاب العزيز ليصبح مجموع ما ناقشته الكتب الثلاثة أربعا وعشرين آية من آيات النبات التى يفوق عددها مائة آية كريمة وإذا كان فى العمر بقية فسوف أناقش باقى هذه الآيات المائة ونيف إن شاء الله. وسيتبع هذا الكتاب إن شاء الله -تعالى- ببقية المقالات حسب أبوابها بعد أن صدر من هذه السلسلة جزءان بعنوان: «السماء فى القرآن الكريم» و«الأرض فى القرآن الكريم».

ولا يفوتنى هنا أن أسجل لمؤسسة الأهرام الصحفية -بصفة عامة- ولأخى الكريم الأستاذ إبراهيم نافع - بصفة خاصة - هذا الفضل الذى أسبغاه علَىَّ بدعوتى كى أكون من الكتّاب المنتظمين بالأهرام، وهو شرف أفخر به وأعتز، وأسجل أيضًا أن هذا القرار التاريخى الذى أفسح للقرآن الكريم صفحة كاملة فى كل أسبوع، (ولأول مرة فى تاريخ جريدة الأهرام العريقة، وهى أقدم وأكبر وأهم الصحف العربية على الإطلاق، وأكثرها انتشاراً فى العالم)، هذا القرار سوف يبقى صفحة من نور فى تاريخ هذه المؤسسة، وعملاً ضخمًا وثقيلاً فى موازين كل من أعان على اتخاذه حتى أصبح حقيقة قائمة، ولست أملك حيال ذلك إلا أن أتوجه إلى الله -تعالى- بالدعاء الصادق أن ينفع الناس بما ينشر فى هذه الصفحة، وأن يجزى كل صوت حر نزيه فى صحافتنا العربية والإسلامية خير الجزاء، وأن يعين القائمين عليها على السير بها فى طريق الحق، والخير، والرشاد، والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة فى مساء الثلاثاء: ٢/ ٤/ ١٤٢٦هـ

١٠/ ٥/ ٢٠٠٥م

الفقير إلى عفو ربه

زغلول النجار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ .... وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأنعام: ٩٩)





هذا النص القرآنى المعجز جاء فى بداية الثلث الأخير من سورة الأنعام، وهى سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها خمساً وستين ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لتكرار الإشارة فيها إلى الأنعام، ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول العقائد والتشريعات الإسلامية، وقصص عدد من الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله ـ تعالى ـ من قبل بعثة خاتمهم أجمعين سيدنا محمد ﷺ .

عرض موجز لسورة الأنعام

* استهلت السورة الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وهى حقيقة أريد بها دفع كل الأباطيل التى روجها الكافرون عبر التاريخ ـ ولا يزالون ـ فى محاولة يائسة لنفى الخلق، والتنكر للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ واستهلال سورة الأنعام بهذه الحقيقة الكونية الثابتة دليل على أهميتها فى استقامة العقيدة؛ ولذا تكرر التأكيد عليها فى ثنايا القرآن الكريم لمرات عديدة.

* ويلى الإخبار بهذه الحقيقة أمر آخر خطير تقرره هذه السورة المباركة بالنص التالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾** [الأنعام: ٢].

وفى ذلك تسجيل لثانى أكبر الحقائق الكونية، ألا وهى حقيقة خلق الإنسان من طين، وحتمية موته، وتحديد اللحظة التى يغادر فيها كل مخلوق هذه الحياة الدنيا،

وتأكيد حتمية الآخرة، التى لايعلم وقتها إلا الله، تعالى. وفى ذلك من التأكيد على حقيقة الألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة للخالق العظيم ما جزمت به الآية الثالثة من هذه السورة المباركة والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

* ثم تسرد الآيات بعد ذلك إعراض الكافرين عن آيات الله، وتكذيبهم بالحق لما جاءهم، وتعرض تهديد الله ـ تعالى ـ لهم من عواقب ذلك، وتذكيرهم بأمم من قبلهم، مكن الله لهم فى الأرض ثم أهلكهم بذنوبهم، وهو تحذير لهم ولغيرهم من الأمم والأفراد إلى قيام الساعة، وتأكيد أن التمكين فى الأرض، وبسط الرزق فيها ليسا ـ بالضرورة ـ دليل رضى من الله سبحانه وتعالى، بل قد يكون ذلك من باب الاستدراج لكشف معادن الناس وإظهار حقيقة نواياهم ودخائل نفوسهم.

* وتعرض الآيات لحوار بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يكشف موقف المراوغة والتكذيب والعنت منهم، وثبات الإيمان الراسخ على اليقين الذى يثبت به الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، فيقول له:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٤ ـ ١٦].

وتضيف السورة الكريمة على لسانه ﷺ أمرا من الله ـ تعالى ـ إليه تقول له فيه:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

* ويستمر الإخبار فى سورة الأنعام بأحداث وقعت فى غيب الماضى البعيد تأكيداً على صدق هذا الكتاب العزيز، وعلى صدق الرسول الخاتم الذى تلقاه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ومن ضمن تلك الأخبار الغيبية جاء الحديث عن ثمانية عشر من أنبياء الله

ورسله (على نبينا وعليهم جميعًا من الله السلام)، تأكيدًا على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى حاجة الإنسان دومًا إلى الدين الصحيح القائم على التوحيد الخالص لله (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد)، وإلى نماذج ممن تربوا على هذه الهداية الربانية الخالصة (الإسلام) يُقْتَدَى بهم وسط فتن الدنيا وصعوباتها لأن الشرك بالله ظلم كبير للنفس، يهدد سلامة الفرد والمجتمع والبشرية كلها. ومن هنا كانت ضرورة كشف زيفه ـ أى زيف الشرك بالله ـ بالحجة المنطقية والبرهان الواضح، وضرورة عرض ذلك من خلال القرآن ـ وهو الوحى السماوى الوحيد المحفوظ بين أيدى الناس اليوم بنفس اللغة التى أوحى بها، (اللغة العربية) محفوظا بحفظ الله كلمة كلمة وحرفًا حرفًا على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فى الوقت الذى تعرضت كل صور الوحى السابقة للضياع التام، وما بقى منها من ذكريات نقلت شفاهًا عبر عدة قرون تعرض للنقل إلى لغات غير لغة الوحى مع ضياع الأصول، وتعرض خلال ذلك النقل إلى قدر من التحريف الذى أخرجها عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عجزًا كاملاً عن هداية أصحابها، وأوقعهم فى أوحال الشرك أو الكفر والضلال أو التشكك والضياع.

* هذا، وقد بلغت الآيات التى تضمنت الإخبار بأحداث الغيب البعيد فى سورة الأنعام خمسا وعشرين آية، والقضايا التى تحدثت عنها تلك الآيات كانت قد وقعت بالفعل، ولكنها اعتبرت من الغيوب لأن العرب فى زمن البعثة المحمدية لم يكونوا يعرفونها لتقادم العهد بها خاصة أنهم لم يكونوا أمة تدوين؛ وورود ذكر تلك الأحداث التاريخية فى القرآن الكريم بهذه الدقة البالغة التى بدأت البحوث الأثرية فى إثبات العديد منها، مما يشهد لكتاب الله بالإعجاز التاريخى.

* أما الغيوب المستقبلية التى لم تقع بعد، أو التى لم تكن قد وقعت إلى نزول القرآن الكريم بها فتدخل فى مجال الإعجاز التنبؤى لكتاب الله. وبعض هذه المعجزات من الغيوب المطلقة التى لا سبيل للإنسان فى الوصول إليها إلا عن طريق وحى السماء. والهدف من إيرادها فى كتاب الله هو تحذير الناس وتبشيرهم بين يدى الساعة حتى لا يفاجأوا بها دون استعداد لها.

وقد جاء الحديث عن الغيوب المستقبلية فى سورة الأنعام فى ثلاث وأربعين آية نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وهاتان الآيتان الكريمتان قد تحقق ما جاء فيهما ولا يزال يتحقق إلى يومنا هذا. والآيتان تصفان الكفار والمشركين وقت تنزل القرآن الكريم، إلا أن الحكم فيهما قد تحقق دوما منذ ذلك التاريخ إلى يومنا الراهن وسوف يظل يتحقق حتى قيام الساعة.

* ومن إخبار الآيات فى سورة الأنعام عن الغيوب المستقبلية وصفها لمشهد احتضار الكافرين وفيه يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام ٩٣، ٩٤].

* كذلك جاءت الإشارة إلى النفخ فى الصور وهو حدث غيبى مستقبلى خطير يحدد الفاصل بين الدنيا والآخرة، وفيه يقول ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

* وجاء الإخبار كذلك عن الحشر فى أكثر من آية، نختار منها قوله ـ تعالى ـ:

١ ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٢ ـ ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٣ ـ ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٤ ـ ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٥ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا .... ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

* وكذلك جاء الإخبار عن الوعد والوعيد فى إحدى عشرة آية نختار منها قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٩].

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٧].

* وجاء ذكر يوم القيامة فى أربعة عشر موضعًا، نختار منها قول ـ ربنا تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢].

* وجاء ذكر مصائر المكلفين من الخلق (الإنس والجن) وأحوالهم فى الآخرة فى اثنتى عشرة آية من آيات سورة الأنعام، نختار منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]

* وكان الهدف المقصود من الإخبار بغيب الماضى البعيد، وبالغيب المستقبلى الأبعد هو تفصيل قضية العقيدة الإسلامية القائمة على ألوهية الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وتوحيده التوحيد المطلق فوق جميع خلقه، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله ـ من مثل الشبيه أو الشريك، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد ـ والعقيدة الإسلامية قائمة كذلك على عبودية المخلوقين جميعهم لله، وعلى رفض كلّ من كفر الكافرين وشرك المشركين وتشكك المتشككين وتفنيد مزاعمهم، والثبات على الدين الصحيح الذى لا يرتضى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده دينًا سواه ألا وهو

الإسلام العظيم الذى أنزله الله تعالى على فترة من الرسل، وأتمه وأكمله فى بعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ولذلك تعهد بحفظ رسالته الخاتمة إلى يوم الدين.

* وبالإضافة إلى ذلك تناولت الآيات فى سورة الأنعام أخباراً عن رسول الله ﷺ، وعن الذين آمنوا به وبرسالته، كما تحدثت عن كل من المشركين وزعمائهم، وعن مواقف أهل الكتاب من الرسالة الخاتمة فى زمن الوحى وإلى قيام الساعة.

وجاء ذكر رسول الله ﷺ وما جاء به من حق فى أكثر من ستين آية نختار منها قول الحق - تبارك وتعالى - على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧-٥٨].

* كذلك جاءت الإشارة إلى كل من القرآن الكريم ومكة المكرمة والمؤمنين فى خمس آيات من سورة الأنعام، نختار منها قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

* وبالمقابل جاءت الإشارة إلى المشركين وإلى معتقداتهم الفاسدة، وطرائق تفكيرهم الملتوية فى العديد من الآيات نختار منها قوله - تعالى -:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

* وجاءت الإشارة إلى مكر أكابر المجرمين من أجل أن يتمكن المؤمنون من أخذ الحذر منهم وذلك فى آيتين كريمتين يقول فيهما ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣، ١٢٤].

وفى هذه السورة المباركة جاء الخطاب إلى أهل الكتاب واضحًا بينًا قاطعًا بحكم الله فيهم وذلك فى خمس آيات كريمات نختار منها قول الحق - تبارك وتعالى - مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢١].

وقوله - عز من قائل -:

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

* وقرب ختامها أكدت سورة الأنعام ضرورة تأسيس الأحكام على العلم، لا على الظن والتخمين، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - مخاطبا الكفار والمشركين فى جزيرة العرب وفى كل مكان وزمان:

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى -:

﴿ ... وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

* ذكر الطبرى - رحمه الله - ما مختصره: «... ﴿ **قِنْوَانٌ** ﴾: جمع قنو وهى: العذوق، ﴿ **دَانِيَةٌ** ﴾ متهدلة قصار قريبة من الأرض. ﴿ **مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** ﴾: ما يتشابه ورقه، ويختلف ثمره وطعمه، ﴿ **وَيَنْعِهِ** ﴾ نضجه وانتهاؤه.

* وذكر ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ ما مختصره: «﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أى جمع قنو وهي عذوق الرطب، ﴿دَانِيَةٌ﴾ أى قريبة من المتناول، كما قال ابن عباس ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾: يعنى بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض (رواه ابن جرير).

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أى ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا . . ، وقوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾، قال قتادة وغيره: متشابه فى الورق والشكل قريب بعضه من بعض، ومتخالف فى الثمار شكلاً وطعمًا وطبعا، ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أى نضجه، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى يصدقون به ويتبعون رسله».

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ خبر، ويبدل منه: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ أول ما يخرج منها، والمبتدأ ﴿قِنْوَانٌ﴾ عراجين ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريب بعضها من بعض ﴿وَ﴾ أخرجنا به ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ ورقهما، حال ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ثمرهما ﴿انظُرُوا﴾ يامخاطبين نظر اعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ بفتح الثاء والميم وبضمهما، وهو جمع ثمرة . . ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أول ما يبدو كيف هو ﴿وَ﴾ إلى ﴿يَنْعِهِ﴾ نضجه إذا أدرك كيف يعود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ دلالات على قدرته ـ تعالى ـ على البعث وغيره ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها فى الإيمان بخلاف الكافرين».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى برحمته الواسعة ـ ما مختصره: «﴿مِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير، وفى النخلة هو العذق الذى يحمل الثمر، ولفظة ﴿قِنْوَانٌ﴾ ووصفها ﴿دَانِيَةٌ﴾ يشتركان فى إلقاء ظل لطيف أليف. وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ . . و﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾. هذا النبات كله بفصائله وسلالاته ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ . . انظروا بالحس البصير، والقلب اليقظ . . انظروا إليه فى ازدهاره، وازدهائه، عند كمال

نضجه، انظروا إليه واستمتعوا بجماله. . لا يقول هنا، كلوا من ثمرة إذا أثمر، ولكن يقول: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع، كما أنه مجال تدبر فى آيات الله، وبدائع صنعته فى مجالى الحياة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. . فالإيمان هو الذى يفتح القلب، وينير البصيرة، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة فى الفطرة، ويصل الكائن الإنسانى بالوجود، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع. . وإلا فإن هناك قلوبًا مغلقة، وبصائر مطموسة، وفطراً منتكسة، تمر بهذا الإبداع كله، وبهذه الآيات كلها، فلا تحس بها ولا تستجيب ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ومن طلع النخل قنوان دانية، والطلع: أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان، وقشره يسمى الكفرى، وما فى داخله يسمى الإغريض لبياضه. والقنوان: العراجين، جمع قنو وهو العذق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب، و﴿دَانِيَةٌ﴾ أى متدلية، أو قريبة من يد المتناول. ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على ﴿نَبَاتَ﴾، أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أى بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه فى الهيئة واللون والطعم وغير ذلك، مما يدل على كمال قدرة الصانع. . ﴿وَيَنْعِهِ﴾ أى وانظروا إلى حال نضجه وإدراكه نظر استدلال واستبصار، كيف يعود شيئا قويا بعد الضعف، جامعا لمنافع شتى. مصدر ينعت الثمرة كأينعت، تينع (بفتح النون وكسرها) ينعا وينوعا، إذا نضجت».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «ومن طلع النخل عراجين نخرجها محملة بالثمار سهلة التناول، وأخرجنا كذلك بالماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان، ومنها ماهو متماثل الثمر فى الشكل وغير متماثل فى الطعم والرائحة ونوع الفائدة. انظروا فى تدبر واعتبار إلى ثمره حين يثمر، وإلى نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة إن فى ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحق ويؤمنون به ويذعنون له».

وجاء فى تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «وفى آخر الآية الكريمة قوله

ـ تعالى ـ: ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾، وفى هذه الإشارة سبق لعلم النبات الحديث فى ما وصل إليه من الاعتماد فى دراسته على مشاهدة الشكل الخارجى لأعضائه كافة فى أدواره المختلفة».

من الدلالات العلمية لهذا النص القرآنى الكريم

يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى محكم كتابه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

النصف الأول من هذه الآية القرآنية الكريمة تمت مناقشة دلالته العلمية فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ولا حاجة لتكرار ذلك هنا، أما عن النصف الثانى من هذه الآية الكريمة الذى يشمل التسلسل فى استعراض الحبوب والثمار فإنه يشمل معظم النباتات التى يحتاجها الإنسان فى طعامه الأساسى، وتحتاجها أنعامه فى علفها.

فالحب المتراكب: يشمل القمح، والشعير، والذرة، والأرز، والشوفان، وغيرها من محاصيل الحبوب والغلال التى تمثل الطعام الأساسى لكل من الإنسان والحيوان. وهذه النباتات تجمع اليوم فى رتبة واحدة تعرف باسم «النجيليات»، وفى عائلة محددة منها تعرف باسم **«العائلة النجيلية»**.

والنجيليات تضم أعشابًا حولية أو معمرة لها شكل مميز يطلق عليه الشكل النجيلى أى الذى يشبه النجيل، وإن ضمت قليلا من الشجيرات، وأزهارها تلقح بواسطة الرياح، وسيقانها غالبا أسطوانية، جوفاء، فيما عدا القليل منها مثل الذرة الذى يتميز بساق أصم.

ويضم القمح عددا من الأصناف المميزة منها البلدى، والهندى، والذكر، وكذلك يوجد من الشعير أصناف عديدة منها البلدى، والنبوى، والتونسى، ويوجد من الذرة البلدى، والبدرى، والسبعينى، والأمريكى، والصوانى، والسكرى، والمتبلور وغيرها، ومن الأرز يوجد حوالى ١٨ نوعا كلها من النباتات البرية، ومن نوع الأرز المزروع يوجد حوالى الألف صنف منها الأرز اليابانى،

والسلطانى، والشعبى، والفينو، وغيرها. ويحل الأرز محل القمح فى كثير من الأقاليم الحارة، ويعتبر غذاء لا غنى عنه لأكثر من نصف سكان الأرض.

وينطوى فى **العائلة النجيلية** أكثر من(٤٥٠) جنس من أجناس النباتات النجيلية، وأكثر من(٤٥٠٠) نوع من أنواعها، وعشرات الآلاف من الأصناف، ولذلك تعتبر من أهم عائلات النبات من الوجهة الاقتصادية لاحتوائها على النباتات المنتجة لمحاصيل الغلال ذات الحبوب المتراكبة فى السنابل، وعلى غيرها من المحاصيل الاقتصادية مثل قصب السكر، والغاب، والأعشاب الطبية، وحشائش الرعى.

والحبوب المتراكبة فى العائلة النجيلية هى من ذوات الفلقة الواحدة، وكما خلق الله ـ تعالى ـ تلك الحبوب التى تمثل المحاصيل الأساسية لغذاء مختلف شعوب الأرض، خلق لنا حبوبا أخرى غير متراكبة ذات فلقتين توجد ثمارها فى قرون بدلا من السنابل ولذا توضع فى عائلة من عائلات النبات تعرف باسم **العائلة القرنية** تضم حوالى(٦٠٠) جنس، و(١٢ ألف نوع)، ومئات الآلاف من الأصناف، ومن أهم محاصيلها الفول، الحمص، العدس، الفاصوليا، اللوبيا، البازلاء، فول الصويا، الفول السودانى، الترمس، الحلبة، والبرسيم، وغيرها.

وتعتبر نباتات **العائلة القرنية** من أهم النباتات الاقتصادية كذلك، وذلك لغناء بذورها بالكربوهيدرات مثل النشا، والپروتينات مثل الزيوت والدهون النباتية.

وتلى رتبة النجيليات مباشرة فى تقسيمات النبات رتبة **النخيليات** التى تشمل عائلة واحدة هى **عائلة النخيليات**، وتضم أشجارا نخيلية، غير متفرعة ـ فيما عدا نخيل الدوم الذى تتفرع فيه النخلة إلى فرعين ـ . والنخيل أشجار دائمة الخضرة، لها سيقان أسطوانية الشكل، ذات سلميات طويلة، ومغطاة بقواعد الأوراق، ولها جذور ليفية. وتضم **(العائلة النخيلية)** أكثر من(٢٠٠) جنس، وما يزيد على(٤٠٠٠) نوع من أشجار النخيل وشجيراته، ويضم نخيل التمر وحده حوالى(١٥) نوعا وأكثر من ألف صنف، ولذلك جاء ذكر النخل فى القرآن الكريم عشرين مرة.

ومن نماذج **العائلة النخيلية**: نخيل التمر، نخيل جوز الهند، نخيل الزيت، ونخيل الخيزران، ونخيل الأريكا، والنخيل الملوكى، وأهمها على الإطلاق نخيل

التمر؛ لأن التمر يعد غذاء كاملاً تقريبًا للإنسان وذلك لاحتوائه على الكربوهيدرات، والسكريات، والنشا، والپروتينات، والدهون، والڤيتامينات وعلى العديد من الأملاح المعدنية المهمة.

ويلى ذلك فى تصنيف النباتات **رتبة العنابيات** وتضم عائلتين هما **العائلة العنابية** (وتضم ٤٥ جنسًا وأكثر من ٥٠٠ نوع ومن أمثلتها العناب، والنبق) **والعائلة العنبية** (وتضم ١١ جنسًا وما يزيد على ٦٠٠ نوع تنتشر انتشارًا واسعًا فى الأرض وأهمها العنب) وتتميز هذه العائلة بنباتاتها المتسلقة، وبراعمها الطرفية المحورة إلى محاليق، وجاء ذكر العنب والأعناب فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة لأهميتها الغذائية العالية.

ويلى ذلك فى تصنيف النباتات **رتبة الملتفات** وتشمل ست عائلات أهمها **العائلة الزيتونية** وتشمل ٢٢ جنسا وأكثر من ٥٠٠ نوع من الأشجار والشجيرات وبعض المتسلقات ومن أهم أشجار هذه الرتبة أشجار الزيتون، و هى أشجار معمرة تعيش الواحدة منها إلى أكثر من ألفى سنة، وقد ثبت علميّا أن زيت الزيتون يحتوى على أحماض دسمة غير مشبعة، وهى مفيدة فى الوقاية من العديد من الأمراض مثل جلطات الدم التى تتسبب فى حدوث أمراض الشرايين الإكليلية فى القلب، كذلك ثبت علميّا أن بزيت الزيتون أكثر من ألف مركب كيميائى منها ما يعدل الكولسترول فى أثناء استقلابه فى الجسم، ومنها ما ينقص مستوى الكولسترول الضار ويرفع مستوى الكولسترول المفيد، ويشكل زيت الزيتون حوالى ٥٠٪ إلى ٧٠٪ من تركيب الثمرة، ويتكون من الجليسيريدات والأحماض، بالإضافة إلى الپروتينات، والدهون، ونسب متفاوتة من عناصر الپوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس، والكبريت، وغيرها.

ويعطى تناول (١٠٠) جرام من الزيتون حوالى(١٠٣) من السعرات الحرارية؛ ولذلك امتدح خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كلا من الزيتون وزيته، فقال: «**ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة**» (أخرجه كل من ابن ماجه، وعبد الرزاق، والحاكم وغيرهم وورد فى صحيح الجامع الصغير)[١].

(١) ابن ماجه فى «سننه» (٣٣١٩)، وعبد الرزاق (١٩٥٦٨)، والحاكم فى «مستدركه» (٤/ ١٢٢).

ووصف ابن عباس - رضى الله عنهما - الزيتون بقوله : فى الزيتونة منافع ، يسرج الزيت ، وهو إدام ، ودهان ، ودباغ ، ووقود يوقد بحطبه وتفله ، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة ، حتى الرماد يغسل به الإبريسم (وهو الحرير) .

وقد أفردت شجرة الزيتون بالذكر فى القرآن الكريم سبع مرات لعظيم منافعها ، ولقلة ما تحتاجه من رعاية وعناية من الزراع .

ويلى ذلك فى تصنيف النباتات رتبة تعرف باسم رتبة **المرسينيات** تشمل(٣٣) عائلة أهمها **العائلة الرمانية** التى تشمل أشجاراً صغيرة تضم جنساً واحداً هو الرمان وله نوعان هما «الرمان الأولى - ***Punica protoponica***» ، و«الرمان الجرانيتى - ***Punica granatum***» .

وقد جاء ذكر الرمان فى القرآن الكريم ثلاث مرات إشارة إلى أهميته فى غذاء الإنسان ، منها مرتان فى سورة الأنعام ، والثالثة فى سورة الرحمن .

وثمرة الرمان قد يصل قطرها إلى ١٨ سم ، ويصل وزنها إلى ٦٠٠ جرام ، وتحتوى على ٤٠٠ - ٥٠٠ بذرة ، وتحاط البذرة بطبقة خارجية(الطبقة الخارجية من القصرة) وهى التى تؤكل لاحتوائها على عصير حلو المذاق يتركب من ٨٥٪ ماء مذابا فيه نسبة من السكريات ، وكميات زهيدة من الدسم ، والڤيتامينات من مثل ڤيتامين ج ، والأحماض من مثل حمضى الليمون والبوريك ، بالإضافة إلى آثار من عناصر متعددة منها : البوتاسيوم ، الكلور ، الكالسيوم ، المغنسيوم ، الفوسفور ، الحديد ، النحاس ، والكبريت . وعصير الرمان له خواص هاضمة بالنسبة للدهون على وجه الخصوص ، وقشر الرمان له خاصية قابضة ، قاتلة لديدان الأمعاء ، ومعينة على امتصاص الحديد وغيره من العناصر ، وله قدرة هائلة على معالجة قروح الاضطجاع التى تحدث عند قعيدى الفراش .

وهكذا نرى أنه فى كلمات محددة جاء هذا التسلسل المعجز من الحب المتراكب إلى ثمار كل من النخل، والأعناب، والزيتون، والرمان، ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسى للإنسان ولأنعامه؛ وذلك لأن باقى النباتات الراقية المعروفة لنا إما تنتج فاكهة وخضراوات من كماليات الطعام، أو هى من نباتات الزينة، أو الظل، أو

الأخشاب، أو الأعشاب وهي ــ على أهميتها ــ ليست من الضروريات الملحة لحياة الإنسان وأنعامه.

ويأتي الوصف القرآني لتلك النباتات بالتعبير المعجز مشتبهًا وغير متشابه ليعبر عن حقيقة التنوع الهائل الذي وهبه الله ـ تعالى ـ لتلك النباتات بتطبيق قوانين الوراثة التي أودعها الله ـ تعالى ـ في شيفرتها الوراثية بداخل الخلية الحية، مما مكن كل جنس من أجناسها من احتواء العديد من الأنواع، ويضم كل نوع من هذه الأنواع العديد من الأصناف؛ ويضم كل صنف من هذه الأصناف بلايين البلايين من الأفراد التي تكاثرت، ولا تزال تتكاثر، وسوف تظل كذلك إلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ . ومع التكاثر تمايز قوانين الوراثة بين شجرة وأخرى، وعلى ذلك فإن أفراد كل نوع من أنواع النبات تبدو في ظاهرها متشابهة، ولكن بدراستها المتخصصة يتضح ما بينها من الفروق مما يستوجب فصلها عن بعضها البعض، وهنا تتضح روعة التعبير القرآني ﴿ **مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** ﴾.

ويأتي بعد ذلك تنبيه من الله الخالق بالنظر إلى ثمار النباتات وقت إثمارها وحين نضجها ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ** ﴾، وفي هذا النص سبق علمي أصيل يشير إلى ضرورة الاعتماد على مشاهدة الشكل الخارجي لمختلف أجزاء النبات في جميع أطوار نموه حتى يمكن التعرف عليه وتصنيفه، وهي من القواعد الأساسية اليوم في علم تصنيف النبات، وفي النص أيضا إشارة إلى فضل الله العظيم في إنتاج تلك الثمار وإلى أهميتها لحياة النبات نفسه، ولحياة كل من الإنسان والحيوان آكل العشب. وذلك لأن الثمرة الحقيقية هي مبيض الزهرة بعد تمام إخصابه بحبوب اللقاح، وتكون الجنين الذي يحاط بأغلفة نباتية من المواد الغذائية لحمايته قبل الإنبات، ولتغذيته في مراحل الإنبات الأولى حتى تورق النبتة الأوراق الخضراء القادرة على القيام بعملية التمثيل الضوئي وإعداد الغذاء الخاص للنبات. وعلى ذلك فالثمار مهمة لجميع النباتات العليا لاحتوائها على البذور التي بها يمكن للنبات أن يستمر في الوجود والتكاثر على الأرض إلى أن يشاء الله تعالى.

والثمار مهمة للإنسان لأنها تمثل غذاءه الرئيسي، وعلف أنعامه، كما تمثل مصدرًا أساسيًا من مصادر الزيوت والدهون، والدواء، والكساء ومواد الصباغة، وغيرها من الصناعات الأساسية في حياة الناس.

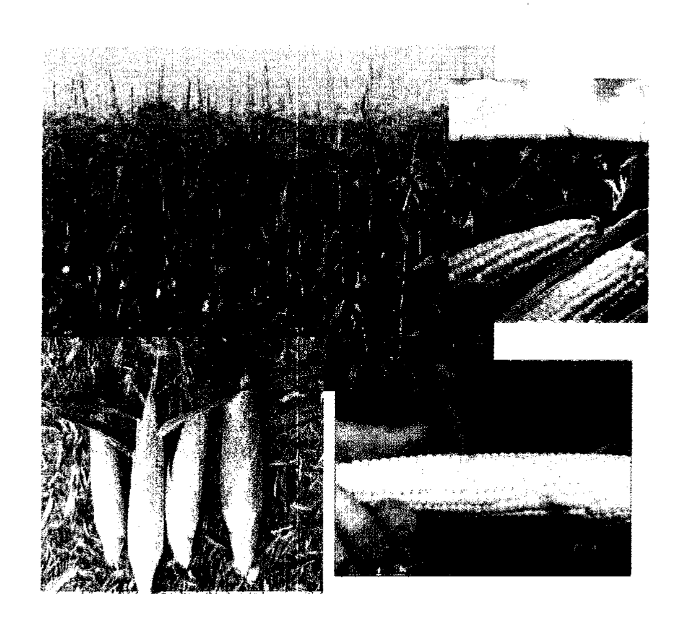
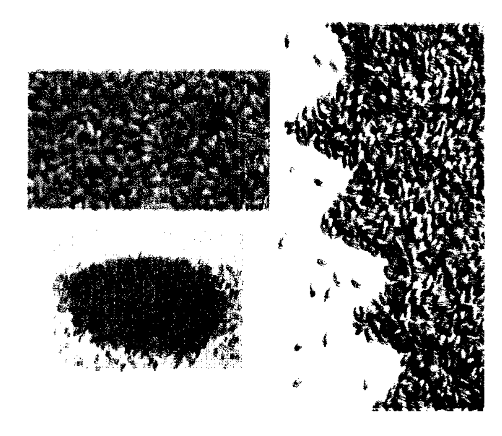
وثمار النباتات من أجَلِّ نعم الله على الإنسان، وتحركها من بدء ظهورها على النبات إلى نضجها، وما يعتريها خلال تلك الفترة من نمو فى الحجم، واختلاف فى اللون، وتدرج فى الطعم والمذاق لمما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وعلى الإفناء والبعث، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

هذا السبق القرآنى يعرض قدراً من حقائق عالم النبات قبل أن يصل إليها العلم المكتسب بقرون متطاولة لمما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العلية، فى نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظًا كاملاً على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد بذلك الحفظ إلى قيام الساعة ليكون للعالمين نذيراً، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا على نعمة الإسلام، وعلى نعمة القرآن، وعلى بعثة هذا النبى العدنان، وعلى نعمة الثمار وغيرها من الأرزاق التى أفاض بها رب العالمين على جميع خلقه: المحسن منهم والمسيء، انتظاراً ليوم العرض الأكبر الذى يجازى فيه المحسن على إحسانه، ويعاقب فيه المسيء على إساءته ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

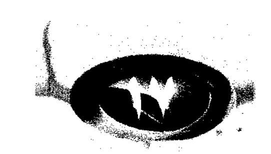
***





بسم الله الرحمن الرحيم



﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾

(ق:١٠)



هذه الآية الكريمة جاءت فى الربع الأول من سورة (ق)، وهى سورة مكية، وعدد آياتها خمس وأربعون بعد البسملة، ويدور المحور الرئيسى لها حول قضيتى الوحى الخاتم، والبعث القادم، وإنكار كل من الكفار والمشركين لهما فى زمن الوحى، وإلى وقتنا الراهن، وحتى قيام الساعة. ولذلك تستهل السورة بقسم من الله ـ تعالى ـ بالقرآن المجيد ثم بالعديد من الآيات الكونية الظاهرة والدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبهرة فى خلق الكون بجميع ما فيه ومن فيه، والدالة كذلك على أن الخالق المبدع قادر على إفناء الخلق، وعلى إعادة بعثه من جديد، وكانت قضية البعث منذ الأزل هى حجة الكفار والمشركين والضالين المتشككين، انطلاقًا من فساد عقائدهم... !! والله غنى عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية الكريمة بصيغة القسم فهذا من قبيل تنبيهنا إلى أهمية الأمر المقسم به.

وتتحدث سورة (ق) بعد ذلك عن حركة الحياة والموت، وتحلل الأجساد وبلاها، ثم بعثها، وحشرها، وحسابها، وجزائها، كما تتحدث عن إرهاصات الساعة، وعن رقابة الله ـ تعالى ـ على كل نفس، وهى رقابة لاتغفل، ولا تغيب أبدًا... !!

وتتعرض هذه السورة المباركة أيضًا لموقف من مواقف الكفار والمشركين والظلمة المتجبرين على الخلق فى يوم القيامة، ومحاولاتهم التنصل من جرائمهم بإلقاء التبعة فى ذلك على قرنائهم من شياطين الإنس والجن، ورد قرنائهم على ادعاءاتهم، وبيان أن خاتمة هذا الجدل هى إلقاؤهم جميعًا فى نار جهنم، فى الوقت الذى يكرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصالحين من عباده بإدخالهم فى جنات النعيم.

وتوصى سورة (ق) خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ومن تبعه من المؤمنين بالصبر على أذى كل من الكفار والمشركين والضالين التائهين من أصحاب العقائد

الفاسدة، والديانات المحرفة، الذين لم يعتبروا بمصائر المكذبين من الأمم السابقة عليهم، وما أصاب تلك الأمم من دمار بسبب كفرهم بالله ـ تعالى ـ أو شركهم به وتكذيبهم لأنبيائه ورسله.

وتوصى هذه السورة المباركة كذلك بالثبات على عبادة الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وحده ـ بغير شريك، ولاشبيه، ولامنازع، ولاصاحبة، ولا ولد؛ لأن ذلك كله من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه.

وتؤكد سورة (ق) أن دور الرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ هو التذكير بأوامر الله ونواهيه دون جبر، أو إكراه، أو تعنت؛ لأن أصلا من أصول الإسلام العظيم أنه «لا إكراه فى الدين».

عرض موجز لسورة «ق»

تبدأ هذه السورة المباركة بحرف من الحروف الهجائية المقطعة وهو الحرف (ق)، وهى المرة الوحيدة التى استهلت فيها إحدى سور القرآن الكريم بهذا الحرف. ثم أتبع هذا الحرف بقسم من الله ـ تعالى ـ يقول فيه: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]. أى الكريم على الله ـ تعالى ـ تعظيمًا لشأنه، وذلك لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن القسم لعباده، وحذف جواب القسم الذى مضمونه: أقسم بالقرآن المجيد الذى أنزلناه إليك يامحمد لتنذر به الناس كافة، أنه الحق المطلق من الله الخالق، ودلالة ذلك الآية الثانية التى جاءت بعد القسم، والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

والآية تشير إلى تعجب كفار قريش ومشركيهم من اختيار الله ـ تعالى ـ لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ من بينهم، ثم تتبع باستبعادهم لعملية البعث بعد الموت، وبعد أن تبلى الأجساد وتتحلل إلى التراب، وفى ذلك يقولون: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

ويرد عليهم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : ٤] .

أى قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت، وعلمنا محيط بكل شيء، وقد دونا ذلك فى كتاب حفيظ، وهو اللوح المحفوظ، وهذا تأكيد لقول المصطفى ﷺ : «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[١] .

وتؤكد الآية الخامسة من سورة (ق) أن نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الثابتة بالعديد من المعجزات الظاهرة، وفى مقدمتها القرآن الكريم، هى حق، وأن تكذيب الكفار والمشركين لها يعتبر فى ميزان الله أكبر جرمًا من تكذيبهم بالبعث، فقد اختلطت أمورهم وأفكارهم، وفسدت معتقداتهم، وأصبحوا فى حالة من القلق والاضطراب والضياع لاتمكنهم من حسن التفكير أو حسن النظر فى الأمور بعين البصيرة، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عنهم :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : ٥] .

ثم استعرضت الآيات عددًا من الشواهد الكونية الدالة على كمال القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وعلى إحاطة علم الله الخالق بكل صغيرة وكبيرة فى الكون، وعلى عظيم حكمته الظاهرة فى كل أمر من أمور المخلوقات فيه، والاستدلال من ذلك كله بأن الذى أبدع هذا الكون على غير مثال سابق، قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد مما يؤكد حتمية البعث وضرورته .

وعرضت الآيات من بعد ذلك إلى ذكر عدد من الأمم السابقة التى كفرت بربها، أو أشركت به، وعصت أوامره، وكذبت أنبياءه ورسله، فحق عليها عذاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الدنيا قبل الآخرة، وتحقق فيهم وعد الله ووعيده . وكان فى هذا العرض ما فيه من المواساة الإلهية لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ـ وللمؤمنين به من بعده ـ فى تكذيب الكفار والمشركين لبعثته الشريفة، وللبعث، ويرد الحق ـ تبارك وتعالى ـ على منكرى البعث مرة أخرى بقوله ـ عز من قائل ـ :

(١) صحيح البخارى (٤٨١٤)، ومسلم (١٤٢/ ٢٩٥٥).

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

ثم تستمر الآيات فى تأكيد حقيقة أن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه؛ لأن هذا الإله الخالق ـ بإحاطة علمه ودوام مراقبته ـ هو أقرب إلى كل عبد من عباده من أقرب شىء إليه وهو عرق الوريد بباطن عنقه، وفوق ذلك فإن الله ـ تعالى ـ قد أوكل كل فرد من عباده إلى ملكين: أحدهما عن يمينه لكتابة الحسنات، والآخر عن شماله لكتابة السيئات، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد من قبل هذين الملكين المتلقيين عنه، وكل منهما ملازمه، لا يفارقه أبدًا، إلا عند إحدى حالات ثلاث: الغائط، والجنابة، والغسل، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ الذى أخرجه الحافظ البزار عن أنس بن مالك مرفوعًا. وكلٌّ من الملكين الحافظين مهيأ لتلك المهمة، ومعد إعدادًا تامًا لها.

وبعد التأكيد على هذه الحقيقة التى يغفل عنها كثير من الخلق، تنبه الآيات الإنسان إلى حقيقة الموت، وسكراته، وشدائده، وكربه، ونزوله بالحق أى باليقين الذى كان يمارى فيه كل كافر ومشرك ومتشكك، أو بالحق حيث يرى الميت وقت حشرجة الروح مكانه فى الجنة أو مكانه فى النار، والرسول ﷺ يقول: «**الناس نيام ما عاشوا فإذا ما ماتوا انتبهوا**»(١). والموت حق على كل حى من خلق الله، وإن كان فى طبيعة الإنسان أن يستبعده عن نفسه وهو يراه واقعًا على غيره فى كل يوم، ويحاول الهروب منه، والفرار من هجمته، ولكن هيهات هيهات، فلا ملجأ من الله إلا إليه...!!

ثم تنبه الآيات بعد ذلك إلى نفخة الصور بأمر الله ـ تعالى ـ فيبعث جميع من فى القبور، وهو اليوم الذى توعد الله به كل كافر، ومشرك، وظالم. وتشير الآيات إلى مجىء كل نفس معها من يسوقها من الملائكة إلى أرض المحشر، ومن يشهد عليها بعملها. وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)

---

(١) العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/ ٤٣٢)، والسلسلة الضعيفة (١٠٢).

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ١٦ ، ٢٢].

أى : فأزلنا عنك غفلتك أيها الإنسان الغافل، وجلونا لك بصرك حتى ترى به الحق الذى كنت تكذب به فى الدنيا، وقد كنت فيها كافراً، أو مشركًا، أو متشككًا، أو ظالمًا جائراً لاتخشى حساب الله فى الآخرة.

وفى التحذير من جريمة الشرك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ تذكر الآيات أن شيطان كل من المشرك والكافر الذى أغواه وأضله، أو الملك الموكل بكتابة سيئاته يقول عنه :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ [ق : ٢٣ ، ٢٦].

وحينئذ يبدأ كل كافر ومشرك وظالم فى الاعتذار إلى الله ـ تعالى ـ بأن شيطانه قد أغواه وأطغاه، فيقول شيطانه معتذراً أيضًا إلى الله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٢٧].

فيرد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله الحق :

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٢٨ ، ٣٥].

وبعد هذا الاستعراض القرآنى المعجز لبعض حقائق الدنيا والآخرة ووضع الإنسان فيهما، تعاود الآيات فى ختام السورة بالإشارة إلى عقاب العاصين من الأمم السابقة الذين أهلكهم الله ـ تعالى ـ بذنوبهم، وقد كانوا أشد بطشًا من كفار قريش، والعذاب ينزل بهم، وهم فى حالة من الهلع والفزع، يركضون فى جنبات الأرض

ونقوبها فى محاولة يائسة للهروب من عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة حتى أبادهم عن بكرة أبيهم، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٦ ، ٣٧].

وترجع الآيات مرة أخرى بالإشارة إلى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، (أى : فى ست مراحل متتالية) وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨].

ثم يوجه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذى كان يؤلمه ما يتطاول به الكفار والمشركون على الذات الإلهية، وذلك بقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق : ٣٩، ٤٠].

أى : اصبر يا محمد على تطاول الكفار والمشركين على الذات الإلهية، وهو مما يؤلمك، واصبر على تكذيبهم لبعثتك الشريفة، وهو مما يحزنك، وقد جاء هذا المعنى أيضًا فى سورة الأنعام التى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣].

وتأمر الآيتان (٣٩، ٤٠) من سورة (ق) خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن ينزه ربه عن كل وصف لا يليق بجلاله، وأن يحمده حمدًا يليق بجلاله، خاصة فى وقتى الفجر والعصر، ومن الليل، وعقب كل صلاة مفروضة، وذلك بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل وبالإكثار من النوافل قدر الاستطاعة.

وتختتم هذه السورة المباركة بالإشارة مرة أخرى إلى يوم الصيحة بالحق، يوم الخروج، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق : ٤٤]، يوم البعث والحشر، مؤكدة يسر ذلك على الله، جازمة بأن الله ـ تعالى ـ هو الذى يحيى ويميت، وأن مصير الخلائق كلها إليه ـ سبحانه ـ وأنه يعلم السر والنجوى موجهة الخطاب فى ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٥].

ومن روعة بيان هذه السورة، وشدة وقعها على السمع، والعقل، والقلب، واحتفالها بعدد هائل من حقائق الوجود، كان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كثيراً ما يخطب بها فى صلاة العيدين والجمعة، وكان يجعل منها موضوع خطبته فى اجتماعاته الحافلة بالناس من المؤمنين والكافرين على حد سواء، يحرك بمعانيها الرائعة، وجرسها الفريد كثيراً من القلوب الغافلة، ويسمع بها كثيراً من الآذان الصم، وينير بها كثيراً من العقول المظلمة المعتمة، وذلك لأن الإنسان مهما أوتى من أسباب الفصاحة، والبلاغة، وروعة البيان لا يمكن له أن ينقل ما جاء بسورة (ق) من معان بأسلوب يقترب فى شىء من روعة ما جاء فيها من بيان الله الذى لا يبارى، والذى لا يمكن لبيان البشر أن يدانيه من قريب أو من بعيد.

الإشارات الكونية فى سورة (ق)

جاء فى سورة (ق) عدد من الإشارات الكونية التى يمكن إيجازها فيما يلى:

(١) إن تحلل الجسد الميت ينتهى إلى تراب الأرض، فيما عدا فضلة واحدة، أو عظمة واحدة سماها المصطفى ﷺ «عجب الذنب» وأخبر أن الإنسان من «عجب الذنب» خلق، وفيه يعاد تركيبه يوم القيامة كما دلت عليه الآية الرابعة من سورة (ق)، وأكدته البحوث العلمية.

(٢) إن السماء الدنيا بناء محكم، مزدان بالنجوم. ولا وجود للفراغ الخالى من صور المادة والطاقة فيها ﴿ ...وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾.

(٣) إن الأرض كروية الشكل؛ لأنها ممدودة بلا نهاية، والمد بلا نهاية هو قمة التكور.

(٤) إن تكون الجبال عملية لاحقة لخلق الأرض، وهى رواسى مثبتة لها فى دورانها وجريها، كما أنها مثبتة لأغلفتها الصخرية حتى لا تميد ولا تضطرب.

(٥) إن كل شيء في الوجود قد خلقه الله ـ تعالى ـ في زوجية واضحة حتى يبقى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، والدراسات العلمية تؤكد الزوجية في جميع المخلوقات (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان).

(٦) إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يحكم دورة الماء حول الأرض بعلمه وقدرته وحكمته، وينزل من السماء ماء مباركًا يتميز بشدة طهارته، وبنزوله على الأرض يحيي الله ـ سبحانه ـ به مواتها وينبت فيها جنات وحب الحصيد. ويشبه الله ـ تعالى ـ إخراج الأموات من قبورهم في يوم البعث بإخراج النبات من الأرض بعد إنزال ماء المطر عليها، مما يؤكد حتمية البعث وضرورته.

(٧) وصف النخيل بوصف الباسقات، وأن طلعها نضيد.

(٨) إقرار حقيقة أن الإنسان مخلوق، خلقه الله ـ تعالى ـ وهو خالق كل شيء، وأن الموت حق على جميع المخلوقين، وأن الله- تعالى ـ هو الذي يحيي ويميت، وأن الخلق الأول يشهد لله الخالق بالقدرة على البعث.

(٩) إقرار حقيقة خلق السماوات والأرض عبر ست مراحل متتالية يحاول العلم الكسبي استقراءها اليوم.

(١٠) وصف انفتاح الأرض لإخراج المدفون فيها من أجداث يوم البعث بالتشقق، وهي عملية مختلفة تمامًا عن عملية التصدع، التي أشار إليها القرآن الكريم في مقام آخر، وفي ذلك من الدقة العلمية ما فيه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معاملة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة السابعة في القائمة السابقة والتي تتحدث عن النخل الباسقات وعن طلعها النضيد.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق : ١٠].

* ذكر الطبرى ـ رحمه الله ـ ما مختصره : ﴿ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ : طوالا ، والباسق هو الطويل ، ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ : متراكب بعضه على بعض .

وجاء فى بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره هنا .

وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى النخل الباسقات ، وهو نوع خاص من النخل يتميز بطول ساقه (جذعه) حتى ليتجاوز الثلاثين مترًا فى الارتفاع ، علما بأن هناك من أنواع النخل القصير ما لا يتجاوز ارتفاع جذعه المترين ، وبذلك تتضح الحكمة من الإشارة إلى النخل الطوال فى هذه الآية الكريمة ، ومن إتباع الوصف باسقات بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ .

وفى ذلك إشارة إلى القدرة الإلهية المبدعة التى تتجلى فى خلق النخلة الباسقة ، بهذا الطول الفاره ، وإعطائها من القدرات البينة الظاهرة ، والخفية المستترة ، ما جعل من النخل مضرب المثل فى القرآن الكريم الذى ذكره فى عشرين موضعًا ، وفضله على غيره من أنواع الزروع ، والفاكهة ، وجعله فى مقابلة غيره من أنواع النباتات .

فمن القدرات الظاهرة للنخل ثباته فى الأرض ، وارتفاعه فوق سطحها ، ومقاومته للرياح ، وتحمله لكل من الحرارة الشديدة والجفاف ، وقوته ، وتعميره ، ووفرة إنتاجيته تحت أقسى الظروف ، وتعدد أشجاره وثماره شكلاً ولونًا ، وطعمًا وحجمًا ونفعًا ، وتعدد الفوائد المرجوة من كل جزء من أجزاء شجرته المباركة .

ومن القدرات المستترة للنخلة تلك القوى الفائقة التى وهبها الله إياها ، لتعينها على القيام بكافة وظائفها الحياتية ، وفى مقدمتها القدرة على الاستفادة بماء الأرض وعناصرها ومركباتها المختلفة ، والاختيار منها حسب حاجاتها ، ورفع العصارة الغذائية إلى قمتها ، وإلى كل من أوراقها وأزهارها وثمارها ، وإلى مختلف أجزائها مهما تسامقت تلك القمة ، وتباعدت تلك الأوراق والأزهار والثمار عن مستوى سطح الأرض .

والعائلة النخيلية تضم حوالى المائتى جنس ، وأكثر من أربعة آلاف نوع من

الأشجار، والشجيرات، والمتسلقات التى تنتشر أساسًا فى كل من المناطق الاستوائية والمعتدلة، كما يكثر بعض أنواعها كنخيل البلح فى البيئات الصحراوية القاحلة، حيث تصل درجة حرارة الجو صيفًا إلى ما فوق الخمسين درجة مئوية، ودرجة حرارة سطح الأرض إلى تسعين درجة مئوية، وتندر الأمطار، ومن هنا كانت أهمية التهيئة الربانية للنخيل - خاصة نخيل البلح - ليحيا بأقل كمية من الماء.

أهمية الماء فى حياة النخيل

من المسلمات أن الماء سائل أساسى للحياة، ولذلك يوجد بكميات قد تصل إلى أكثر من ٩٥٪ من وزن بعض الكائنات الحيّة - نباتية كانت أو حيوانية - وذلك لأن للماء من الصفات الطبيعية والكيميائية ما وهبه بها الله - تعالى - قدرات فائقة على إذابة العديد من الجوامد، والغازات، وعلى الاختلاط والامتزاج بالعديد من غيره من السوائل، ولذلك أصبح الماء وسطًا لازمًا لإتمام جميع العمليات الحيوية، ولتلطيف درجة حرارة الأجساد الحيّة بتبخره منها.

والنباتات بصفة عامة - والنباتات الراقية بصفة خاصة، والصحراوية منها بصفة أخص - تحتاج إلى قدر هائل من الماء الذى تحصل عليه من الوسط الذى تحيا فيه، بواسطة الجذور. والماء يوجد فى التربة على هيئة خيوط شعرية دقيقة تنتشر فى المسافات البينية الموجودة بين حبيبات التربة، أو على هيئة ملتصقة بتلك الحبيبات خاصة ما لها شراهة للماء منها، مثل حبيبات الصلصال وفتات المواد العضوية.

ويصل الماء إلى التربة بعد سقوط الأمطار، أو بواسطة الرى، أو من المخزون المائى تحت سطح الأرض، ونظرًا لندرة الأمطار فى المناطق الصحراوية الحالية، فقد زودها الله - تعالى - بمخزون مائى من أمطار غزيرة هطلت عليها قبل تعرضها لعملية التصحر. ولذلك وهب الله - تعالى - للنخيل القدرة على الوصول بجذوره العرضية إلى أى قدر من الرطوبة الموجودة فى الأرض، وحمى جذوعه بأغطية من أعناق السعف (تعرف الواحدة منها باسم الكربة)، وحماها كذلك بما جعل للسعف عند اتصاله بجذع النخلة من أغماد ليفية خشنة تزيد من متانة الجذع، وتحفظ الماء فى

خلاياه من البخر، كما تحفظ الجذع ذاته من التغيرات المناخية ومن عوامل التعرية ومن التعديات الحيوانية.

كذلك جعل الله ـ تعالى ـ وريقات النخل (السعف) من الخوص الجلدى المانع لتسرب الماء، وجعلها على هيئة رمحية مدببة الأطراف ومطوية بصورة مائلة على محورها، وحور بعض الوريقات على هيئة أشواك لتقليل تسرب الماء منها بعملية النتح. كذلك حمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ زهور النخلة بغلاف جلدى متين، غير منفذ للماء، مستدق الحواف يحيط بها إحاطة كاملة، ويغطى من الخارج بخملة حمراء اللون تساعد على حفظ الماء الموجود فى كل من الزهور والشماريخ، وهى فروع متحورة، لحمية، غليظة، تحمل الزهور على هيئة نورة مركبة أو سنبلة، وتعرف الشماريخ وماعليها من زهور باسم الأغاريض (جمع إغريض).

وينتقل الماء من التربة إلى خلايا المجموع الجذرى للنخلة المنغرسة فى تلك التربة بفعل الفرق فى جهد الماء بين محاليل التربة، والعصارات المختزنة فى الأوعية الخشبية للنخلة، وهو مايعرف باسم الضغط الجذرى، ثم تتوالى حركة الماء من الجذور إلى خلايا قشرة الساق حتى يصل إلى الطبقة الداخلية منها، ثم الى الأوعية الخشبية فى قلب جذع النخلة عبر خلايا خاصة لمرور الماء وما به من عناصر ومركبات مذابة توجد فى مواجهة الأوعية الخشبية مباشرة. ويتحكم فى حركة الماء هنا التدرج فى قيمة جهده من خلية إلى أخرى. وقد أعطى الله ـ سبحانه وتعالى ـ للماء من الصفات الطبيعية ما جعله واحداً من أشد السوائل تماسكا وتلاصقا، وأقواها بعد الزئبق على تحقيق ظاهرة التوتر السطحى وذلك بسبب ما وهبه الله ـ تعالى ـ لجزىء الماء من خاصية القطبية الكهربية المزدوجة المميزة له.

وبتعاظم التوتر السطحى للماء تتعاظم قدرته على تسلق جدران الوعاء الذى يتواجد فيه، خاصة إذا كان قطر هذا الوعاء صغيراً، وكلما دق هذا القطر ارتفع فيه الماء بسرعة أشد، ووصل إلى مستويات أعلى، وهذه الخاصية المائية المعروفة باسم «الخاصية الشعرية» تتيح للماء الذى تمتصه جذور النخلة من التربة الوصول إلى قمتها النامية وما حولها من أوراق وزهور وثمار مهما تعاظم ارتفاع تلك القمة،

وذلك بتدبير من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبذلك يبقى ماء الأرض وما به من عناصر ومركبات مذابة على هيئة متصلة من قاعدة النبات إلى قمته مهما ارتفعت تلك القمة، ويعين على هذا الاتصال المستمر قوة الشد الناتجة عن عملية النتح مهما كانت ضعيفة، وهى عملية يطرد بها النبات الماء الزائد عن حاجته إلى الغلاف الجوى المحيط به على هيئة بخار الماء الذى يخرج من ثغور الأوراق والوريقات على وجه الخصوص. وتتأثر عملية النتح هذه بعدد وحجم وتوزيع الثغور على جسم النبات، وبدرجات الحرارة والرطوبة النسبية فى البيئة المحيطة، وبسرعة الرياح، وبالتركيب الداخلى للأوراق والوريقات، ويساعد عملية النتح فى التخلص من الماء الزائد فى داخل النبات عملية أخرى تسمى عملية الإدماع وتكثر فى النباتات التى تحيا فى المناطق العالية الرطوبة.

وقد شاءت إرادة الخالق المبدع ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل الأوعية الخشبية فى قلب شجرة النخيل صغيرة الأقطار بشكل ملحوظ مما يساعد على رفع العصارة الغذائية بالخاصية الشعرية إلى قمتها النامية والتى يصل ارتفاعها فى بعض الأحوال إلى أكثر من ثلاثين متراً. وبتضافر كل من الضغوط الجذرية، والخاصية الشعرية، وقوة الشد الناتجة عن عملية النتح، ينشأ فى داخل جذع النخلة قوة شد تصل إلى عشرات الضغوط الجوية وبذلك تعمل على رفع العصارة الغذائية النيئة فى الأوعية الخشبية ضد قوى الجاذبية من أسفل النخلة إلى قمتها مهما بلغ ارتفاع تلك القمة، بينما تهبط العصارة الغذائية الناضجة بعد تكوينها فى الأوراق من قمة النبات إلى جذوره خلال خلايا لحاء الشجرة بفعل الجاذبية الأرضية، فسبحان الذى أعد هذه القوى الهائلة للنخل، خاصة الطوال (الباسقات) منها، وزودها بكل الخلايا، والأنسجة، والأعضاء القادرة على التعامل مع تلك القوى.

الأجزاء الرئيسية للنخلة

نعرف من أجزاء النخلة الرئيسية ما يلى:

أولاً: المجموع الجذرى

يبدأ المجموع الجذرى لنخيل البلح فى التكون بمجرد إنبات النواة (إذا كان التكاثر

يتم بواسطة زرع النواة، وذلك لأن التكاثر يمكن أن يتم بواسطة الفسـائل، أو باستخدام تقنيات استزراع الأنسجة، وفى كل هذه الحالات تبدأ النبتة بتكون المجموع الجذرى) ويعرف المجموع الجذرى الخارج من النواة النابتة باسم **المجموع الجذرى الوتدى**، ثم تبدأ هذه الجذور الأولية فى التلاشى بالتدريج لتحل محلها جذور عرضية تنشأ من قاعدة البادرة، وتأخذ هذه الجذور العرضية فى الازدياد حجمًا وعددًا مع زيادة نمو النبتة، وهى جذور ليفية، خالية من الشعيرات الجذرية، وتقوم بامتصاص الماء والغذاء من التربة عن طريق خلايا السطح فى هذه الجذور العرضية. ويتميز النخيل بقدرته الفائقة على سرعة تكوين الجذور وانتشارها فى التربة - خاصة التربة الرملية - لتعين على تثبيت النخلة فى الأرض وعلى إمكانية انتصابها قائمة لارتفاعات شاهقة.

ثانيًا: المجموع الخضرى ويشمل

(١) **جذع النخلة**: جذع النخلة أسطوانى الشكل، بقطر يتراوح بين ٤٠ سم، ٩٠ سم وارتفاع يتراوح بين أقل من مترين وأكثر من ثلاثين مترًا، وليست له فروع، ومغطى بنوع خاص من الليف، وبنهايات السعف القديم الذى تعرف الواحدة منه باسم «الكربة» وهى تقوى الجذع، وتحميه من عوارض الجو، ومن تعدى الحيوانات، ومن بخر ما به من ماء، وتعينه على الانتصاب قائمًا لعشرات الأمتار فوق سطح الأرض.

(٢) **القمة النامية للنخلة**: وتعرف باسم - الجمارة -، وتحتوى على البرعم القمى الوحيد الموجود فى رأس النخلة، وتختزن فيه كمية كبيرة من العصارة الغذائية الناضجة، ويقوم هذا البرعم القمى الوحيد بعمليات النمو الرأسى فيؤدى إلى استطالة الجذع، وتكوين الأوراق عليه، وتكوين كل من الزهور والثمار، وبموت هذه القمة النامية تموت النخلة، ولذلك أحاطها الله - تعالى - بغلاف عازل سميك، مكون من قواعد السعف الملتفة والمتراصة لحمايتها من التغيرات المناخية والجوية. وتنقسم هذه القمة النامية إلى جزء سفلى يخرج منه السعف

والليف ويعرف باسم **قلب الجمارة**، وجزء علوى تخرج منه العذوق «جمع عذق» ويعرف باسم **طلع الجمارة** أو **طلع النخلة**.

وعود العذق «العرجون» أو القنو من النخل هو مابين الشماريخ إلى منبته من النخلة، والعذق هو حامل الشماريخ «جمع شمراخ وشمروخ» وهو العود الرفيع الذى عليه البسر ويسمى أحياناً باسم **العثكال**.

(٣) **أوراق النخل (سعف النخل)**: وهى أوراق مركبة، ريشية الشكل، طويلة جدًا إذ يتراوح طولها بين حوالى الثلاثة والستة أمتار تقريبًا، وتنتج النخلة الواحدة بين العشرة والعشرين سعفة فى السنة بدءاً من قمتها النامية (الجمارة)، والورقة لها نصل (عرق وسطى) طويل، مرن، قوى، متين، يزيد عرضه عند اتصاله بالجذع، ويتناقص فى اتجاه طرفه، ويتباين لونه من الأصفر إلى الأحمر القانى إلى البنى، ويحمل هذا النصل الوريقات (الخوص) التى يتراوح عددها بين ١٢٠، ٢٤٠ وريقة (خوصة)، وطولها بين ١٥ سم، ١٠٠ سم، وعرضها بين ١، ٦ سم، هذا بالإضافة إلى عدد من الأشواك فى الجزء السفلى من السعفة. وكل شوكة عبارة عن وريقة متحورة، وقد تتواجد مفردة أو فى مجموعات، وتتصل الوريقة بالمحور الرئيسى للورقة بواسطة انتفاخ عند قاعدة الخوصة. ويوجد لكل ورقة غمد يحيط بالساق، وتنفصل منه المادة الليفية الحمراء إلى البنية التى تحيط بالجذع، وتعمل على زيادة متانته، وقوته، كما تعمل على حمايته وعلى حفظ ما به من سوائل.

ثالثاً: المجموع الزهرى والثمرى للنخلة

تخرج نورة النخلة من إبط الورقة، والنورة عبارة عن **إغريض** مركب ومتفرع إلى عدة أفرع (**شماريخ**)، يحمل كل منها أزهاراً أو تكون الأزهار منغرسة فى الفرع المحمولة عليه، والإغريض عبارة عن سنبلة مركبة تشمل الشماريخ والأزهار. والشماريخ (جمع شمراخ وشمروخ) هى فروع متحورة، لحمية، غليظة، تحمل الأزهار، والأزهار وحيدة الجنس (إما مؤنثة أو مذكرة)، منتظمة، بدون عنق، أى محمولة على الشمراخ مباشرة، وهناك مايقرب من العشرة آلاف زهرة على الطلع

الواحد، ومن هنا كان التعبير القرآنى: لها طلع نضيد (أى منضود). ويحمل النورة محور يصلها برأس جذع النخلة، والأزهار المذكرة بيضاء اللون، مائلة إلى شىء من الصفرة، وتوجد فى فحول النخل، أما الأزهار المؤنثة فهى صفراء اللون، وهى أصغر حجمًا من الأزهار المذكرة، وتوجد على إناث النخل.

وفى الحالتين يتركب الطلع من غلاف جلدى متين يحيط بالأزهار، ويعرف باسم «**الجف**»، ويعرف مابداخل هذا الغلاف من أزهار وعذوق وشماريخ باسم «**الأغاريض**»، وتتميز الأغاريض المذكرة بقصر شماريخها، وكثرة عذوقها، وتحمل أزهاراً متلاصقة، أما الأغاريض المؤنثة فتحمل عدداً أقل من الأزهار، تتوزع متباعدة عن بعضها البعض على شماريخ أطول وأدق.

وعند حدوث التلقيح بين فحول النخل وإناثه إما تلقيحًا فطريًا بواسطة كل من الرياح والحشرات، أو تلقيحًا صناعيًا (يدويًا أو آليًا) تتم عملية الإخصاب فتنتج الثمرة من أحد الكرابل الثلاث التى تكون الزهرة المؤنثة، وتضمحل الكربلتان الأخريان وتسقطان على الأرض. ويتكون المجموع الثمرى للنخلة من الطلع (**الكفرى**)، **والعذوق**، **والشماريخ**، والثمار، وثمرة البلح حسلية، بداخلها نواة ذات فلقة واحدة تحتضن جنين النخلة بداخلها، وتحيط به طبقة الإندوسپرم على هيئة سويداء قرنية لحماية الجنين وتغذيته فى فترة الإنبات. وفى حالة عدم تلقيح الزهرة المؤنثة تستمر الكرابل الثلاث فى النمو وتعطى ثماراً صغيرة بدون نوى، ومجتمعه مع بعضها تحت قمع واحد، وهى ثمار لا قيمة لها من الناحيتين الاقتصادية أو الغذائية.

ويزرع نخيل البلح لثماره التى تؤكل، ولخشبه وجريده وخوصه، وأليافه التى لها من الاستخدامات ما لا يتسع المقام لحصره. فسبحان الذى أنزل من قبل أربعة عشر قرنًا قوله الحق: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

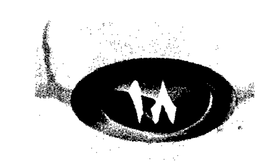
ثم يأتى العلم الكسبى بعد أربعة عشر قرنًا ليؤكد لنا روعة القوى التى وضعها الله ـ تعالى ـ فى النخل الطوال كى تمكنها من رفع العصارة الغذائية من التربة إلى قمتها، ويؤكد لنا حقيقة أن هناك مايقرب من العشرة آلاف زهرة على الطلع الواحد

منضودة أى متراكبة بعضها فوق بعض فتأتى الثمار منضودة كذلك، وهى حقائق لم تكن معروفة فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعده،أبقاها الله ـ تعالى ـ فى محكم كتابه شاهدة لهذا الكتاب الخالد بأنه كلام الله ـ الخالق ـ وشاهدة للنبى الخاتم الذى تلقاه بالنبوة وبالرسالة،فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



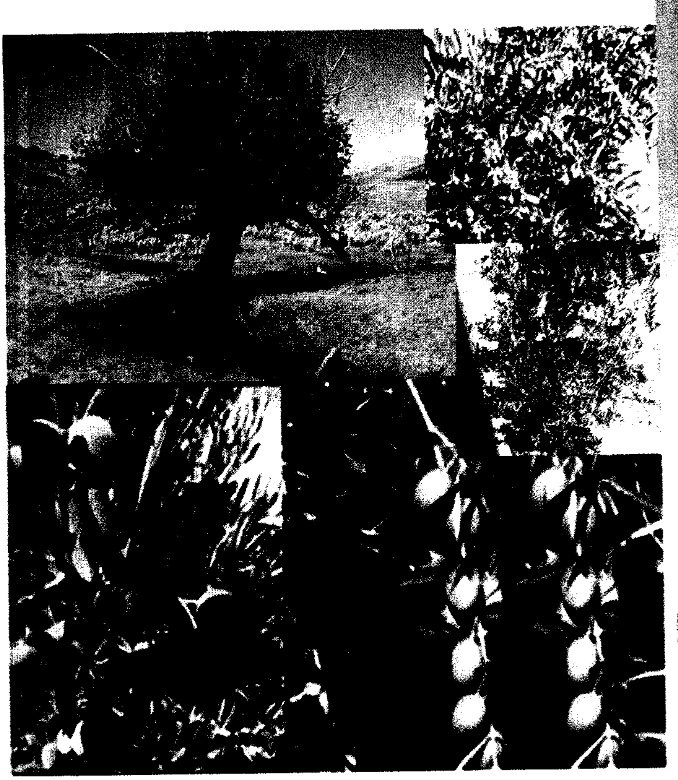


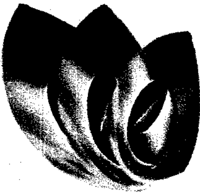


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾

(المؤمنون:٢٠)





هذه الآية الكريمة جاءت فى نهاية الخمس الأول من سورة «المؤمنون»، وهى سورة مكية، وآياتها ثمان عشرة ومائة بعد البسملة، وقد سميت السورة باسم «المؤمنون» إشادة بهم، وتأكيداً على فضائلهم، وتمييزاً لهم عن غيرهم ممن استزلهم الشيطان فأغرقهم فى أوحال الشك أو الشرك أو الكفر بالله - تعالى -. ويدور المحور الرئيسى لهذه السورة المباركة حول قضية الإيمان بالله تعالى ربّا، واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يشاركه أحد فى ملكه، ولا ينازعه أحد فى سلطانه، ولا صاحبة له ولا ولد، والتأكيد على هذا التوحيد الخالص لله، وتنزيهه - سبحانه وتعالى - عن كل وصف لا يليق بجلاله، ومقارنة هذا الإيمان الصادق بأضداده من الشرك بالله أو الكفر به - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - .

عرض موجز لسورة «المؤمنون»

هذه السورة الكريمة بشارة للمؤمنين برضاء الله - سبحانه وتعالى - عنهم. ولذلك استهلت بقول الحق - تبارك وتعالى -.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[المؤمنون: ١-١١]

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى استعراض عدد من آيات الله فى الخلق للدلالة على طلاقة قدرة الخالق - سبحانه وتعالى - وفى مقدمة تلك الآيات خلق الإنسان من طين، ومروره بمراحل الجنين المتتالية من نطفة أمشاج، إلى علقة، ثم إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم خلق المضغة عظامًا، إلى كسوة العظام باللحم (العضلات والجلد) فى تتابع عجيب حتى أنشأه الله - تعالى - خلقًا آخر ،وثم حتمية موته ثم بعثه فى يوم القيامة.

ومن تلك الآيات خلق سبع سماوات طباقًا متمايزة، وإنزال الماء من السماء بقدر، وإسكانه فى الأرض، علما بأن الله - تعالى - قادر على الذهاب به.

وتتضح القدرة الإلهية المبهرة كذلك فى إنبات الأرض بمجرد إنزال الماء عليها، وفى إنشاء جنات من نخيل وأعناب وغيرها من أشجار، ونباتات الحبوب والثمار، والفواكه والخضراوات الكثيرة ليأكل منها الإنسان وأنعامه، وغير ذلك من الحيوانات آكلة الأعشاب، ومن بين ذلك كله خصت هذه السورة المباركة شجرة الزيتون بإشارة محددة وصفتها بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠].

وتحدثت الآيات عن معجزة خلق الأنعام، وتكوين اللبن فى أضراعها من بين دمها والفرث (أى الغذاء المهضوم هضمًا جزئيًا فى كرشها)، وما فى تلك الأنعام من منافع عديدة للإنسان، وأشارت إليها وإلى الفلك كوسيلة من وسائل النقل لهذا المخلوق المكرم من الله - تعالى - والذى اسمه الإنسان.

ثم انتقلت السورة الى سرد قصص عدد من أنبياء الله ورسله الذين اصطفاهم الله - تعالى - لهداية أممهم، وأكدت أن رسالتهم جميعًا كانت رسالة واحدة ألا وهى التوحيد الخالص لله - تعالى - (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) وكانت دعوة كل واحد منهم إلى أمته دعوة واحدة تعبر عنها السورة الكريمة بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ ...أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٣٢].

وسجلت سورة «المؤمنون» تفاعل تلك الأمم مع رسالات ربها، ومن هذه الأمم أمة كل من أنبياء الله نوح، وهود، وصالح، وأعداد أخرى من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله نبيا إثر نبى، ورسولا إثر رسول، حتى جاء زمان موسى وهارون، ثم زمان عيسى ابن مريم - على رسولنا وعليهم جميعا من الله السلام -، وكان أمر الله تعالى إليهم واحداً، مؤكداً على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى وحدة الجنس البشرى كله، وإن كان أتباع تلك الرسالات قد تفرقوا، واختلفوا، وابتدعوا فيما أرسل إليهم، فأفسدوا إفسادا كبيرا، وظنوا أن ما يمدهم به الله من مال وبنين هو خير لهم. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٦].

وتعاود السورة الكريمة إلى سرد المزيد من صفات المؤمنين فتنعتهم بقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦٣].

وفى مقابلة واضحة لصفات المؤمنين ذكرت السورة الكريمة بعض صفات الكفار والمشركين ممثلين بكفار قريش ومشركيهم وبمن يسير على خطاهم إلى يوم الدين، عارضة لشيء من ندمهم وحسرتهم يوم القيامة، وفى ذلك تقول:

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٣ ، ٦٩].

ثم عاودت السورة الكريمة إلى الاستشهاد بعدد من آيات الله، الدالة على طلاقة قدرته، ومنها خلق السمع والأبصار والأفئدة، ونشر الجنس البشرى فى الأرض، وحتمية بعث جميع الخلائق بعد موتهم ثم حشرهم إلى الله، الذى هو يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار.

وردت هذه السورة الكريمة على الذين ينكرون البعث، والذين يتهمون وحى السماء ـ زورا ـ بأنه من أساطير الأولين، واستعرضت حوارا بين خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبين الكفار والمشركين. ونزهت الذات الإلهية عن كل من الولد والشريك لأنهما من صفات المخلوقين التى لا تليق بجلال الله، وفى ذلك تقول:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١ ، ٩٢]

وتنتقل الآيات إلى وصف ذل كل من الكفار والمشركين فى ساعات احتضارهم، وبعد بعثهم، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٨].

وتقارن الآيات بعد ذلك بين موقف المؤمنين الذين يطلبون المغفرة والرحمة من الله تعالى، وموقف الكفار والمشركين الذين كانوا يقفون من المؤمنين موقف

الاستهزاء والسخرية والضحك، فجزى الله المؤمنين بأن جعلهم الأعلون فى الدنيا والفائزين فى الآخرة.

وتختتم السورة الكريمة بالتأكيد على أن البشر لم يخلقوا عبثًا، وأنهم حتمًا راجعون إلى الله، وعظَّمت ذلك الإله الملك الحق الذى لا إله إلا هو رب العرش الكريم، واستنكرت شرك المشركين الذين هددتهم بعقاب شديد من الله، ونعتتهم بالكافرين، وقررت أنهم لا يفلحون أبدًا.

وفى المقابل وجهت الآيات رسول الله ﷺ ـ ومن ورائه كل المؤمنين ببعثته الشريفة ـ أن يطلبوا المغفرة والرحمة من الله الذى هو خير الراحمين، وفى ذلك تقول:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٨].

من ركائز العقيدة فى سورة «المؤمنون»

من ركائز العقيدة الإسلامية التى جاءت بها «سورة المؤمنون» الإيمان بما يلى:

(١) إن الجنة حق، وأنه لايرث الفردوس خلودا فيها إلا المؤمنون الذين عددت السورة الكريمة جانبا من صفاتهم ولذلك سميت باسمهم.

(٢) إن الله ـ تعالى ـ هو خالق الإنسان، ومقدر مراحله الجنينية مرحلة بعد أخرى حتى تتم تسويته، وأن الله تعالى هو رب كل شىء ومليكه، وأن الإنسان لم يخلق عبثًا، وأنه حتمًا عائد إلى ربه للحساب والجزاء، ثم الخلود فى الحياة الآخرة.

(٣) إن الموت حق على جميع المخلوقين، وإنه محدد ـ مكانًا وزمانًا ـ لكل مخلوق سلفًا قبل خروجه إلى هذه الحياة الدنيا.

(٤) إن الآخرة حق، وإن البعث والحشر والحساب حق، وإن الجنة حق، وإن النار حق.

(٥) إن أنبياء الله ورسله ورسالاته حق، وإن هذه الرسالات كلها واحدة، وإنها تكاملت وتمت وحفظت فى الرسالة الخاتمة التى بعث بها الرسول الخاتم ﷺ .

(٦) إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الحق، وإن آياته حق، وإنه ـ تعالى ـ هو عالم الغيب والشهادة، وهو رب العرش الكريم، وإن الشرك بالله كفر به، وإنه لا يفلح الكافرون أبداً.

(٧) إن الله ـ تعالى ـ هو خير الرازقين، وهو الذى يحيى ويميت، وله اختلاف الليل والنهار، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن الصاحبة والولد، وعن المنازع، والشريك والشبيه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

(٨) إن الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من همزات الشياطين، ومن أن يحضرون هى حصن المسلم فى كل وقت وفى كل حين.

(٩) إنه لا عودة بعد الموت إلا فى يوم البعث، وذلك لأن الأموات وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون، وبأن نفخة الصور الأولى يصعق عندها كل حى، والنفخة الثانية يبعث عندها كل ميت.

(١٠) وإن من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، و من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون.

(١١) إن طلب المغفرة والرحمة يجب أن يكون من الله وهو ـ سبحانه وتعالى ـ خير الراحمين.

من الآيات الكونية فى سورة «المؤمنون»

(١) خلق الإنسان من سلالة من طين.

(٢) وصف المراحل المتتالية فى تكوين الجنين البشرى بدقة بالغة.

(٣) وصف كل من الغدد التناسلية والرحم بأنه قرار مكين.

(٤) خلق السماوات السبع وما بينها من فواصل.

(٥) إنزال الماء من السماء بقدر، وإسكانه فى الأرض.

(٦) إخراج النبات من الأرض بعد إنزال الماء عليها من السماء، وإنشاء جنات من نخيل وأعناب وغير ذلك من النباتات الكثيرة وما لها من الثمار.

(٧) وصف شجرة الزيتون بأنها تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، والإشارة إلى شجر الزيتون الذى ينبت فى طور سيناء بصفة خاصة.

(٨) وصف الأنعام بأن فيها عبرة للمعتبرين، خاصة ما يخرج من بطونها من اللبن، ومايؤكل منها من لحم، وغير ذلك من منافعها الكثيرة للإنسان.

(٩) الإشارة إلى إمكانية استخدام كل من الأنعام والفلك كوسائل للتنقل.

(١٠) التلميح بسبق مراكز حاسة السمع على مراكز كل من الأبصار والأفئدة فى مخ الإنسان.

(١١) الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بتعبير «اختلاف الليل والنهار».

ذكر الزيتون وزيته فى القرآن الكريم

جاء ذكر الزيتون وزيته فى سبعة مواضع من القرآن الكريم على النحو التالى:

(١) ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

(٣) ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

(٤) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

(٥) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

(٦) ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢].

(٧) ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [التين : ١ ـ ٣].

وفى هذه الآيات الكريمة من سورة التين يقسم ربنا تبارك وتعالى ـ وهو الغنى عن القسم ـ بكل من التين والزيتون وطور سنين، أى الجبل الذى نودى موسى عليه السلام من جانبه فى شبه جزيرة سيناء ويعرف باسم «طور سيناء»، والبلد الأمين أى مكة المكرمة، أشرف بقاع الأرض على الإطلاق. ويأتى جواب القسم أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وفطره على حب الإيمان وكراهية الكفر، وعلى حب الخير والنفور من الشر، وحب مكارم الأخلاق وكراهية الإسفاف فى الحديث أو الانحطاط فى السلوك، وغرس فى جبلته حب الالتزام بذلك كله حتى يصل إلى درجات من الكمال البشرى ترفعه إلى مافوق منازل الملائكة إذا التزم بذلك، ولكن إذا انحرف الإنسان عن الفطرة التى فطره خالقه عليها، وانغمس فى وحل الشرك، أو الكفر، أو الضلال، والانحلال الأخلاقى، فإنه ينتكس انتكاسة تهوى به إلى أسفل السافلين.

والتين قد أشير إليه فى القرآن الكريم كله مرة واحدة فقط فى هذه السورة المباركة. ولعل فى النسبة بين ذكر التين مرة واحدة، وذكر الزيتون وزيته سبع مرات حكمة تحتاج منا إلى شىء من البحث والتحقيق.

وكل آية من هذه الآيات الثمان (آيات التين والزيتون) تحتاج فى شرح دلالتها العلمية إلى معالجة خاصة، ولكنى سوف أقصر الحديث هنا على الآية العشرين من سورة (المؤمنون)، وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠]

* ذكر الطبري ـ رحمه الله ـ ما مختصره : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وشجرة منصوبة عطفا على (جنات) يعني بها شجرة الزيتون ﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ جبل مبارك نودي منه موسى ﷺ، واختلف فيه، ﴿تَنْبُتُ﴾ تثمر ﴿بِالدُّهْنِ﴾ و﴿صِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ ما يأتدمون به .

* وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتونة، والطور هو الجبل، وقال بعضهم إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنه سمى جبلاً لاطوراً، والله أعلم» . ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين : ٢] هو طور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ وماحوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي تنبت الدهن . . . ، ولهذا قال : ﴿وَصِبْغٍ﴾ أي أدم ـ قاله قتادة ـ (للآكلين) أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، قال رسول الله ﷺ : «**كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة**» وروى عبد بن حميد في «مسنده» عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة**) .

* وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: « . . . ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ . . . ، بكسر السين وفتحها، ومنع الصرف للعلمية والتأنيث للبقعة أي : لأنه اسم علم على البقعة التي فيها جبل الطور ﴿تَنْبُتُ﴾ بضم التاء وكسر الباء من الرباعي أنبت، وفي قراءة بفتح التاء وضم الباء من الثلاثي نبت ﴿بِالدُّهْنِ﴾ الباء زائدة على الأول، ومتعدية على الثاني، وهي شجرة الزيتون، ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ عطف على الدهن أي : إدام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو : الزيت» .

* وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه : « ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ . . وهي من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها . وأقرب منابتها من بلاد العرب طور سيناء . عند الوادي المقدس المذكور في القرآن . لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص، وهي تنبت هناك من الماء الذي أسكن في الأرض وعليه تعيش» .

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - رحم الله صاحبها - ما نصه: «﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ أى وأنشأنا لكم شجرة تخرج من الجبل المعروف بهذا الاسم وهو جبل المناجاة ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ تنبت ملتبسة بالدهن ومصحوبة به . . . . والدهن عصارة كل شيء ذى دسم، والمراد به هنا: زيت الزيتون، وقرئ تنبت بضم التاء، من أنبت بمعنى نبت، أو من أنبت المتعدى بالهمزة، كأنبت الله الزرع، والتقدير: نبت جناها مصحوبا بالدهن ﴿ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ أى وبإدام للآكلين، والصبغ والصباغ - بالكسر فيهما - : الإدام لأنه يصبغ الخبز، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب، فكان الزيت إدامًا يؤتدم به كما كان دهنا يدهن به ويسرج منه، والتغاير بين المعطوف والمعطوف عليه باعتبار الصفات لا باعتبار الذات».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيرا - ما نصه: «وخلقنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى منطقة طور سيناء، وفى ثمارها زيت تنتفعون به، وهو إدام للآكلين». وجاء فى تعليق الخبراء بالهامش ما يلى: «. . . تقرر هذه الآية الكريمة أن شجرة الزيتون من ضمن النعم التى أنعم الله بها على الإنسان وعدد بعضها فى الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية إذ إنها من الأشجار الخشبية التى تعمر طويلاً لمدد تزيد على مئات السنين، فلا يأخذ أمرها جهداً من الإنسان إنما تثمر ثماراً مستمرة طبيعية . . كما تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر. وتفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة، فيه نسبة كبيرة من البروتين. كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية، والحديدية، والفسفورية، وهى مواد مهمة وأساسية فى غذاء الإنسان، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوى على ڤيتامين (أ) وڤيتامين (ب). ويستخرج من الثمار زيت الزيتون الذى يحتوى على نسبة عالية من الدهون السائلة، وهذا الزيت يستعمل بكثرة فى التغذية. وتضيف الأبحاث الطبية إلى زيت الزيوت فوائد عديدة، فهو يفيد الجهاز الهضمى عامة . . والكبد خاصة، وهو يفضل جميع أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية، إذ لا يسبب أمراضًا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهن، كما أنه ملطف للجلد، إذ يجعله ناعمًا ومرنًا. ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة صناعية، إذ تحضر منه بعض المركبات، ويدخل فى إنتاج أفضل وأحسن أنواع الصابون، وغير ذلك من مختلف الصناعات الغذائية والطبية».

* وذكر صاحب صفوة التفاسير - جزاه الله خيرا - ما نصه : «﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ أى ومما أنشأنا لكم بالماء أيضا شجرة الزيتون التى تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ أى تنبت الدهن أى الزيت الذى فيه منافع عظيمة ﴿ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾أى وإدام للآكلين ، وسمى صبغا لأنه يلون الخبز إذا غمس فيه ، فقد جمع الله فى هذه الشجرة بين الأدم والدهن . . . . » .

من الدلالات العلمية للآية المباركة

نظراً لتميزها فإن شجرة الزيتون أصبحت تصنف اليوم ضمن رتبة خاصة بها من رتب النباتات المزهرة تعرف باسم رتبة الزيتونيات **(Order Oleales)**، وقد كانت شجرة الزيتون تجمع من قبل فى رتبة أخرى تعرف باسم رتبة الملتفات **(Order Contortae)** . وتضم هذه الرتبة عائلة واحدة تعرف باسم العائلة الزيتونية **(Family Oleaceae)** التى تقسم إلى كل من تحت العائلة الزيتونية **(Subfamily Oleoideae)** وتحت العائلة الياسمينية **(Subfamily jasminoideae)** .

وتضم أشجار العائلة الزيتونية ٢٨ جنسًا ، وما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ نوع من أنواع النباتات المزهرة التى تنتشر انتشاراً واسعًا فى كل أنحاء الأرض ما عدا المناطق المتجمدة والباردة ، إذ تنتشر فى كل من المناطق المعتدلة والمدارية بصفة خاصة ، وتكثر - بالذات - فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفى جنوب غربى آسيا . وعلى الرغم من هذا الانتشار الواسع إلا أن أشجار هذه العائلة نادرا ما تكون هى الأشجار السائدة فى المنطقة الواحدة ، ومن هذه الأشجار ما هو دائم الخضرة كشجرة الزيتون ، ومنها ما هو متساقط الأوراق .

وتضم العائلة الزيتونية أشجاراً خشبية ، كما تضم عدداً من الشجيرات ، وبعض المتسلقات ، ولكن تتميز كلها بأوراقها الريشية المتقابلة أو المتبادلة ، البسيطة أو المركبة ، والتى يمكن أن تكون لها أذينات صغيرة عند قاعدة الورقة ، والثمرة فى أفراد العائلة الزيتونية إما أن تكون حسلية كما هو الحال فى ثمرة الزيتون - وهى ثمرة عصارية ، حقيقية ، تكونت من نمو مبيض الزهرة فقط ، ولها بذرة صلبة فى قلبها - ، وقد تكون الثمرة لبية أو علبية كما هو الحال فى بعض شجيرات الزينة ونباتات الأسوار التابعة لهذه العائلة . والبذور فى العائلة الزيتونية إندوسبيرمية أى

مغطاة بطبقة من الأنسجة التى تمثل غذاءً للجنين الذى عادة ما يأخذ شكلاً مستقيمًا فى داخل تلك الأنسجة .

والنباتات المنطوية فى الرتبة الزيتونية لها من الأهمية الاقتصادية والجمالية ما يتمثل فى شجر الزيتون بأنواعه وأصنافه المختلفة ، وثمره وزيته وخشبه ، كما يتمثل فى شجر الدردار (**Ashes**) المشهور بأخشابه الصلبة والشديدة التماسك ، وفى عدد من الشجيرات والمتسلقات ذات العطور العبقة من مثل البنفسج (**Lilacs**) والياسمين (**Jasminum = Jasmines**) .

وأشجار الزيتون تتميز بأنها أشجار معمرة حيث يمكن للشجرة الواحدة أن تعيش لأكثر من ألفى سنة . وينبت فى مصر صنفان رئيسيان من نوع الزيتون المعروف خطأ باسم «الزيتون الأوروبى» (**Olea europaea**) والذى أطلقت عليه مترادفات عديدة ، ولكن كان من الأصح تسميته باسم «الزيتون السينائى» (**Olea sinaensis**) لأن زراعته انتقلت أصلاً من شبه جزيرة سيناء إلى باقى أجزاء حوض البحر الأبيض المتوسط .

وأحد هذين الصنفين يعرف باسم «الزيتون التفاحى أو البثلى» ، ويتميز بثمرته الكبيرة الحجم ، والقليلة الزيت نسبّيا ، ولذلك يصلح للتخليل أكثر من كونه مصدراً للزيت ، وتكثر زراعة هذا الصنف فى واحات صحراء مصر الغربية وفى منطقة الفيوم .

أما الصنف الآخر فيعرف باسم «الزيتون الشملالى» ، ويمتاز بثماره الصغيرة الحجم نسبيا والغنية بالزيت ، ولذلك يصلح أكثر للعصر واستخراج ما به من زيت ، وتكثر زراعته فى شبه جزيرة سيناء وعلى طول سواحل البحر الأبيض المتوسط .

وفى فلسطين تزرع أنواع من الزيتون عديدة منها العربى ، والصورى (النبالى) ، والأزميرى (القنبيسى أو المليمى) ، والخضارى الطفيلى ، والكتيب ، والبياضى ، والمركبى ، والرصيعى ، والركبى ، والرصاعى ، والكرمانى ، والخلقانى . وفى بقية الدول العربية ، ودول حوض البحر الأبيض المتوسط تزرع أنواع أخرى عديدة من الزيتون . أما الزيتون البرى (**Olea Oleaster**) الذى ينبت فى الأحراش بصورة فطرية فهو صغير الثمرة ، مستديرها ، قليل الزيت ، وغير سائغ للأكل .

والآية القرآنية الكريمة التى نحن بصددها تشير بوضوح إلى شجرة الزيتون التى تؤكل ثمارها، ويؤتدم بزيتها وبما فيه من منافع، وقد جاءت الإشارة إليها منسوبة إلى طور سيناء مما يرجح أن هذه المنطقة هى أصل منبت شجرة الزيتون، كما ترجح وجود ميزات للصنف من الزيتون الذى ينبت فى تلك المنطقة تميزه عن غيره، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ** ﴾ (المؤمنون : ٢٠).

﴿ **تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ** ﴾ أى تنبت ثمارها متلبسة بالدهن وهو زيت الزيتون، ﴿ **وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ** ﴾ أى: إدام وطعام لهم، سمى صبغا لكونه إداما، ولأنه يصبغ الخبز إذا لامسه، ولعل فى ذلك إشارة إلى ما هو غير الدهن من مئات المركبات الكيميائية المهمة التى مكن الله ـ تعالى ـ شجرة الزيتون من استخلاصها من ماء وتربة الأرض، ونقلها فى العصارة الغذائية، وتخليقها فى أوراقها وثمارها، مما تعجز أكبر المصانع التى بناها الإنسان عن تحقيقه. لذلك امتدح ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كلاًّ من شجر الزيتون وزيته فى ستة مواضع أخرى من القرآن الكريم، وأقسم بالتين والزيتون فى موضع ثامن منه، والله ـ تعالى ـ غنى عن القسم لعباده.

وشجرة الزيتون هى شجرة صغيرة، ولكنها شجرة معمرة، دائمة الخضرة، تتحمل الجفاف بشكل كبير، وثمرتها من أهم ثمار الزيوت النباتية، إذ يشكل زيتها ما بين ٥٠٪، ٧٠٪ من وزن الثمرة فى المتوسط، ويتكون زيت الزيتون من عدد من المركبات الكيميائية المهمة، والتى منها مركبات الجليسرين والأحماض الدهنية، وهذه المركبات معروفة باسم الجليسيريدات (**Glycerides**)، ويكون الحمض الدهنى نسبة كبيرة من وزن الزيت، ولذلك فإن صفات كل زيت تتوقف إلى حد كبير على نوع الحمض الدهنى المكون لمركب الجليسيريدات فيه. ومن أشهر الأحماض الدهنية فى زيت الزيتون وفى غيره من الدهون بصفة عامة ما يلى:

(١) حمض زيت الزيتون (**Oleic Acid**).

(٢) حمض زيت النخيل (**Palmatic Acid**).

(٣) حمض زيت الكتان (**Linoleic Acid**).

(٥) حمض الشمع (**Stearic Acid.**).

(٦) الحمض الغامض أو حمض المستريك (Mystric Acid).

هذا ومن المعروف أن مركبات الجليسيريدات (Glycerides) قد تكون مفردة الحامض أو مكونة من أخلاط من تلك الأحماض الدهنية، فإذا كانت ناتجة عن اتحاد الجليسيرين مع حمض دهني واحد فقط سميت باسم «الجليسيريدات البسيطة» (Simple Glycerides)، ولكن إذا نتجت عن اتحاد الجليسيرين مع أكثر من حمض دهني واحد ـ وهو الأمر الغالب ـ سميت باسم «الجليسيريدات المختلطة ـ (Complex or Mixed Glycerides).

وعادة ما تكون الزيوت والدهون مركبة من جليسيريدات مختلطة إلا أن بعضها قد يحتوى على نسبة عالية من نوع معين من الجليسيريدات البسيطة وذلك مثل زيت الزيتون الذى يحتوى على نسبة عالية من جليسريدات حمض زيت الزيتون (Oleic Acid) تتراوح بين ٦٧٪، ٨٤٪ مما يميزه عن غيره من الزيوت النباتية. والدهون الحيوانية.

بالإضافة إلى ذلك يحتوى زيت الزيتون على البروتينات، وعلى نسب متفاوتة من عناصر البوتاسيوم،و الكالسيوم، والمغنسيوم، والفسفور، والحديد، والنحاس،والكبريت وغيرها، بالإضافة إلى نسبة من الألياف. وتدخل هذه المكونات فى بناء حوالى الألف مركب كيميائى حيوى فى زيت الزيتون، كلها نافعة لجسم الإنسان، وبعضها ضرورى لسلامته، ومن هنا كان فضل هذا الزيت على غيره من الدهون والزيوت التى تمثل مركبات عضوية لها تركيب كيميائى متشابه فإذا بقيت سائلة عند درجة حرارة (٢٠) درجة مئوية سميت زيتًا، وإذا بقيت جامدة عند نفس الدرجة سميت دهنا، ومنها الدهون المتعادلة، والشموع، والدهون المعقدة المعروفة باسم «الليبيدات المختلطة» (Mixed Lipids).

وأهم مصادر الزيوت النباتية هى بعض البذور الزيتية مثل بذور كل من القطن، والكتان، والسمسم، ودوار الشمس، والخروع، والفول السودانى، وفول الصويا. كذلك يمكن الحصول على الزيوت النباتية من بعض الثمار الزيتية من مثل ثمار الزيتون، وجوز الهند، وثمار النخيل الزيتى، أو من بعض أجنة الحبوب من مثل القمح، والذرة، والأرز. وتستخلص الزيوت النباتية بطريقة الهرس ثم الكبس

أو العصر فى مكابس خاصة ، وتعرف المادة الصلبة المتبقية من هذه العملية باسم «الكسب» الذى يستخدم علفاً للحيوان لغناه بالپروتين ، وقد يستخدم ما يتخلف عن عصر بذور السمسم غذاءً للإنسان .

وقد ثبت بالدراسة أن أفضل الزيوت النباتية على الإطلاق هو زيت الزيتون، وذلك لما أعطاه الله - تعالى - من خاصية خفض ضغط الدم، وتقليل امتصاص الجسم للكوليسترول بصفة عامة، وإنقاص المعدل الكلى للكوليسترول فى الدم بحوالى ١٣٪، وإنقاص معدل الكوليسترول الضار فى الدم والمعروف باسم الكوليسترول الخفيف. Low Density Lepidoprotein (L. D . L) بنسبة ٢١٪ فيرفع بذلك نسبة الكوليسترول المفيد نسبيا فى الدم، والمعروف باسم الكوليسترول الثقيل High Density Lepidoprotein (H.D.L).

ومن الثابت طبيا أنه كلما انخفضت نسبة الكوليسترول الضار وزادت نسبة المفيد منه فى الدم كلما قلت نسبة الإصابة بالجلطات القلبية من مثل الإصابة المعروفة باسم احتشاء العضلة القلبية ، وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بكميات منتظمة يحمى القلب من أمراض انسداد الشرايين وهى من أكثر الأمراض انتشارا فى الزمن الحاضر ، خاصة فى الدول الغنية التى يبالغ أفرادها فى تناول الطعام إلى حد التخمة . وعلى الرغم من ذلك فقد لوحظ أن أقل نسبة إصابة بمرض الشرايين التاجية - الإكليلية - القلبية يوجد فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبالذات فى بلدانه التى يتناول أفرادها الزيتون وزيته بكميات ثابتة ومنتظمة ، ويستخدمونها مصدراً أساسيًا للدسم فى طعامهم مما يشير إلى الدور الفاعل لهما فى الوقاية من أمراض شرايين القلب ، فقد ثبت بالتحليل الدقيق احتواء كل من ثمرة الزيتون وزيتها على مركبات كيميائية تمنع تخثر الدم . وانطلاقا من ذلك يوصى الأطباء كل من أجريت لهم عمليات توسعة شرايين القلب بتناول ٤ - ٥ ملاعق من زيت الزيتون يوميا وبشكل روتينى كجزء من العلاج .

هذا ، وقد جاء ذكر الزيتون وزيته فى سبعة مواضع من القرآن الكريم ، وأقسم به ربنا تبارك وتعالى - وهو الغنى عن القسم - وأكد المصطفى ﷺ على قيمته الغذائية وقيمة زيته مما أثبتته البحوث العلمية والطبية فى العقود المتأخرة من القرن

العشرين. وتعتبر هذه الإشارات من المعجزات العلمية للقرآن الكريم الذى أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، ومن معجزات الرسول الخاتم الذى تلقاه والذى يروى عنه ﷺ قوله الشريف:

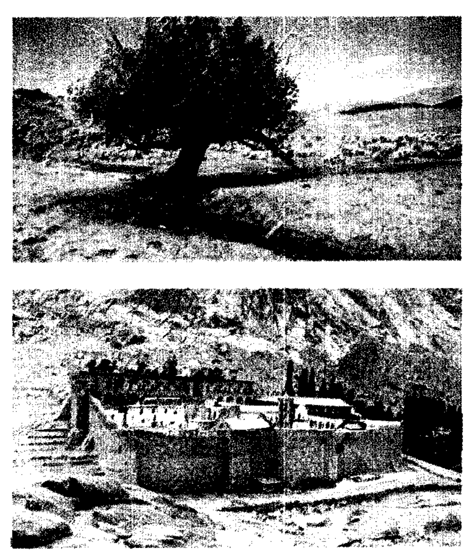
«كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» (أخرجه الإمام أحمد عن مالك ابن ربيعة الساعدى مرفوعًا)، وقوله ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ فى نفس المعنى: «**ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة**» (رواه من أئمة الحديث كل من ابن ماجه والحاكم وعبد الرزاق)[1].

وهنا يتبادر إلى الذهن سيل من الأسئلة منها: لماذا أنزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآية المباركة فيما أنزل من قرآن على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وأنطقه بما نطق به من علم عن شجرة الزيتون، وثمرها وزيتها؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن الله ـ تعالى ـ يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل فى يوم من الأيام إلى اكتشاف قيمة الزيتون وزيته الغذائية الصحية فتكون هذه الآية المباركة، كما تكون أقوال رسول الله ﷺ مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للرسول الخاتم الذى تلقاه، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام، خاتم الأنبياء والمرسلين، وإمام المتقين الغر المحجلين، والحمد لله فى الأولى والآخرة، والحمد لله فى كل وقت وفى كل حين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

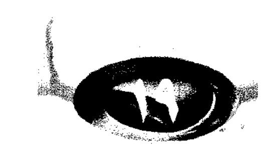
* * *

(١) ابن ماجه (٣٣١٩)، والحاكم (٤/ ١٢٢)، وعبد الرزاق (١٩٥٦٨).



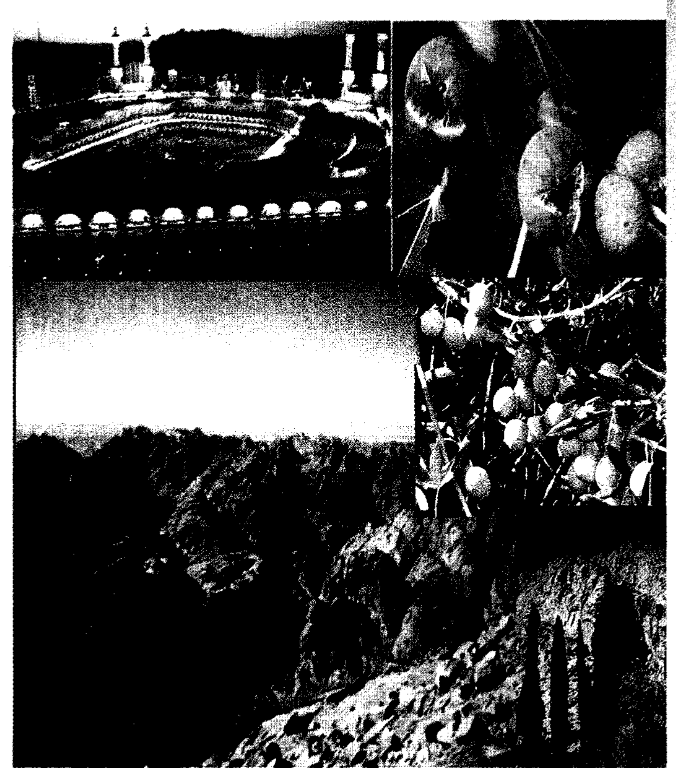


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾

(التين ١ : ٣)





هذه الآيات المباركات جاءت فى مطلع سورة التين، وهى سورة مكية، ومن قصار السور فى القرآن الكريم، إذ يبلغ عدد آياتها ثمانى آيات فقط بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود القسم فى مطلعها بهذه الثمرة المباركة «التين» التى وصفها المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة قلت التين؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم**[1]...»[2]، ومطلع سورة التين يمثل الآية الوحيدة فى كل القرآن الكريم التى جاءت فيها الإشارة إلى التين، وأتبع القسم بالتين بثلاثة صيغ أخرى من القسم بالزيتون وطور سنين، ومكة المكرمة (هذا البلد الأمين).

عرض موجز لسورة التين

يدور المحور الرئيسى للسورة حول قضيتين رئيسيتين: **أولاهما هى قضية تكريم الله للإنسان:** بخلقه فى أحسن تقويم، وعلى فطرة مستقيمة مع التأكيد على حقيقة الأخوة الإنسانية التى ينتهى نسبها إلى آدم عليه السلام، وآدم من تراب كما أخبرنا القرآن الكريم وأخبرتنا أحاديث المصطفى ﷺ، وهذه الفطرة التى فطر الله ـ تعالى ـ الإنسان عليها مستقيمة أيضًا مع حقيقة الإيمان بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً، وبالوحى والنبوة والرسالة السماوية منهجًا فى التبليغ عن الله الخالق البارئ المصور، ومن ثم الإيمان بأنبياء الله ورسله أجمعين، وبما أرسلوا به من دين يحوى الإجابات الشافية على التساؤلات الكلية التى تشغل بال الإنسان طيلة حياته ـ قَلَّتْ ثقافته أو زادت، وعلا قدره فى المجتمع أو انحط ـ من مثل قضايا **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات** التى تشكل صلب الدين، والتى لا يقوى الإنسان على وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها، إما لكونها من صميم

---

(١) عجم: جمع عجمة، وهى النواة.

(٢) الكحال فى «الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية» (٢/ ١٤١)، والذهبى فى «الطب النبوى» (٤٠).

الغيب المطلق كقضايا العقيدة، أو الأوامر الإلهية المطلقة كقضايا العبادة، أو لكونها ضوابط للسلوك كقضايا الأخلاق والمعاملات، والإنسان كان دومًا عاجزًا عن وضع ضوابط لسلوكه من تصوراته وتقديراته الشخصية، ومن هنا كانت ضرورة الدين لاستقامة حياة الإنسان على الأرض، ومن هنا أيضًا كان لازمًا للدين كى يكون دينًا صحيحًا قادراً على تربية الإنسان تربية صالحة، وعلى ضبط حركة الحياة ضبطًا عادلاً، أن يكون بيانًا ربانيًا خالصًا لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية، وبذلك يتضح الفرق بين دين صحيح ودين غير صحيح . . . !! وتتجلى قيمة الإيمان الكامل فى حياة الإنسان، ذلك المخلوق المكرم الذى قال ربنا ـ تبارك وتعالى- فى حقه:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا الإنسان المكرم جعله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ مخلوقًا ذا إرادة حرة، حتى يؤجر على كل خير يفعله، ويجازى على كل خطأ يقترفه، وقد هيأه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذلك تهيئة كاملة بالروح والنفس، والعاطفة والعقل، وبمختلف الحواس، وجعل حرية الاختيار عنده من مناطات التكريم، ووسائل التقييم لعمله، فكلما التزم الإنسان بالمنهج الذى وضعه الله ـ تعالى ـ له واستقام عليه، وصل إلى درجات من الكمال الإنسانى الذى أفسح الله ـ سبحانه وتعالى ـ المجال للإنسان فيه. وليس أدل على ذلك من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى الحديث القدسى: «ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فأكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، وقلبه الذى يعقل به، فإذا دعانى أجبته، وإذا سألنى أعطيته، وإذا استنصرنى نصرته، وأحب ما تعبدنى عبدى به النصح لى». (رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة)[1].

ويدل على ذلك أيضًا وقوف جبريل ﷺ عند مقام لم يتجاوزه فى رحلة المعراج، وتجاوزه المصطفى ﷺ، لقول جبريل له: «تقدم أنت فإنى لو تقدمت

---

(١) الطبرانى فى «المعجم الكبير» (١٢/ ١٤٦).

لاحترقت، ولو تقدمت أنت لاخترقت»، وهو مقام لم ينله أحد من الخلق من قبل ولا من بعد.

وهذا التكريم الذى أعطاه الله - تعالى - للإنسان كلما ارتقى بملكاته البشرية فى معراج الله، يمكن أن ينقلب إلى ضده تمامًا إذا انتكس الإنسان بفطرته، وانحط باختياره وإرادته عن مقامات ذلك التكريم فيهوى بنفسه إلى أسفل سافلين، فى الدنيا بشقائه فيها، وفى الآخرة بإلقائه فى الدرك الأسفل من النار، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين: ٤ - ٦].

ومن الدلالات المستوحاة من هذه الآيات الكريمة أن الله - تعالى - قد خلق الإنسان فى أحسن هيئة، وأنسب قامة، وأعدل صورة، وزوده بالعقل والجوارح، والأحاسيس، والمشاعر، وبالقدرة على اكتساب المعارف والمهارات، كما زوده بالإرادة الحرة، وبغير ذلك من الصفات والمواهب والقدرات التى تعينه على القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وتنمو معه هذه الملكات والمواهب حتى تصل إلى أوجها فى مرحلة الشباب، ثم تبدأ فى التناقص التدريجى والذبول مع الكبر فى السن حتى إذا وصل الإنسان إلى أرذل العمر أدركه الضعف بعد القوة، والعجز بعد القدرة، فإذا كان من الكفار أو المشركين أو العصاة الضالين أوكله الله - تعالى - إلى ضعفه وعجزه البشريين، وإذا كان من المؤمنين الصالحين فإن الله - سبحانه وتعالى - يكرم شيبته، ويجبر تقصيره، ويوفيه حقه كاملا غير منقوص حتى لو لم تمكنه قدراته من أداء عباداته كما كان يؤديها فى شبابه وقوته، وفى ذلك يروى عن ابن عباس رضى الله عنه قوله: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجزه عن العمل كتب له ما كان يعمل**». كذلك روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قوله: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**» (١).

(١) [صحيح] البخارى (٢٩٩٦).

فسواء كان المقصود بالارتداد إلى أسفل السافلين ـ فى الآية الكريمة ـ هو الارتداد فى الدنيا إلى أرذل العمر وما فيه من ضعف وعجز بعد قوة وقدرة، يتدارك فيه الله تعالى ـ برحمته ـ كل مؤمن صالح، ويدع ـ بعدله ـ كل كافر ومشرك لقدره، أو كان المقصود الارتداد إلى الآخرة وأهوالها وعذابها حيث ينجى الله برحمته المؤمنين الصالحين ويوفيهم أجورهم كاملة غير منقوصة، ويلقى بالكافرين والمشركين والمنافقين الضالين وبعتاة الظالمين المتجبرين المجرمين إلى أسفل دركات النار، فالآيات الكريمة تتسع للمعنيين معًا، ولما هو فوقهما من معان فى نفس السياق، والله ـ تعالى ـ أعلى وأعلم.

والقضية الثانية: التى يدور حولها محور سورة التين هى **قضية الدين** الذى أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل تجاوز عددهم الثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، اختارهم الله ـ تعالى ـ من بين مائة وعشرين ألف نبى، بعثوا كلهم بالإسلام الحنيف، ودعوا إلى توحيد الله الخالق ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ وإن اختلفت تفاصيل التشريعات من عصر إلى آخر، إلا أن دعوتهم جميعًا لأممهم كانت بلا أدنى خلاف هى:

﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٥، ٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤].

وقد أكمل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ رسالته إلى خلقه، وأتمها وختمها ببعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم، سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبدالله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ؛ ولكونها الرسالة الخاتمة فقد أنزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ البشرى بها فى الرسالات السابقة على نزولها، وتعهد بحفظها بنفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ، فحفظت حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة، على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنا وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظها وإلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وهذا الحفظ بذاته هو ضرب من الإعجاز الذى لم تتمتع به الكتب السماوية الأخرى، وقد ترك حفظها لأقوامها فضيعوها بالكامل، وعرضوا ما بقى منها من ذكريات نقلت شفاها لقدر من التحريف الذى أخرجها عن إطارها الربانى،

وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها، وليس أدل على ذلك من بحار الدم والخراب والدمار التى تغرق أرض فلسطين اليوم باسم كل من أنبياء موسى ويعقوب وإسحاق وإبراهيم - عليهم من الله السلام - وهم من ذلك براء، والتى تغرق أرض كل من العراق، وأفغانستان، وكشمير، والشيشان، وأراكان، وجنوب الفيليبين، والبلقان، والصومال، وجنوب السودان باسم عيسى ابن مريم ﷺ، وهو برىء مما يرتكبون من جرائم وآثام وتعديات على أبسط حقوق الإنسان. . .، وهؤلاء الطغاة الضالون أغرقوا كثيراً من أهل الأرض المستضعفين فى بحار من الدماء والأشلاء، والخراب والدمار باسم الدين، والدين منهم براء. . . !! ولذلك جاء الخطاب فى ختام سورة التين موجهًا إلى كل كافر ومشرك وظالم بصيغة من صيغ الاستفهام الاستنكارى التوبيخى التقريعى يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [التين: ٧، ٨].

أى: فأى شىء يضطرك أيها الكافر أو المشرك إلى الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به، بعد ما تبينت لك شواهد إبداعه فى الخلق، وهى دالة دلالة قاطعة على قدرته على البعث بعد الموت، وعلى الحساب والجزاء فى الآخرة، وهذه من الحقائق التى نزلت بها كل رسالات السماء، وأكدتها الرسالة الخاتمة المحفوظة بحفظ الله، مما يضع الكفار والمشركين والطغاة المتجبرين فى مصاف المكذبين بالدين، المنكرين لحقيقة أن الله - تعالى - هو أحكم الحاكمين، الذى أتقن كل شىء خلقه، وأحكم قضاء كل أمر أقره بين الخلق بالحق والعدل.

والاستفهام فى ختام هذه السورة المباركة هو من نوع الاستفهام الاستنكارى، التوبيخى، التقريعى، والتقريرى لما جاء بعد النفى، ولذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**فإذا قرأ أحدكم (والتين والزيتون) فأتى آخرها: (أليس الله بأحكم الحاكمين) فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين**»[(١)] وروى مالك عن البراء بن عازب قال: كان النبى ﷺ يقرأ فى سفره فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتا أو قراءة منه.

وسورة التين هى السورة القرآنية الوحيدة التى سميت باسم ثمرة من ثمار

(١) مسند أحمد (٧٠٨٦)، سنن أبى داود (٧٥٣)، سنن الترمذى (٣٢٧٠).

الفاكهة، ومن الثمار النباتية على الإطلاق، وقد ذكر فيها التين مرة واحدة، وهى المرة الوحيدة التى ذكرت فيها هذه الثمرة فى القرآن الكريم كله، بينما جاء ذكر كل من الزيتون وزيته فى ست آيات قرآنية أخرى، وبذلك يكون التين قد ذكر فى القرآن الكريم مرة واحدة، بينما ذكر الزيتون وزيته سبع مرات.

وتبدأ السورة بقسم من الله ـ تعالى ـ بكل من التين والزيتون، وربنا غنى عن القسم لعباده، ولكن المقصود من القسم هو التنبيه إلى الأهمية الكبرى لهاتين الثمرتين المباركتين وإلى بركة منابتهما الأصلية، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: هو تينكم الذى تأكلون، وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت. ولكن نظرًا للعطف على هذا القسم بقسم آخر، بمكانين مباركين هما طور سينين، والبلد الأمين فى قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [التين: ١ ـ ٣].

لجأ بعض المفسرين إلى استنتاج الدلالة بالتين والزيتون على منابتهما الأصلية من الأرض. فطور سينين هو الجبل الذى نودى موسى ﷺ من جانبه فى شبه جزيرة سيناء (أو سينا) ومعناها فى اللغة: المباركة الحسنة، والجبل معروف اليوم باسم «طور سيناء» أو جبل موسى (أو جبل المناجاة). والبلد الأمين هو مكة المكرمة، وحرمها الآمن، وبها الكعبة المشرفة، أول بيت وضع للناس فى الأرض، ، وعلاقة هذين المكانين المباركين بوحى السماء لاينكرها إلا جاحد للحق. ومن هنا كان الاستنتاج بأن القسم بهاتين الثمرتين قد يتضمن من أحد جوانبه الإشارة إلى كرامة منابتهما الأصلية من الأرض، وذلك من مثل كل من بيت المقدس وبجواره طور زيتا، وبه المسجد الأقصى المبارك ـ الذى ندعو الله تعالى أن يطهره من دنس الصهاينة المجرمين، وأن يحرره ويحرر أرض فلسطين كلها من احتلالهم الجائر البغيض، ويحرر جميع أراضى المسلمين المحتلة والمغصوبة من ربقة المحتلين والغاصبين من الكفار والمشركين، أعداء الله وأعداء الدين فى أقرب وقت بإذن رب العالمين اللهم آمين آمين آمين يارب العالمين.

ومن أشهر منابت كل من التين والزيتون ـ بأنواعهما المتميزة ـ بلاد الشام، وجنوب شرقى تركيا، والأولى بها طور تينا بجوار دمشق، وهى أرض المحشر، والثانية بها مرسى سفينة نوح ﷺ وبقايا مسجده على جبل الجودى.

وعلى الجانب الآخر فإن كلاً من طور سيناء، وبيت المقدس، ومكة المكرمة قد بعث الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه نبيّا من أنبيائه ورسولاً من أولى العزم من رسله، وطور سينين كلم الله ـ جلت قدرته ـ عنده عبده ونبيه ورسوله موسى بن عمران ﷺ، وبيت المقدس بعث الله ـ سبحانه و تعالى ـ فيه عبده ونبيه ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ، ومكة المكرمة أهبط الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها أبانا آدم ﷺ ثم زارها معظم أنبياء الله ورسله، ومدفون بها عدد كبير منهم، ثم بعث الله ـ تعالى ـ فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ليلتقى فيها أول النبوة بخاتمها. تأكيدا على وحدة رسالة السماء وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى اكتمال الوحى السماوى فى رسالة النبى والرسول الخاتم ﷺ.

وإن كانت الصياغة القرآنية فى مطلع سورة التين واضحة الدلالة على الثمرتين اللتين تؤكلان باسم التين والزيتون، إلا أن ذلك لاينفى الإشارة إلى منابتهما من الأرض حتى يرتبط السياق بالقسم التالى بمكانين من أشرف أماكن الأرض، هما مكة المكرمة أشرفها على الإطلاق، وطور سيناء حيث كلم الله ـ تعالى ـ عبده موسى ﷺ.

وبعد القسم بكل من التين، والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين، يأتى جواب القسم بالأمر المقسم عليه وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

ثم ختمت السورة الكريمة باستفهام استنكارى، توبيخى، تقريعى لكل كافر ومشرك وظالم وضال عن الحق يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [التين: ٧، ٨].

ولا نملك هنا إلا أن نقول: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. كما علمنا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

من أسس العقيدة فى سورة التين

(١) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان فى أحسن تقويم، ثم يرد الكفار

والمشركين والظلمة الطاغين المتجبرين على الخلق، والعصاة الضالين المضلين المفسدين فى الأرض إلى أسفل سافلين، فى الدنيا بضعفهم وهزالهم وأمراضهم عند الكبر خاصة عندما يردون إلى أرذل العمر، وفى الآخرة عندما يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا؛ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيكرمهم الله - تعالى - فى الدنيا برعايته وعنايته وبإدخالهم برحمته فى رحمته، ويكرمهم فى الآخرة بإدخالهم فى نعيم جناته ورضوانه، وبإعطائهم أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا ممنونة.

(٢) اليقين بأن الدين الوحيد الذى يرتضيه ربنا - تبارك وتعالى - من عباده هو الإسلام الذى أنزله على فترة من الرسل، ثم أكمله وأتمه وحفظه بنفس لغة وحيه - اللغة العربية - فى رسالته الخاتمة التى بعث بها النبى الخاتم والرسول الخاتم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم -، ومن هنا فإن الدين عند الله الإسلام، ومن هنا أيضا فإن الله - تعالى - لا يرتضى من عباده دينًا سواه.

(٣) التسليم بأن الإيمان الصادق يستتبع العمل الصالح.

(٤) الإيمان بأن الذى يكذب بالدين الخاتم مطرود من رحمة رب العالمين، محكوم عليه بالشقاء فى الدنيا، وبالعذاب فى الآخرة، وإن كثر ماله وجاهه وسلطانه على الأرض.

(٥) التصديق بأن الله - تعالى - هو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين

من الإشارات الكونية فى سورة التين

(١) القسم بكل من التين والزيتون إشارة إلى ما فيهما من قيمة غذائية وفوائد صحية كبيرة للإنسان. وإشارة كذلك إلى بركة منابتهما الأصلية وهى من الأماكن المقدسة، منذ خلق الله السماوات والأرض.

(٢) القسم بطور سينين وهو الجبل المكسو بالخضرة الذى كلم الله - سبحانه وتعالى - من جانبه، عبده ونبيه ورسوله موسى بن عمران ﷺ، وهو بالقطع مكان مبارك.

(٣) القسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة، وحرمها الآمن، وبها الكعبة المشرفة، أول بيت وضع للناس، والعلوم المكتسبة تثبت شرف المكان وتميزه على جميع بقاع الأرض وهى حقيقة يدركها كل ذى بصيرة.

(٤) تأكيد حقيقة خلق الإنسان فى أحسن تقويم.

(٥) الإشارة إلى إمكانية ارتداد الإنسان إلى أسفل سافلين فى الدنيا والآخرة، وهو أشرف مخلوقات الله إذا كان مؤمنًا صالحًا، وأحقر هذه المخلوقات وأبغضها إلى الله إذا كان كافرًا أو مشركًا أو ظالمًا متجبرًا، أوفاسقًا فاجرًا، والعلوم السلوكية تثبت هذا الارتداد الدنيوى إلى أسفل سافلين عند كثير من البشر فى القديم والحديث خاصة فى أيام الفتن التى يعيشها إنسان العصر الحالى.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على القسم الذى جاء بالآيات الثلاث الأولى من هذه السورة المباركة، ولكن قبل البدء فى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآيات الثلاث.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾ [التين: ١ ـ ٣].

* ذكر الطبرى ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** ﴾ قيل هو التين الذى يؤكل، والزيتون الذى يعصر، أقسم الله بهما، وجاء فيه اختلاف ﴿ **وَطُورِ سِينِينَ** ﴾ جبل معروف، قيل هو جبل موسى ﷺ ومسجده ﴿ **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾ الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله أو يغزوهم، عنى به مكة المكرمة».

* وجاء فى مختصر تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما نصه: «اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة فقيل: المراد بالتين دمشق، وقيل: الجبل الذى عندها، وقال القرطبى: هو مسجد أصحاب الكهف، وروى عن ابن عباس: أنه مسجد نوح ﷺ الذى على الجودى، وقال مجاهد: هو تينكم هذا، ﴿ **وَالزَّيْتُونِ** ﴾ قال قتادة:

هو مسجد بيت المقدس، وقال مجاهد وعكرمة : هو هذا الزيتون الذى تعصرون، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعنى مكة، قال ابن عباس ومجاهد، وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة، بعث الله فى كل واحد منها نبيًا مرسلاً من أولى العزم، أصحاب الشرائع الكبار . (فالأول) محلة التين والزيتون وهى (بيت المقدس) التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم ﷺ، و(الثانى) طور سينين وهو (طور سيناء) الذى كلم الله عليه موسى بن عمران، و(الثالث) مكة المكرمة وهى ﴿الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ الذى من دخله كان آمنا، وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ . . »

* وجاء فى كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان، والمنتخب، وصفوة التفاسير، كلام مشابه مع التركيز على رأى دون الآخر ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا .

من الدلالات العلمية للآيات القرآنية الكريمة فى مطلع سورة التين

أولاً: فى القسم بالتين

يبدو - والله تعالى أعلم - أن القسم بالتين جاء لتنبيهنا إلى ما فى هذه الثمرة المباركة من إعجاز فى خلقها، ومن منافع جمة فى تناولها كغذاء .

وثمرة التين هى ثمرة مركبة غير حقيقية، تتكون نتيجة لنمو نورة مخروطية الشكل تحوى بداخلها الأزهار المؤنثة التى تبطن جدار النورة من الداخل، والأزهار المذكرة التى تنتشر حول الفتحة الخارجية للنورة، وهى فتحة ضيقة فى أعلى النورة، وتنضج الأزهار المؤنثة عادة قبل نضج الأزهار المذكرة، ولذلك يسخر الخالق - سبحانه وتعالى - حشرة خاصة تعرف باسم «ذات البلعوم المتفجر» **(Blastophaga)** تقوم بتلقيح نورات التين من خلال منفعة متبادلة بينهما، تقوم فيها نورات شجرة التين بتهيئة المكان الدافىء الأمين للحشرة تضع فيه بيضها حتى يفقس، ثم تغذى صغارها حتى يكتمل نموها، وعند خروجها من النورة يحتك جسمها بالأزهار المذكرة فيتعفر بحبوب اللقاح التى تحملها إلى الأزهار المؤنثة فى شجرة أخرى أو فى نفس الشجرة، فتتم بذلك عملية الإخصاب اللازمة لإثمار شجرة التين .

ويتكون على شجرة التين سنويًا ثلاثة أجيال من النورات، الجيل الأول منها يحمل أزهاراً مذكرة وأخرى حاضنة للحشرات، وتحمل نورات الجيل الثانى أزهاراً مؤنثة فقط تلقحها الحشرات الخارجة من نورات الجيل الأول فتخصبها وبذلك تمثل المحصول الرئيسى لشجرة التين، أما نورات الجيل الثالث فتحوى أزهاراً حاضنة للحشرة المتعايشة معها فقط، وفيها تقضى الحشرة فصل الشتاء.

فمن الذى وضع هذا النظام الرتيب لإثمار شجرة التين غير الله الخالق؟ ومن الذى دل تلك الحشرة على مسكنها فى نورة شجرة التين كى تخصبها بحركتها من نورة إلى أخرى غير الله الخالق؟ والعلاقة بين نورة التين وهذه الحشرة تعتبر من أعجب العلاقات المعروفة لنا بين النبات والحيوان.

من منافع ثمرة التين

تحتوى ثمرة التين على نسبة عالية من الكربوهيدرات تصل إلى ٥٣٪ من وزنها، أغلبها من السكريات الأحادية والمركبات النشوية، بالإضافة إلى نسبة صغيرة من البروتينات فى حدود ٣,٦٪، ونسب أقل من أملاح كل من البوتاسيوم، الكالسيوم، المغنيسيوم، الفوسفور، الحديد، النحاس، الزنك، الكبريت، الصوديوم، والكلور، كما تحتوى ثمرة التين على العديد من الفيتامينات، والإنزيمات، والأحماض، والمواد المطهرة والهلامية، بالإضافة إلى نسبة كبيرة من الألياف (تصل إلى ١٨,٥٪) ونسبة أكبر من الماء. وعلى ذلك فهى ثمرة غنية بمواد عديدة وبنسب منضبطة يحتاجها الإنسان فى غذائه.

ومن الإنزيمات الخاصة بالتين ما يعرف باسم إنزيم التين أو **إنزيم فيسين (Ficin)** ثبت أن له دوراً مهمًا فى عملية هضم الطعام. وقد تمكن اليابانيون من إثبات وجود مركب كيميائى من نوع الألدهيدات الأروماتية فى ثمرة التين يعرف باسم البنزالدهايد (**Benzaldehyde**)وتركيبه الكيميائى (C_6H_5CHO)، وقد تم عزله من ثمار التين، وثبت أن له قدرة على مقاومة مسببات الأمراض السرطانية.

كذلك اكتشفت مجموعة من المركبات النشوية التى تعرف باسم مجموعة «السور الينز» فى ثمرة التين، وثبت أنها تلعب دوراً فعالاً فى حماية الدم من أعداد من الفيروسات والبكتيريا، والطفيليات التى تتسبب فى كثير من الأمراض من مثل

فيروس الالتهاب الكبدى. كذلك ثبت أن للتين فوائد عديدة فى إدرار اللبن وفى علاج حالات البواسير، والإمساك المزمن، والنقرس، وأمراض الصدر، واضطراب الحيض، وحالات الصرع، وتقرحات الفم، والتهابات كل من اللثة واللوزتين والحلق، وفى علاج مرض البهاق، وفى إزالة الثآليل، وفى اندمال الجروح والتقرحات المختلفة، ولذلك روى أبو الدرداء - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة قلت التين؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم**[1]**، كلوا منه فإنه يقطع البواسير وينفع النقرس**»[2]. من هنا كان القسم بالتين فى القرآن الكريم وتسمية سورة من سوره باسم «سورة التين».

ثانيًا: فى القسم بالزيتون

جاء ذكر الزيتون وزيته فى سبعة مواضع مختلفة من كتاب الله، منها القسم به مع التين فى مطلع سورة التين. وشجرة الزيتون شجرة مباركة وكذلك ثمرتها. فهى شجرة معمرة قد تعيش لأكثر من ألفى سنة، وهى من أهم نباتات الزيوت، ويعتبر زيتها من أصح الزيوت النباتية، إن لم يكن أصحها على الإطلاق، وهو بالقطع أفضل من جميع الدهون الحيوانية، وذلك لاحتوائه على نسبة ضئيلة من الأحماض الدهنية، وأن ما به من دهون هى دهون غير مشبعة ولذلك لا تتسبب فيما تتسبب فيه بقية الزيوت من ارتفاع نسبة الدهون الضارة بالدم فيؤدى ذلك إلى تصلب الشرايين وضيقها وانسدادها، وإلى ارتفاع ضغط الدم، وإلى غير ذلك من الأمراض المتعلقة بالقلب والدورة الدموية.

وزيت الزيتون سائل أصفر اللون شفاف، غنى بالأحماض الزيتية (**Oleic acids**) يستخدم فى الطبخ، وفى الإضافة إلى السلطات، ويلعب دورًا مهمًا فى منع أكسدة الكوليسترول الذى يفرزه جسم الإنسان، وذلك لاحتوائه على «ڤيتامين هـ»، وعلى قدر من المركبات الكيميائية الأخرى تعرف باسم مركبات الفينولات العديدة (**Polyphenolic Compounds**) التى تمنع التأكسد الذاتى للزيت وتحافظ على ثباته، وبذلك يقى الجسم من أخطار فوق أكاسيد الشحوم (**Lipid Peroxides**)، وهى من

---

(١) بلا نوى.

(٢) الكمال فى «الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية» (٢/ ١٤١)، والذهبى فى «الطب النبوى» (٤٠).

المواد الضارة بجسم الإنسان . وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بانتظام يؤدى إلى خفض المستوى الكلى للكوليسترول فى الدم بصفة عامة ، وإلى خفض الأنواع الضارة منه بصفة خاصة .

وبالإضافة إلى استخداماته فى الطعام فإن زيت الزيتون يستخدم فى إنتاج العديد من الأدوية والدهانات الطبية ، وزيوت الشعر ، والصابون ، وبه كانت توقد المصابيح فى المنازل والمساجد قديمًا لصفاء اللهب الناتج عن اشتعاله .

وثمرة الزيتون القابلة للتخزين بالتمليح تعتبر إدامًا للطاعمين ، وصبغًا للآكلين ، بالإضافة إلى كونها فاتحة للشهية . وهى تحوى حسب نوعها ما بين ٥٠٪ إلى ٨٤٪ من وزنها زيتًا . ويتكون زيت الزيتون من عدد من المركبات الكيميائية الهامة منها مركبات الجليسرين والأحماض الدهنية والتى تعرف باسم الجليسريدات (**Glycerides**) ، ومن أوفر الأحماض الدهنية فى الزيتون وزيته ما يعرف باسم الحمض الزيتى أو حمض زيت الزيتون (**Oleic Acid**) بالإضافة إلى كميات قليلة من حمض زيت النخيل (**Palmatic Acid**) ، وحمض زيت الكتان (**Linolic Acid**) ، وحمض الشمع (**Stearic Acid**) ، والحمض الغامض (**Mystric Acid**) .

وبالإضافة إلى ذلك يحتوى الزيتون وزيته على نسبة متوسطة من البروتينات ، ونسب أقل من عناصر البوتاسيوم ، والكالسيوم ، والمغنيسيوم ، والفوسفور ، والحديد ، والنحاس والكبريت وغيرها ، مع نسبة من الألياف ، وتدخل هذه المكونات فى بناء حوالى الألف من المركبات الكيميائية النافعة لجسم الإنسان والضرورية لسلامته . لذلك كله ، ولغيره الكثير مما لا نعلم من أسرار الزيتون ، يروى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة**»[1] . وكذلك يروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «**نعم السواك الزيتون، من الشجرة المباركة، وهى سواكى وسواك الأنبياء من قبلى**»[2] . ومن هنا كان القسم القرآنى بالزيتون ، وكان ذكره وذكر زيته فى سبعة مواضع مختلفة من كتاب الله .

(١) الترمذى فى «سننه» (١٨٥١ و١٨٥٢) ، وابن ماجه فى «سننه» (٣٣٢٠) ، وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٩٧) .

(٢) العجلونى فى «كشف الخفاء» (١/ ٤٤١ و ٥٣٥) ، والهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠٠) .

والزيتون وزيته غنيان بالدهون والپروتينات، فقيران فى الكربوهيدرات (السكريات والنشويات)، بينما التين غنى بالسكريات والمركبات النشوية وفقير فى المواد الدهنية والپروتينية، ومن هنا كان التين والزيتون معًا يكملان حاجة الإنسان من المواد الغذائية، ومن هنا أيضا كان القسم بهما معا فى مطلع سورة التين، وهى لفتة علمية معجزة فى كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين.

ثالثًا: القسم بطور سينين

وهو طور سيناء، أو جبل موسى، أو جبل المناجاة الذى أنزلت فيه التوراة على موسى عليه السلام، وقد ذكره ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى اثنتى عشرة آية من آيات القرآن الكريم (البقرة: ٦٣، ٩٣، النساء: ١٥٤، الأعراف: ١٤٣، ١٧١، مريم: ٥٢، طه: ٨٠، المؤمنون: ٢٠، القصص: ٢٩، ٤٦، الطور: ١، التين: ٢)، وسميت باسمه إحدى سوره (سورة الطور)، وهو بالقطع مكان مبارك، جدير بالقسم به، ويبقى لعلماء الأرض دراسته لإثبات ما به من معجزات حسية باقية عن بركاته، وعن عملية دكه، ورفعه ونتقه فوق الخثالات العاصية من بنى إسرائيل كما جاء فى أكثر من آية من آيات القرآن الحكيم.

رابعًا: القسم بالبلد الأمين

وهو مكة المكرمة، وبها الكعبة المشرفة، أول بيت وضع للناس، وقد روى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**كانت الكعبة خشعة**[1] **على الماء، فدحيت منها الأرض**»[2] مما يفيد بأن الأرض تحت الكعبة المشرفة هى أول يابسة ظهرت على وجه ماء المحيط الغامر الذى بدأت به الأرض، ثم نمت اليابسة من حول هذه البقعة المباركة لتكون قارة واحدة هى القارة الأم المعروفة باسم «پانجيا» (**Pangaea**)، والتى تفتتت إلى القارات السبع الحالية. وكانت تلك القارات السبع أقرب إلى بعضها البعض ثم أخذت فى الانزياح متباعدة عن بعضها البعض أو متصادمة مع بعضها البعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية. وقد ثبت علميًا توسط مكة المكرمة

(١) خُشْعة: أكمة لاطئة بالأرض. وقيل: هو ما غلبت عليه السهولة، أى: ليس بحجر ولا طين.
(٢) أورده ابن الأثير فى «النهاية فى غريب الحديث» ٢/ ٣٣.

لليابسة فى كل مراحل نمو تلك اليابسة، بمعنى أننا إذا رسمنا دائرة مركزها مكة المكرمة فإنها تحيط باليابسة تمامًا، ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

والآيات القرآنية الكريمة التى تقابل الأرض بالسماء ـ على ضآلة حجم الأرض، وضخامة أبعاد السماء ـ تشير إلى مركزية الأرض من الكون، وكذلك الآيات التى تتحدث عن البينية الفاصلة للسماوات عن الأرض وتلك التى توحد أقطار السماوات والأرض، كل ذلك يشير إلى مركزية الأرض من السماوات.

وإذا كانت الأرض فى مركز الكون، والكعبة المشرفة فى مركز الأرض الأولى أو اليابسة، من دونها ست أرضين، ومن حولها سبع سماوات فإن الكعبة المشرفة تصبح فى مركز / مركز الكون، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «**إن الحرم حرم مناء**[1] **بين السماوات السبع والأرضين السبع**»[2].

وأكد ذلك بقوله ﷺ: «**يا معشر قريش،يا أهل مكة إنكم بحذاء وسط السماء**» وبسؤاله الشريف لصحابته الكرام: «**أتدرون ما البيت المعمور؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال عليه الصلاة والسلام: **هو بيت فى السماء السابعة بحيال الكعبة تمامًا حتى لو خر لخر فوقها،يدخله كل يوم سبعون ألف ملك فإذا خرج آخرهم لا يعودون**»[3].

هذه الكرامات كلها جعلت من مكة المكرمة قبلة للمسلمين، ومحجًا ومعتمرًا لهم، وجعلت الصلاة فيها بمائة ألف صلاة، وجعلتها مهوى للأنبياء والمرسلين كما ذكر المصطفى ﷺ فقال: «**كان النبى من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة فتعبد فيها النبى ومن معه حتى يموت،فمات بها نوح، وهود، وصالح، وشعيب وقبورهم بين زمزم والحجر**» (الأزرقى ـ أخبار مكة).

---

(١) مناء: حذاء ومقابل.

(٢) أورده ابن الأثير فى «النهاية» (٤/ ٣١٣).

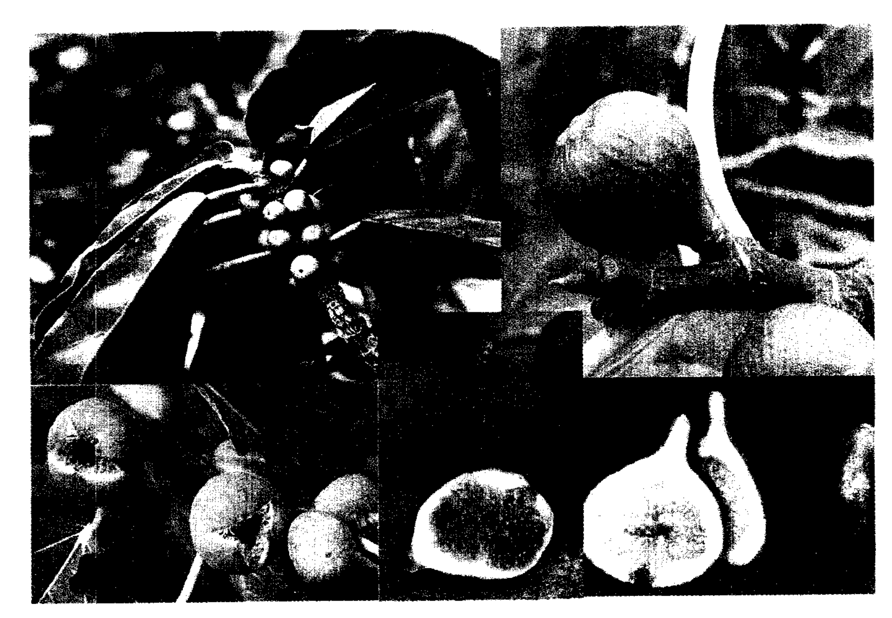
(٣) الطبرى فى «تفسيره» (٢٧/ ١١)، والقرطبى (٧/ ٤٠٤)، والدر المنثور (٦/ ١١٨).

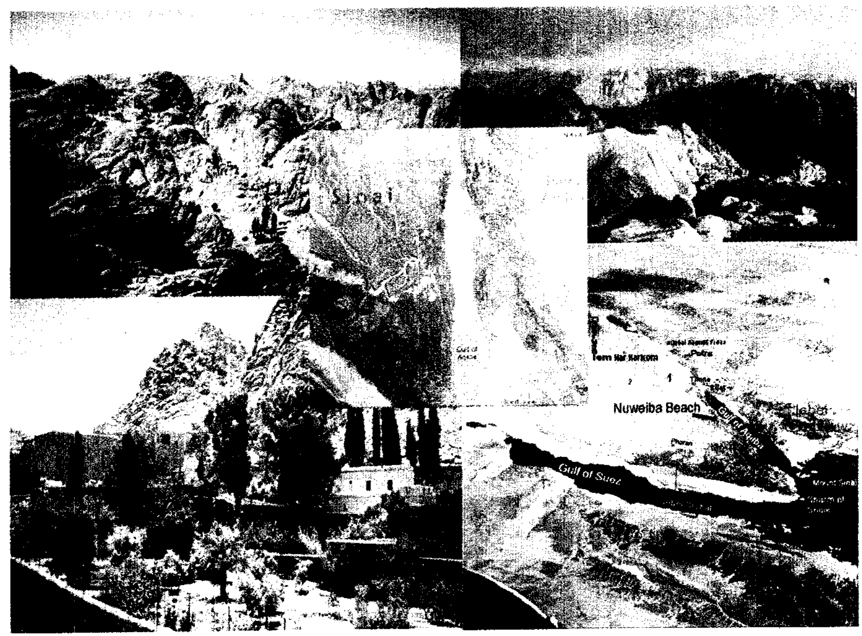
وفى مكة المكرمة قبر كل من نبى الله إسماعيل ﷺ وأمه السيدة هاجر رضى الله عنها وهما مدفونان فى حجر إسماعيل .

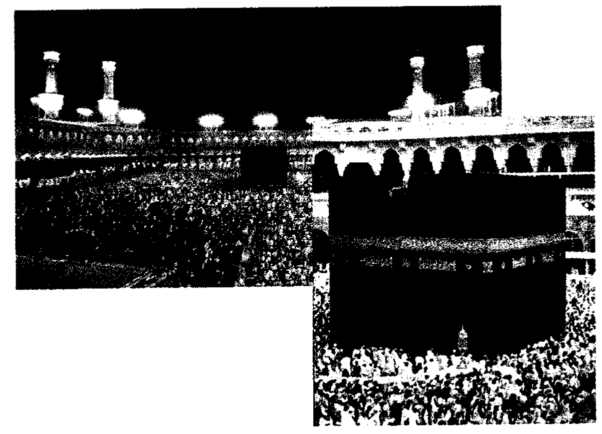
واختار الله ـ تعالى ـ مكة المكرمة مهبطًا لآدم ـ عليه السلام ـ وليولد بها ، ويبعث فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، فيلتقى فيها أول النبويات وختامها ، ولذلك أقسم بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى كل من سورة التين ، وسورة البلد التى سماها باسمها ، وأطلق عليها وصف أم القرى أى أصل اليابسة ، وأم الأرض كلها ، ومن هنا كانت جدارتها للقسم بها فى سورة البلد ، وبالاسم المطلق وبوصف البلد الأمين فى «سورة التين» .

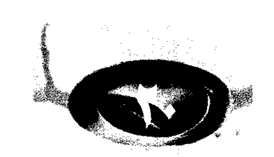
هذه الحقائق العلمية عن كل من التين والزيتون ، وعن كرامة كل من مكة المكرمة ، البلد الأمين ، وجبل الطور الذى ناجى الله ـ تعالى ـ عبده ونبيه موسى بن عمران ﷺ من جانبه الأيمن لم تكن معروفة لأهل الجزيرة العربية ، ولا لأحد من الخلق فى زمن الوحى ، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك ، والقسم بهذا الكم من الحقائق العلمية والتاريخية فى سورة التين لمما يقطع بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون صناعة بشرية ، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه ، ومما يجزم بنبوة النبى الخاتم والرسول الخاتم الذى تلقاه ، ويؤكد بأنه ﷺ كان موصولاً بالوحى ، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض ، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *




Sinai
Nuweiba Beach
Gulf of Aqaba
Gulf of Suez



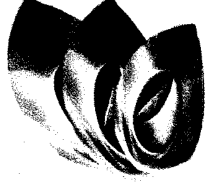


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿..... وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ .....﴾

(الفتح : ٢٩)





هذا النص القرآنى المعجز جاء فى ختام سورة الفتح وهى سورة مدنية، وآياتها تسع وعشرون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر ذلك الفتح المبين الذى يسره الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ ألا وهو **صلح الحديبية** الذى رأى فيه غالبية المسلمين تنازلاً لكفار مكة حتى قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه وأرضاه - لرسول الله ﷺ : . . . . ألست برسول الله؟ قال: **بلى !!** قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: **بلى !!** قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: **بلى !!** فقال عمر: فعلامَ نعطى الدنية فى ديننا؟ فرد رسول الله ﷺ عليه قائلا: «**أنا عبدالله ورسوله،لن أخالف أمره، ولن يضيعنى**».

وحينما نزلت هذه السورة المباركة بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾. . قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أى رسول الله أو فتح هو؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**إى، والذى نفس محمد بيده إنه لفتح**».

وذلك لأن صلح الحديبية كان مناسبة توفر بها للمسلمين الاجتماع بعدد كبير من القبائل العربية، ودعوتهم إلى الإسلام، وتبيان فضائل هذا الدين السماوى الخاتم القائم على التوحيد الخالص لله الخالق - بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد -، وتنزيهه - سبحانه وتعالى - عن كل وصف لا يليق بجلاله، وعبادته بما أمر، وطاعته فى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، كما تهيأ للمسلمين بهذا الصلح فرصة لكشف تعصب مشركى قريش انطلاقًا من حميتهم الجاهلية، فى صد رسول الله ﷺ وجميع من أسلم معه عن المسجد الحرام على مدى ست سنوات متواصلة من تاريخ هجرته الشريفة إلى المدينة المنورة وحتى يوم الحديبية، وتحريم الدخول إلى مكة المكرمة عليهم، تعنتًا، واستفزازًا، ومخالفة للتقاليد المتبعة فى زمانهم، حتى فى

الأشهر الحرم التى ما انفك العرب عن تعظيمها فى أزمنة جاهليتهم وشركهم بالله. وهنا اتضح لكل أهل الجزيرة العربية سماحة الإسلام، ونبل أتباعه، وتعنت الكفر وأهله فى جاهلية عمياء.

وفى السنة السادسة من الهجرة رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم أنه يدخل الكعبة المشرفة ومعه جمع من المسلمين محلقين رءوسهم ومقصرين، لا يخافون. . ، ورؤيا الأنبياء حق، فخرج فى شهر ذى القعدة من نفس السنة معتمرا، لا يريد قتالا مع المشركين، فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، واستنفر من حوله من أهل البادية ليخرجوا معه حتى وصل إلى موقع يعرف باسم ثنية المرار فبركت فيه ناقته ﷺ فقال الناس: خلأت الناقة - أى حرنت - فقال - عليه الصلاة والسلام -: «**ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**». وفى رواية للبخارى جاء قوله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها**»[1]، ثم واصل المصطفى ﷺ ومن معه المسير فى طريقهم حتى وصلوا إلى الحديبية، ولكن قريشا أبت السماح لهم بدخول مكة عليهم، فبعث إليهم رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - عثمان بن عفان - رضى الله تبارك وتعالى عنه وأرضاه - برسالة منه أنه لا يريد قتالاً ولكن يريد أداء العمرة، فاعتقلته قريش بعد أن بلغ رسالة الرسول الكريم، وبعد أن قال له زعماء قريش: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فرد عليهم قائلاً: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، وشاع أن عثمان بن عفان قد قتل، فقال المصطفى ﷺ: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»[2]، ثم دعا الناس إلى البيعة تحت الشجرة فكانت البيعة التى عرفت باسم **بيعة الرضوان**. ثم جاء ما يؤكد أن إشاعة مقتل عثمان بن عفان باطلة، واصطلح المسلمون والمشركون على وضع الحرب، واشترطوا شروطا لذلك فى وثيقة سميت باسم وثيقة صلح الحديبية، تنازل فيها رسول الله ﷺ عن عدد من حقوقه حقنا لدماء الناس، ويقينا منه أن الله - تعالى - سوف يجعل من وراء هذا الصلح فتحا قريبا، واشترط الصلح على أن من أراد

(١) [صحيح] البخارى (٢٧٣١)، وأبو داود (٢٦٧٥)، وأحمد (٤/ ٣٤٣).
(٢) [صحيح] البخارى (٢٧٣١، و٢٧٣٢).

الدخول فى حلف رسول الله ﷺ من قبائل العرب فهو آمن، ومن أراد الدخول فى حلف قريش فهو آمن، فدخلت قبيلة خزاعة فى حلف المصطفى عليه الصلاة والسلام، ودخلت قبيلة بكر فى حلف مشركى قريش. وقد احترم المسلمون نصوص صلح الحديبية، والتزموا بجميع بنوده، ولكن قريشا نقضته بنصرها قبيلة بكر الموالية لها على قبيلة خزاعة الموالية لرسول الله ﷺ مما دعاه ﷺ إلى اتخاذ قراره التاريخى بفتح مكة المكرمة، فتحرك جيش المسلمين فى حدود الثامن إلى العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة من المدينة المنورة قاصدا مكة المكرمة، وقد بلغ عدد جنوده عشرة آلاف مقاتل، وأمر رسول الله ﷺ جنده ألا يقاتلوا أو يسفكوا دما إلا إذا أكرهوا على ذلك إكراها، وذلك توقيراً لحرمة مكة المكرمة. ودخل الرسول الخاتم مكة المكرمة ومعه لواء أبيض، وعلى رأسه الشريف عمامة سوداء، وهو راكب على ناقته القصواء، يقرأ سورة الفتح، خافض الرأس تواضعا لله تعالى وشكرا له سبحانه أن فتح الله عليه أم القرى، مهبط الوحى، وأرض البيت الحرام ليدخلها والمسلمون معه آمنين مطمئنين، لا يخافون، تماما كما جاء فى رؤياه ﷺ، فطهروا البيت من الأصنام، وطافوا به، والرسول ﷺ يردد قوله الشريف: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له،صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده**»[1] ثم تلا الآية الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكانت سورة الفتح قد نزلت فى السنة السادسة من الهجرة، عقب صلح الحديبية مباشرة، ورسول الله ﷺ مع صحابته الكرام عائدا من الحديبية إلى المدينة المنورة، ولذلك تناولت هذه السورة الكريمة تفاصيل هذا الصلح بكل ملابساته. ويروى عن رسول الله ﷺ قوله صبيحة نزول هذه السورة المباركة: «**نزل علىَّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾**» رواه كل من البخارى والنسائى والترمذى[2].

(١) مسلم (٤٩٠٣)، البخارى (٣٨٠٥).
(٢) [صحيح] البخارى (٤٨٣٣)، والترمذى (٣٢٦٢).

عرض موجز لسورة الفتح

بدأت سورة الفتح بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مطمئنة نفسه الشريفة على صدق ما ألهمه ربه - تبارك وتعالى - وعلى حتمية تحقيقه فى أقرب وقت، وإن رأى جميع الحضور تقريبًا ضخامة ما قدموا من تنازلات لمشركى قريش، مع استفزازاتهم العديدة للمسلمين، ولكن اليقين الذى ملأ قلب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بحتمية تحقيق وعد ربه جعله لا يستفز، برغم كل التجاوزات التى اقترفها مشركو قريش، وكل الاشتراطات التى اشترطوها انطلاقًا من استكبارهم فى الأرض، وحميتهم الجاهلية، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فى مطلع سورة الفتح :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح : ١ - ٣].

ثم تستمر الآيات فى تأكيد حقيقة أن الله - تعالى - هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا على إيمانهم، ويبشرهم بالمغفرة والثواب، وبالعون بجنود من عنده، وأن لله جنود السماوات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وأنه - تعالى - هو العليم الحكيم، وأنه هو العزيز الحليم. وبعد ذلك تتحدث الآيات عن جزاء كل من المؤمنين والمؤمنات، وعما أعد الله - سبحانه - من عذاب وعقاب لكل من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين يعبدون مع الله إلها آخر، مؤكدة أن الله تعالى قد أنزل فى قلوب عباده المؤمنين الطمأنينة إلى الحق ليزدادوا إيمانا، وأن جزاء ذلك جنات النعيم، بعد التكفير عن سيئاتهم، بينما جزاء النفاق والشرك وسوء الظن بالله - سبحانه وتعالى - هو صب غضبه ولعناته عليهم، ثم عذاب جهنم وساءت مصيرًا.

ومرة أخرى تعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب إلى النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى - له :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفتح : ٨].

أى شاهدا على أمته وعلى الخلائق أجمعين، ومبشرا للمؤمنين، ونذيرا

للكافرين، والمشركين، والمنافقين، وتنقل الآيات الخطاب مباشرة إلى المؤمنين بقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفتح : ٩].

ويرجع الخطاب مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ مشيدا ببيعة الرضوان، ومبشرا الموفين بها بعظيم الأجر من الله، ومحذرا من نقضها؛ لأن الآيات تعتبرها بيعة لله تعالى الذى يقول فيها عز من قائل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠].

وتنعى الآيات فى سورة الفتح بعد ذلك على المنافقين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، واعتذروا بأعذار كاذبة، ظنا منهم بأنه لن يكون من المنتصرين، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءوا يطلبون منه ﷺ الاستغفار لهم، ويرجون نصيبا من الغنائم التى حققها، والله خبير بما يعملون، وقد أعد نار جهنم للكافرين والمشركين والمنافقين الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفتح : ١٤].

وتخاطب الآيات القرآنية الكريمة فى سورة الفتح هؤلاء المخلفين بأنهم سيدعون إلى الجهاد فى سبيل الله مرة أخرى فإن تخلفوا فسوف يعذبهم الله عذابا أليما، وفى ذلك يوجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله العزيز :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

[الفتح : ١٦]

ثم تقـرر الآيات أنه لا حـرج على المعـذورين من أمـثـال كل من الأعـمى، والأعرج، والمريض إذا تخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله فتقول:

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧]

وبعد ذلك أثنت الآيات على المؤمنين من أهل بيعة الرضوان، مؤكدة أن الله - تعالى - قد رضى عنهم، وأنزل السكينة على قلوبهم، وتجلى عليهم بالذود عنهم، وتثبيته إياهم، وبشرياته لهم بفتح قريب لمكة المكرمة، وبالفىء عليهم بمغانم كثيرة يأخذونها لأنه هو العزيز الحكيم. ومن هذه المغانم كف أيدى الكافرين عنهم، وجعل ذلك آية لهم، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم والله - سبحانه وتعالى - على كل شىء قدير.

وتؤكد الآيات أن الكافرين لن يجدوا لهم وليًا ولا نصيرًا إذا قاتلوا المؤمنين، وهذه هى سنة من سنن الله تعالى التى أجراها على الأمم من قبل، وقرر تحقيقها إلى قيام الساعة، وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير أبدا إلا بأمره. وقد تحققت بشريات الله للمؤمنين فى سورة الفتح بدخولهم مكة المكرمة دون قتال، وبسيادة الإسلام للجزيرة العربية كلها بعد ذلك، وهيمنة هذا الدين الخاتم على الدين كله بأمر الله وتدبيره، وهو تكريم من الله تعالى لرسوله الخاتم ﷺ، وللذين أسلموا معه واتبعوه على صراط مستقيم، وهو سبحانه البصير بأعمال العباد، المطلع على قلوبهم، والعارف بنواياهم. وكان فتح مكة فى نفس الوقت انتقامًا من مشركى قريش الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام يوم الحديبية، أى قبل ذلك بعامين اثنين، وهنا ينطق التنزيل بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥ - ٢٦].

والآيات تتحدث عن حمية الجاهلية التى دفعت كفار ومشركى قريش إلى منع رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين من دخول مكة المكرمة لأداء العمرة، وتصف كيف غضب المؤمنون لذلك وثارت ثائرتهم لولا أن الله تعالى قد أنزل سكينته على رسوله ﷺ وعلى الذين آمنوا معه، وألزمهم كلمة التقوى. وقد صدق الله رؤيا رسوله ﷺ فقال عز من قائل:

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧]

وتختتم سورة الفتح بالتأكيد على نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والتى أنكرها كثير من الكفار والمشركين والمنافقين عبر التاريخ، وسوف يظل الضالون من البشر ينكرونها إلى يوم الدين، ولكن يؤكدها الله ـ تعالى ـ بشهادة منه ـ سبحانه ـ وبقوله وهو أحكم القائلين:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

ويؤكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ شهادته الإلهية بأنه ـ سبحانه ـ قد أنزل صفة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وصفة الذين آمنوا معه فيما أنزل من كتب ـ ومنها كلٌّ من التوراة والإنجيل ـ فقال عز من قائل:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩]

من الإشارات الكونية فى سورة الفتح

يدور المحور الرئيسى لسورة الفتح حول صلح الحديبية بتفاصيله، وملابساته، والدروس المستفادة منه التى يجب على المسلمين فى كل عصر وجيل أن يتعلموها، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء فى هذه السورة المباركة عدد من حقائق الوجود ومن الإشارات الكونية التى يمكن سردها فى النقاط التالية :

(١) من حقائق الوجود ـ أن لله جنود السماوات والأرض ـ وجاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة مرتين فى سورة الفتح : فى الآيتين الرابعة والسابعة، وأن من جنود السماوات والأرض الملائكة، والصالحون من الإنس والجن، والظواهر الكونية المختلفة، من مثل مختلف حركات كلّ من الأرض وأجرام السماء، ومنها الهزات الأرضية، والثورات البركانية، والعواصف والأعاصير الهوائية والبحرية، وغيرها. والرجم بالنيازك والشهب، وتبادل كلّ من الليل والنهار، وتعاقب الفصول، وحدوث الرعد والبرق، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وهطول الأمطار، وجريان الماء وخزنه.

وهذه الظواهر الطبيعية كلها من جند الله، وفهم العلماء لميكانيكية حدوثها لا يخرجها عن هذا الإطار أبدا، فالله تعالى هو الذى يسخرها عقابا للعاصين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

(٢) ومن الحقائق المطلقة أن لله ملك السماوات والأرض، وقد جاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة فى الآية الرابعة عشرة من سورة الفتح، وفى عشرات الآيات القرآنية الأخرى، وذلك لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور هذا الكون بغير خالق، له من طلاقة القدرة وكمال العلم والحكمة ما مكنه من إبداع هذا الكون على غير مثال، فالكون المادى لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة؛ لأنه محكوم بقدر هائل من القوانين والسنن التى لا تتبدل ولا تتغير، والصدفة أعجز من تحقيق ذلك. ومن هنا فإن وجود خالق عظيم للكون، لا شريك له فى ملكه، ولا منازع له فى سلطانه، ولا شبيه له من خلقه. يحكم هذا الكون ولا يحكمه شىء من خلقه، وهو خالق كل شىء، فلا يحدُّه أى من المكان أو

الزمان، ولا يشكله أيٌّ من المادة أو الطاقة، وليس كمثله شيء من خلقه. وقد أصبح التسليم بهذه الحقيقة ضرورة حتمية ومنطقية ينادي بها كل ذي بصيرة في الكون كله.

(٣) أن سنن الله في الكون ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير إلا بإذنه وحده ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أشارت سورة الفتح إلى هذه الحقيقة في الآية الثالثة والعشرين بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الفتح: ٢٣].

(٤) الإشارة فيما بقي من ذكريات من التوراة والإنجيل إلى شيء من صفات النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ومن صفات الذين آمنوا معه بتشبيه علمي دقيق لا يقدر عليه إلا رب العالمين. ومن ذلك تشبيه قلة عدد المسلمين حول رسول الله ﷺ حين بدأ بدعوته المباركة ثم تزايدت أعدادهم بالتدريج حول هذه الرسالة السماوية الخاتمة بإحدى طرق التكاثر في النبات وهو التكاثر بالأشطاء (أي البراعم التي تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق). وعملية التكاثر بالأشطاء لم تعرف في مجال علم النبات إلا في القرن العشرين، والتشبيه بها في كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي أرض صحراوية قاحلة له من الدلالات ما له عند كل ذي عقل، وبصيرة ونظر.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأخيرة فقط وهي التكاثر في بعض النباتات بالأشطاء، وقبل الدخول في هذه القضية العلمية البحتة لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذا الجزء من الآية الأخيرة في سورة الفتح.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

[الفتح : ٢٩]

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره : «فإن هذه أمة - أى أمة الإسلام - معظمة فى الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أى فراخه ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى شده ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أى شب وطال ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أى فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ . . . . » .

وجاء فى بقية التفاسير - من مثل الجلالين ، الظلال ، صفوة البيان ، المنتخب ، صفوة التفاسير - كلام مشابه لا أرى ضرورة لإعادته .

من الدلالات اللغوية للنص الكريم

تشير الآية الكريمة التى نحن بصددها إلى أن مثل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام كما جاء فيما بقى من ذكريات عن الإنجيل الذى أنزله الله تعالى على عبده ورسوله عيسى ابن مريم - عليهما السلام - كبشارة سابقة ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين كان نصه :

﴿ . . . كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ . . . ﴾ .

وبالنسبة لتعبير (الشطأ) فإنه يقال (شطأ) الزرع ، و (أشطأ) إذا أخرج سيناناً إضافية تشبهه تماما من العقد الموجودة على قاعدة ساقه ، بينما فرع الشجرة يختلف عن كل من الأشطاء وسيقان النباتات ؛ لأنه يخرج من أية منطقة على الساق .

(وشطء) الزرع هو فرخ الزرع أى ما خرج منه ، وامتد فى شاطئيه (أى على

جانبيه)، وجمع الشطء (أشطاء) و(شطوء)؛ والشطء والأشطاء غير الفسيلة والفسائل، فبينما الشطء يقوى النبتة الأصلية فإن الفسيلة إذا لم ترفع عن الشجرة الأصلية فإنها تضعفها.

(**فآزره**) أى أن النبات الأصلى يقوم بإمداد الشطء بالغذاء اللازم لنموه فقوى ذلك الشطء ودعم النبتة الأصلية من قاعدتها، كما يقال (آزرت) البناء (بالمد والقصر) أى قويت أسافله. وقد ثبت علميا أن الشطء عند خروجه من الأصل (الأم) فإنه يعتمد اعتمادا كليا فى تغذيته عليه حتى تتكون عليه ثلاث أوراق خضرية، وأربعة أو خمسة جذور فيبدأ فى الاعتماد فى تغذيته على ذاته.

(**فاستغلظ**) أى تحول من الدقة إلى الغلظة، وذلك بتقوية جدر خلاياه بإفراز كميات كبيرة من كل من مادتى السيليولوز واللجنين، وبظهور عدد من العقد المغطاة بأغماد الأوراق. ﴿ **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ** ﴾ أى فاستقام على أصوله، و﴿ **سُوقِهِ** ﴾ هنا جمع (ساق)، وهذه المرحلة - مرحلة الاستواء على السوق - تأتى بعد مرحلة الاستغلاظ حيث تبدأ الخلايا فى الانقسام كى تستطيل المنطقة بين عقدة والتى تليها وتعرف بالسلامية، وتظل كل سلامية تدفع بالتى تليها حتى يتم النمو فتستوى السنابل على السوق عندما تصل السوق إلى نهاية مراحل نموها.

أما **فسائل النخل** ــ جمع فسيلة - فهى نوعان: **الأول** منهما ينمو على ارتفاع معين من جذع النخلة وليس له مجموع جذرى خاص به، ويعرف فى العامية باسم - الراكوب - والثانى ينمو من قاعدة النخلة، ويحتوى على جذور خاصة به، ويفصل عن النخلة لاستخدامه فى الإكثار من نوعها بزراعته فى مكان آخر.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

النص القرآنى الكريم الذى نحن بصدده يشير إلى حقيقة من حقائق علم النبات لم تعرف إلا مؤخرا، وهى حقيقة التكاثر فى بعض النباتات بالأشطاء، أى البراعم التى تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما يتم فى العديد من النباتات الاقتصادية المهمة مثل القمح والشعير والأرز والذرة الرفيعة، وقصب السكر،

وغيرها من نباتات **العائلة النجيلية**. وتتميز نباتات هذه العائلة بالأوراق الشريطية، والسيقان الدقيقة القائمة والمكونة من سلاميات متصلة ببعضها البعض، وبالزهور المركبة على هيئة نورات تنضج مكونة السنابل أو الداليات، كما تتميز بالجذور الليفية التى يحمل الكثير منها ريزومات عقدية، ويتكاثر أغلبها بالأشطاء التى تكثر من ثمارها. والعائلة النجيلية هى من أكبر عائلات النبات ـ حيث تضم حوالى ٤٥٠ جنس وأكثر من سبعة آلاف نوع، ويمثل كل نوع من هذه الأنواع بلايين الأفراد، ولذلك تنتشر نباتات هذه العائلة على الأرض لتغطى مساحات هائلة منها، تفرق المساحات التى تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخرى، وتضم العائلة النجيلية أعشابًا حولية أو معمرة، وتتميز بسيقان سلامية، نحيلة فى العادة كما هو الحال فى نبات النجيل، ولذلك وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على التكاثر بالأشطاء حتى يقوى عودها على مقاومة هبات الريح، وعلى الانتصاب فوق قاعدتها، وعلى مضاعفة ثمراتها.

والأشطاء عبارة عن براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما هو الحال فى نبات القمح الذى تتكون جذوره من مجموع أساسى خارج من البذرة النابتة، ومجموع عرضى يخرج من البراعم الجانبية. وكذلك ساق نبات القمح يتميز إلى ساق أساسى يمثل السويقة المندفعة من داخل البذرة النابتة بعد تمام نموها، والعديد من السيقان العرضية التى تندفع من قاعدة الساق على هيئة عيدان قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية المزدوجة، والنامية على قاعدة الساق الأساسى، ولذلك تمر النباتات التى تتكاثر بواسطة الأشطاء بمراحل الإنبات، وتكون البادرات، ثم مراحل خروج الأشطاء، ثم مراحل تكون الأزهار والثمار، التى تتضاعف أضعافا كثيرة بتكون الأشطاء والتى قد يصل عددها إلى أكثر من ثلاثين فى النبتة الواحدة. وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من السيقان الإضافية ـ الأشطاء ـ التى تحيط بالساق الأصلى مكونة حزمة مركبة من السيقان المتصلة ببعضها البعض فى مجموعة واحدة من الجذور الليفية التى خرجت من حبة قمح واحدة عند إنباتها، أى من أصل واحد، وهذا الأصل الواحد عبارة عن بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة، ولها مجموع جذرى واحد، وسرعان ما

تنمـو الأشطاء حـتى تصل إلى طول السـاق الأصليـة تقـريبـا ، وتعطى سنابل مثلها ، بحيث يكون لكل شطء سنبلته الخاصة به ، وبذلك تنبت الحبة الواحدة من القمح مثلا عدة نباتات فى حزمة واحدة يحمل كل منها سنبلته أو سنابله . وسنبلة القمح سنبلة مركبة يحمل فيها المحور عدة سنابل أصغر ـ سنيبلات ـ، مرتبة فى تبادل علـى صـفين متقـابلين ، وينتهـى المحـور عادة بسنيبلة طرفية . ويتكون فى كـل سـنيبلة حبـتان إلـى ثـلاث حـبات مـن القـمح ، وتحـمل السنبلة فى المتوسط (١٥ إلى ٢٠) سنيبلة . وتخرج الأشطاء متلاحقة ، واحدا تلو الآخر ، ومن هنا كان التعبير هنا بالإفراد ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ ، وكان وصف التتابع بحرف العطف (ف) الذى يدل على الترتيب مع التعقيب فقال الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ ... كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ... ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وبتكاثر الأشطاء فإن الساق الأصلى للنبات يحاط بعدد من السيقان الثانوية ـ الأشطاء ـ التى تنمو حوله على هيئة حزمة من الأعواد القائمة تزيد من سمك النبتة الأساسية ، وتغلظ قطرها ، وتمكنها من الاستواء منتصبة فوق مجموعها الجذرى فتزيد من تثبيتها فى مهب الريح بشغل مساحة أكبر من الوسط النامية فيه ، وتضاعف من غلتها ، وتبعد الأعشاب الضارة عنها وذلك بالحيلولة دون نمو تلك الأعشاب الضارة بالقرب من الساق الأساسية والمجموعة الجذرية . أما الفسائل ـ مثل فسائل النخل ـ فإنها تضعف الأم ، وتقلل من العصارة الغذائية الواصلة إليها خاصة للأنواع التى تنمو على ارتفاع من جذع النخلة ، بالإضافة إلى أنها تصبح مأوى للآفات والحشرات المختلفة .

ويعجب القارئ للقرآن الكريم على هذه الدقة البالغة فى اختيار لفظة (شطء) فى هذه الآية التى نحن بصددها ؛ وذلك لأن الأشطاء ـ كما سبق وأشرنا ـ تختلف اختلافا كليا عن الفسائل ، وعن الفروع ، وعن غيرها من أنواع الخلفات النباتية الأخرى ، ففى الوقت الذى لا تنفصل فيه الأشطاء عن نباتها الأصلى ، تنفصل الفسائل وغيرها من أنواع الخلفات النباتية عن أصولها ، كما يحدث فى حالة نخيل البلح . وقد أكدت البحوث فى علم النبات أن إخراج الأشطاء يحول دون سبات النبتة الأم والذى عادة ما يحدث أثناء تكون السنابل .

والآية الكريمة جاءت فى وصف قوة الترابط بين هذا الرسول الخاتم ﷺ وصحابته الكرام والتى تجسدت فى توادهم، وتعاطفهم، وتراحمهم،بدرجة لم يسبق لها مثيل فى علاقات الناس أفرادا وجماعات،فتشبههم بالأشطاء حول الأصل يشد بعضه بعضًا، ويتلقى الكل عن أصل واحد، ويتغذى من معين واحد، ولم تشبههم بالفسائل أو بالفروع لاختلاف دورها اختلافا كليا عن دور الأشطاء. ففى الوقت الذى تتغذى فيه الأشطاء كلها مع الساق الأصلى من مجموع جذرى واحد لا تنفصل عنه أبدا وإلا ماتت، فإن الفسائل التى تنمو من قاعدة النخلة تنفصل عن أصولها بإنتاج جذور جانبية عرضية لا تلبث أن تنمو لتصبح مصدرا أساسيا لتغذية الفسيلة التى تستقل فورا عن أصلها وتغدو صالحة للنقل بعيدا عنها لتبدأ حياة مستقلة تماما عن الأصل الذى جاءت منه. والمثل الذى يضع المصطفى ﷺ حيث بعث، وقام وحده بالدعوة إلى دين الله الكامل التام، فى مقام التشبيه بالزرع المبارك، ويضع أصحابه الذين آمنوا به وبرسالته من بعد، ويصفهم فى التفافهم حوله، وحبهم له، وإخلاصهم لشخصه الكريم، واعتمادهم - بعد الله تعالى - على هديه اعتمادا كاملا، يضعهم فى مقام التشبيه بالأشطاء النامية حول الزرع المبارك، ويصفهم بها فى وضع، لا يمكن أن يستخدم فيه تعبير الفرع أو الفسيلة التى سرعان ما تنفصل عن أصلها. وصحابة رسول الله ﷺ كانوا ألصق الناس به، وأقربهم إليه، وظلوا مرتبطين به طيلة حياته الشريفة، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وما من أحد من الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم -، ولا من المسلمين عامة إلا ويدعو الله تعالى أن يحييه على سنة هذا الرسول الخاتم، وأن يميته على ملته، وأن يحشره فى زمرته، وأن يجمعه به فى الفردوس الأعلى إن شاء الله. وليس أدل على ذلك من وصف عروة بن مسعود الثقفى - قبل إسلامه - حين وصف حب الصحابة لرسول الله ﷺ وقد جاءه موفدا من قريش يوم الحديبية، فعاد ليقول لهم: «**يامعشر قريش،إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا،فَرُوا رأيكم**».

وعلى الرغم من التحريف الشديد الذى تعرضت له فى التراجم الموجودة بين أيدى نصارى اليوم لما يعرف باسم أناجيل كل من «متى» و«مرقص» و«لوقا» فإنه لا يزال بها مثل مشابه لما ذكره القرآن الكريم يصف الرسالة الخاتمة باسم «ملكوت الله» حيث تقول: «وقال الرب: ماذا يشبه ملكوت الله؟ وبماذا أشبهه؟ إنه يشبه بذرة خردل أخذها إنسان وألقاها فى بستانه، فنبتت وصارت شجرة عظيمة، وأوت طيور السماء فى أغصانها» (لوقا: ١٣: ١٨، ١٩).

وبعد اكتشاف مخطوطات نجع حمادى فى سنة ١٩٤٥م، وجد فيما أسموه «إنجيل توماس» تشبيه يكاد يقترب مما جاء فى القرآن الكريم حيث تقول ترجمة النص ما يلى:

«لا تسمحوا لمملكة السماء بالذبول، لأنها مثل فسيلة النخل التى سقطت ثمارها على الأرض من حولها، فأنبتت وأخرجت أوراقًا، وبعد إنباتها تسببت فى جفاف الأصل الذى جاءت منه، وعلى ذلك فإنها مع الثمار التى نمت من هذا الجذر الواحد...». وهذا الكلام الملىء بالأخطاء العلمية مترجم عن النص الإنجليزى المنقول عن النص اليونانى القديم، وتقول الترجمة الإنجليزية:

"Do not allow the kingdom of Heaven to wither; for it is like a palm shoot whose fruit has dropped down around it. They (i.e. the fallen fruits) put forth leaves, and after they had sprouted, they caused their womb to dry up. So, it is also with the fruit which had grown from this single root....".

(J.M.Robinson: The Naga Hammadi Library, E.J.Brill, Leiden, 1988).

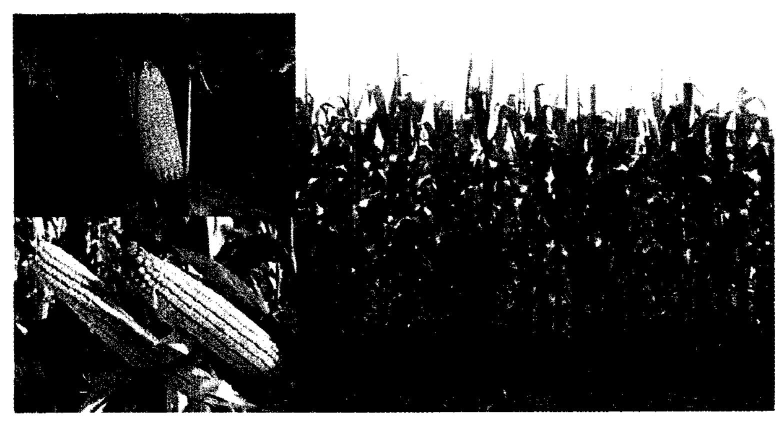
وأترك هذا القدر من التشابه للقارئ الكريم دون تعليق، مع التأكيد على الفرق بين الشطأ» و«الفسيلة» والمترجمون للنصوص القديمة لم يكونوا يعرفون الفرق بينهما.

ويبقى ورود النص القرآنى بأن التشبيه موجود فى الإنجيل بالزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه فى مقام وصف موقف الصحابة الكرام حول رسول الله ﷺ من الالتفاف والحب والوفاء والولاء، والتأييد له، والفداء عنه، تأكيد على انطلاق المصدرين، من منبع واحد، حفظ أحدهما وهو القرآن الكريم، وحُرِّف الآخر، وهو «إنجيل توماس» أثناء النقل عن الأصل الذى ضاع مما

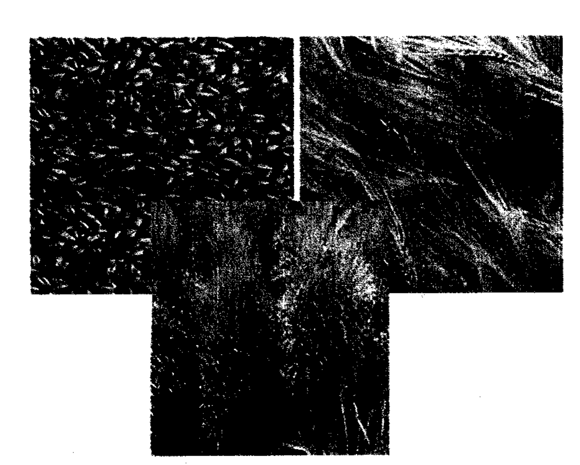
يجزم بأن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله، ولا يمكن أن يكون صناعة بشرية؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق إدراك للفرق بين الشطء والفرع والفسيلة من قبل أربعة عشر قرنا، ولا من قبل قرن واحد من الزمان، وهذا مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

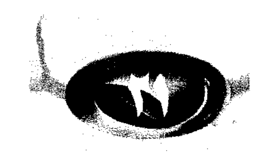
* * *









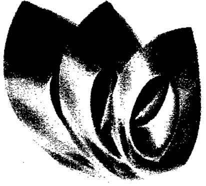


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾

(يوسف: ٤٧)





هذه الآية الكريمة جاءت فى أواخر النصف الأول من سورة يوسف وهى سورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة بعد البسملة، وقد تفردت باستعراض قصة هذا النبى الصالح بتفاصيلها، والذى جاء ذكره ﷺ فى كلّ من سورتى الأنعام وغافر. بينما جاءت سير غيره من أنبياء الله ورسله إما مجملة فى جزء من سورة، أو مفصلة على مراحل فى عدد من السور، علما بأن سبعًا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء غيره من أنبياء الله ورسله من أمثال: نوح، هود، إبراهيم، يونس، طه، يس، محمد (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، أو أسماء جماعة أو فرد من الصالحين من أمثال: آل عمران، مريم، ولقمان (رضى الله تعالى عنهم)، أو بعض صفات الصالحين من أمثال: سورتى «الأنبياء» و«المؤمنون».

عرض موجز لسورة يوسف عليه السلام

يبدو - والله تعالى أعلم - أن الحكمة من وراء إجمال قصة سيدنا يوسف ﷺ فى سورة واحدة هى تثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فى وقت من أوقات الشدائد التى لقيها من كفار ومشركى العرب، بعد وفاة كلّ من وعمه أبى طالب، وزوجته الوفية أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - وكانا - بعد الله تعالى - سندى رسول الله ﷺ فى الدنيا أمام اضطهاد كفار قريش له خاصة، وللمسلمين (عامة) فى مكة المكرمة، وكان قد زاد الموقف حدة تخلى أهل الطائف عن مناصرته ﷺ، وتآمر الكفار والمشركين فى مكة على قتله، أو سجنه، أو نفيه بعد بيعتى العقبة الأولى والثانية؛ وبعد سيادة الشعور العام بتعاظم خطر الإسلام والمسلمين، وتكوين قاعدة لهم بالمدينة المنورة. وكان

رسول الله ﷺ قد أمر بالاستعداد للهجرة، وعز عليه مفارقة مكة المكرمة ـ أشرف بقاع الأرض وأحبها إلى الله ورسوله ـ وما ساوره ﷺ فى ذلك الوقت العصيب من مشاعر الوحشة، والغربة، والانقطاع عن الكعبة المشرفة، وعن الأهل والأحباب، وكان أغلب أصحابه قد هاجروا بالفعل إلى المدينة المنورة.

وسط هذه الشدائد والابتلاءات والمحن أنزلت سورة يوسف على رسول الله ﷺ تروى قصة أخ له من أنبياء الله السابقين، وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم على نبينا وعليهم جميعًا من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وقد عانى من الابتلاءات والمحن ما كان فى سرده شىء من التثبيت لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولصحابته الكرام ـ عليهم رضوان الله ـ، ولكل مسلم من بعدهم إلى يوم الدين.

فمنذ نعومة أظفاره مر نبى الله يوسف ﷺ بقدر من الابتلاءات لا يقوى على حملها كثير من الناس، ابتداء بكيد إخوته له، وتآمرهم عليه، حتى تم إلقاؤهم به إلى غيابة الجب وهو طفل صغير، وما صاحبه فى هذا الوضع المخيف من رعب ووحشة وحزن، بعد الرعاية الفائقة التى كان قد تعود عليها فى ظل والديه، ثم محنة انتشاله من قاع البئر، وبيعه رقيقا، ينقله مالكوه من يد إلى يد، بغير إرادة منه، ولا مشورة معه، وهو النبى ابن النبى ابن النبى ابن النبى، ثم محنة افتتان زوجة العزيز به، وولهها وهيامها بحبه، ومحاولتها فتنته عن فطرته السوية التى فطره الله تعالى عليها، ومحنة ما جمعت له من نسوة تستعين بهن على فتنته، ومحنة السجن دون ذنب أو خطيئة، ثم الابتلاء بعد ذلك بالجاه والسلطان والسعة فى الرزق، والتمكين فى الأرض بالقيام على خزائن مصر، ثم الابتلاء بلقائه مع إخوته الذين سبق لهم أن ظلموه وجاروا عليه بالكيد له، وانتهاء بالابتلاء الكبير الذى تمثل فى تحقق رؤياه القديمة وسجود أبويه وإخوته له على العرش بعد أن جمع الله شملهم على أرض مصر الطيبة.

وقد صبر يوسف ﷺ على جميع هذه الابتلاءات والمحن صبر المؤمن

بالله، الموقن بألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته، وتجلد تجلد الصابر المحتسب. طلبًا لمرضاة الله، وتسليمًا لقضائه، ورضا بقدره، وإيمانًا بأنه الخير كل الخير، رغم كل ما لاقى من شدائد ومحن، وهكذا يجب أن يكون كل مسلم.

ومما يثير الإعجاب حقا أن هذه الابتلاءات والشدائد والمحن التى مر بها سيدنا يوسف ﷺ لم تعقه لحظة عن دعوته إلى الإسلام الخالص، القائم على توحيد الله، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، حتى فى أشد ساعات الابتلاء والامتحان صعوبة، ويذكر لنا القرآن الكريم رده على زميليه فى السجن حيث يقول:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

وبهذا الإيمان الراسخ بالله الواحد القهار خرج نبى الله يوسف ﷺ من كل هذه الابتلاءات والمحن والشدائد وهو أصلب عودًا، وأقوى على مجابهة الحياة، وأكثر إخلاصًا وتجردًا لعبادة الله وحده، وحبًا له، وتفانيًا فى إرضائه، ولذلك كانت أكبر أمنياته فى لحظة الانتصار أن يتوفاه الله مسلما، وفى ذلك يقول لنا القرآن الكريم فى ختام قصة يوسف ﷺ:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠١].

وهكذا كان فى قصة نبى الله يوسف ﷺ أجمل مواساة لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فى الابتلاءات والمحن والشدائد التى مر بها قبل الهجرة، وأعظم تطمين له بحتمية الانتصار على أعداء الله وأعدائه، وأجمل بشرى بقرب التمكين له فى الأرض كما سبق وأن مكن الله - تعالى - لنبيه يوسف ﷺ بعد ما مر به من الابتلاءات. ومثل هذه البشريات لا تدركها إلا القلوب العامرة بالإيمان

بالله، والمطمئنة بمعيته ـ سبحانه وتعالى ـ والمسلمة بقدر الله وقضائه، والموقنة بأن فيه الخير كل الخير حتى لو بدالنا بمقاييسنا البشرية المحدودة أنه ليس فى صالحنا، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧].

وفى الآية الأخيرة إشارة واضحة إلى ضآلة شأن الدنيا إذا قورنت بالآخرة، وتأكيد على أن كل محنة وابتلاء وشدة يمر بها المؤمن فى هذه الحياة الدنيا هى من أجل تزكية نفسه، وتطهير بدنه، وتكفير سيئاته، ورفع درجاته، وزيادة أجره ولذلك فإن سورة يوسف التى بدأت برؤياه وانتهت بتحقيق تلك الرؤيا ختمت بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبًا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٨ ـ ١١١].

الحروف المقطعة فى مطلع سورة يوسف

جاءت قصة نبى الله يوسف ﷺ فى ثمان وتسعين آية، وختمت بخطاب إلى رسول الله ﷺ فى عشر آيات، وقدم لها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بثلاث من الآيات كانت أولاها: ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١].

والحروف المقطعة الثلاثة (الر) تكررت خمس مرات فى مطلع خمس من سور القرآن الكريم، وجاءت مرة سادسة مع إضافة الحرف م (المر). وهذه الحروف

الهجائية المقطعة التى جاءت بأربع عشرة صيغة، فى مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم فى أحد الآراء، أو سبع وعشرين سورة فى رأى آخر، تعتبر من أسرار هذا الكتاب العزيز التى فوض كثير من المفسرين العلم فيها إلى الله - تعالى - وحاول بعضهم إيجاد تفسير لها، فمنهم من رأى أنها رموز إلى كلمات أو معان، أو أعداد معينة، ومنهم من رأى أنها أسماء للسور، أو أنها قصدت لإظهار التحدى بالقرآن الكريم، وللدلالة على إعجازه، أو قصد منها تنبيه السامع، أو جعلها فواتح للكلام، ومنهم من يرى أن هناك روابط معنوية بين الحروف المقطعة وسورها، أو روابط رياضية بين تلك الحروف المقطعة وعدد مرات ورودها فى السورة، بمعنى وجود قانون رياضى يربط توزيع الحروف فى سور هذا الكتاب العزيز الذى نزل منجما آية آية، أو بضع آيات بضع آيات، وفى حالة قصار السور وفى بعض الحالات النادرة جاءت السورة كاملة. ومن المفسرين من يرى أن الله - تعالى - أراد بتلك الحروف المقطعة شهادة على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ لنطقه بأسماء الحروف - وهو الأمى - والأمى ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها، لأن النطق بأسماء الحروف لا يعرف إلا بالتعلم والمران، ومن العلماء من يرى الجمع بين هذه الرؤى كلها، مع إمكانية إضافة غيرها إليها.

والحروف المقطعة الثلاثة (الر) التى استهلت بها سورة يوسف عليه السلام كأنها تخاطب العرب - وهم فى قمة الفصاحة والبلاغة وحسن البيان - فتقول لهم إن كلامكم يتركب من تلك الحروف الهجائية وأمثالها، وكذلك القرآن الكريم كله، وقد تحداكم ربكم أن تأتوا بقرآن مثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله ففشلتم وعجزتم عن ذلك مما يجعل هذا الكتاب المبين حجة عليكم أجمعين، ولذلك جاءت الآية الثانية من سورة يوسف بقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢].

وَوُجِّه الخطاب فى الآية الثالثة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

وذلك لأن قصة نبى الله يوسف ﷺ كانت بالنسبة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من أنباء الغيب كما أشار الله تعالى إلى ذلك فى عشر آيات من هذه السورة المباركة، فلم يكن رسولنا الخاتم ﷺ يعلم شيئًا عنها قبل أن يتنزل عليه الوحى بها، ولم تكن الغالبية الساحقة من أهل الأرض تذكر شيئا عنها باستثناء قلة نادرة من أحبار اليهود الذين كانوا مبعثرين فى جيوب قليلة من الجزيرة العربية ، وكان أغلبهم من البدو قليلى العلم، ومن الأميين الذين لا يقرأون . والمقارنة بين قصة سيدنا يوسف ﷺ كما جاءت فى القرآن الكريم، وكما جاءت فى العهد القديم توضح الفارق الشاسع بين كلام الله وكلام البشر، والتشابه فى القصة الكريمة مرده إلى وحدة المصدر السماوى، والاختلاف فى الأسلوب والمحتوى والتفاصيل مرده إلى قدر هائل من التحريف الذى تعرضت له رسالة سيدنا موسى - على نبينا وعليه من الله السلام -.

من القضايا المعنوية فى سورة يوسف

تضمنت سورة يوسف العديد من القضايا العقدية والروحية والمعنوية التى نستخلص منها ما يلى :

(١) إن القرآن الكريم هو كلام الله - سبحانه وتعالى - الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ، بلسان عربى مبين كى يفهمه العرب ويطبقوه أمرا واقعا فى حياتهم، ويبلغوا به غيرهم من الأمم أصحاب اللغات الأخرى؛ لأنه أنزل للناس كافة، ولأنه الكتاب المبيِّن عن الدين الحق، الواضح الدلالة لكل من استرشد بهديه الربانى الخالص، فى الوقت الذى تعرضت كل صور الوحى السابقة على نزوله للضياع التام، وما بقى منها من ذكريات نقلت شفاها لعدد من القرون، ثم دونت بلغات غير لغة الوحى، وتعرضت خلال ذلك - ولا تزال تتعرض - للتحريف بعد التحريف، وللتبديل والتغيير مما أخرجها عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها .

(٢) إن قصة نبى الله يوسف ﷺ لم تكن معروفة لرسول الله ﷺ قبل الوحى بها إليه، ولم يكن أحد من العرب يعرف شيئا عنها ـ فضلا عن تفاصيلها ـ سوى آحاد من أهل الكتاب الذين وجدوها بصورة محرفة فى كتبهم، وشتان بين روايتها فى القرآن الكريم وسردها عندهم، والفارق واضح وضوح الشمس بين كلام الله وصياغة البشر، وعلى ذلك فإن قصة سيدنا يوسف فى القرآن الكريم هى من الشهادات الناطقة بنبوة النبى الخاتم، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحى، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض؛ وإن كان المستشرقون وأعداء الإسلام من كل لون وصوب قد استغلوا التشابه بين القصص القرآنى والقصص عند أهل الكتاب للادعاء الباطل بأن الرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ قد اقتبسه من كتبهم، بدلا من التسليم بوحدة المصدر وهو الله الخالق سبحانه وتعالى، مع الفارق الواضح بين كلام الله وتحريف البشر، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قصة يوسف ﷺ كما جاءت فى كل من سفر التكوين والقرآن الكريم؛ وهنا تتضح الحكمة الربانية من جعل خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لا يعرف القراءة والكتابة، كما ثبت ذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى سورة العنكبوت مخاطبا هذا الرسول الخاتم ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

(٣) إن رؤى الأنبياء حق، وأن الله ـ تعالى ـ يُعلِّم من يشاء من عباده الصالحين تأويل الرؤى.

(٤) إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه يترصد بوسوسته جميع بنى آدم حتى أبناء الأنبياء والمرسلين كما حدث مع إخوة يوسف ﷺ.

(٥) إن المساواة بين الأبناء ضرورة فطرية، ولازمة تربوية لأن المبالغة فى حب الوالدين أو أحدهما لأحد الأبناء يدفع الآخرين من الأبناء إلى كراهيته والكيد له كما حدث من إخوة يوسف.

(٦) أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يمكن لمن يشاء من عباده فى الأرض، وهو

سبحانه ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١]، والإيمان بهذه الحقيقة يجعل الإنسان راضيًا بقضاء الله وقدره، ومُثَبَّتًا فى حالات النوازل والمحن والابتلاءات، وممنوعا من ظلم الآخرين؛ لأنه لايفلح الظالمون.

(٧) إن جميع أنبياء الله قد آمنوا بالله الواحد القهار، ودعوا أممهم إلى التوحيد الخالص لله الخالق - بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد...، وإلى تنزيهه - سبحانه وتعالى - عن كل وصف لايليق بجلاله؛ وذلك لأن الله تعالى قد أمر بألا يعبد سواه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، على الرغم من تسليمهم بأنه سبحانه وتعالى هو فاطر السماوات والأرض، وخالق كل شىء، وذلك من دس الشياطين ووسوساتها إليهم، ولذلك يوجه الحق - تبارك وتعالى - الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله بقوله عز من قائل:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

(٨) إن الإسلام القائم على التوحيد الخالص لله، وإسلام الوجه طواعية واختياراً له - سبحانه -، والخضوع لأوامره خضوعًا كاملاً، واجتناب نواهيه اجتنابًا تامًا، واتباع هديه اتباعًا دقيقًا وذلك بعبادته تعالى بما أمر وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وإقامة عدل الله فيها، هذا الإسلام هو الدين القيم، الذى لا يرتضى ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينا سواه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

(٩) إن النفس الإنسانية أمارة بالسوء إلا من رحم ربى وهو الغفور الرحيم، وعلى كل عاقل ألا يتبع نفسه هواها وأن يعلم أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

(١٠) إن العلم قيمة عليا فى الإسلام، وعلى العلماء ألا يغتروا بعلمهم لأن الله تعالى قد جعل فوق كل ذى علم عليم، وأنه تعالى لطيف لما يشاء، وأنه هو العليم الحكيم.

(١١) إن الساعة لا تأتى إلا بغتة، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

الإشارات الكونية فى سورة يوسف عليه السلام

جاء فى سورة نبى الله «يوسف» عليه السلام عدد غير قليل من الإشارات الكونية التى نوجز منها ما يلى :

(١) دون أدنى قدر من التكلف ـ لأن القرآن الكريم لا يحتاج ذلك ـ أقول إنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون عدد إخوة يوسف عليه السلام أحد عشر ، ويكون عدد الكواكب فى مجموعتنا الشمسية بنفس العدد ، وأن يرى يوسف فى رؤياه أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين ، وتتحقق هذه الرؤيا بسجود إخوته وأبويه له يوم جمعهم الله ـ تعالى ـ جميعًا على أرض مصر ، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] .

(٢) الإشارة إلى واقعة تاريخية وقعت بمصر من قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم بأكثر من اثنى عشر قرنًا مؤداها مرور سبع سنوات من الخصب العام ، تلتها سبع سنوات عجاف من القحط والجفاف والجدب ، تلاها عام زالت فيه تلك الشدة ونزل الغيث وعم الرخاء ، وقد أثبتت الدراسات الأثرية صدق ذلك .

(٣) التوصية الإلهية التى ألهمها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لعبده يوسف عليه السلام بترك القمح المخزون من أعوام الرخاء لأعوام الشدة فى سنابله ، وقد أثبتت التجارب أن خزن المحاصيل الزراعية ذات السنابل هى الطريقة المثلى فى حفظها لمدد طويلة دون فساد أو تسوس أو نقص فى محتواها الغذائى .

(٤) وصف عينى سيدنا يعقوب عليه السلام بأنهما ابيضتا من الحزن وهو ما يعرف اليوم باسم الماء الأبيض وهو عبارة عن عتامة تحدث لعدسة العين تمنع دخول الضوء جزئيا أو كليا إليها حسب درجة العتامة ، وقد تحدث بسبب الحزن الشديد المصاحب بالبكاء ؛ أو لكبر السن وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] .

(٥) الإشارة إلى أن عرق الإنسـان به من المركبات الكيـميائية ما يُمَكِّـن من شفاء عتامـة عدسة العين (الماء الأبيض)،وهو ما توصل إليـه الأستاذ الدكتور عـبد الباسط سيد محمـد الأستاذ بالمركز القومى للبحوث بالدقى ـ القـاهرة، بعد أن قام بنقع عدد من العـدسات المعتـمة (التى تم استخـراجهـا من عيون عـدد من المرضى بعمـليات جراحـية) فى عرق الإنسـان فوجد أنهـا تحدث حالة من الـشفافـية التدريجـية لتلك العـدسات،ووجـد أن العـامل المؤثر فى ذلك هو أحد المـركبـات الكيمـيـائية لعـرق الإنسان،واسمه العلمى (الجواندين)،وأمكن تحضير هذا المركب مختبريًا،وإنتاج قطرة للعـيون مـنه حصل بهـا على براءة اختـراع أوروبية وأخـرى أمـريكية فـى العامـين (١٩٩١ م و ١٩٩٣ م)على التـوالى،وقـد استـوحى هذا العـالم المصـرى فكرة تلك القطرة من قول ربنا ــ تبارك وتعالى ــ على لسان عبده ونبيه يوسف عليه السلام ما نصه:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] .

(٦) الإشارة إلى أن بالسماوات والأرض من الآيات الحسية ما يشهد لله الخالق ـ سبـحانه وتعـالى ـ بطلاقـة القـدرة، وببـديع الـصنعـة، وإحكام الخلق، وقـد أثبـتت الدراسات العـلمية ذلك، وإن كـان أغلب الناس ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]

وكل واحدة من هذه الإشـارات الكونية تحتـاج إلى معـالجة خـاصـة بهـا، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الثالثة المتعلقة بخزن المحاصيل ذات السنابل فى سنابلهـا، وقـبل الوصـول إلى ذلك لا بد من اسـتـعـراض سـريع لأقـوال عـدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله تعالى على لسان عبده ونبيه يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧] .

* ذكر الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «قال ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ : أى مهما استغللتم فى هذه السبع السنين الخصب فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه ، لتنتفعوا به فى السبع الشداد (وهن السبع السنين التى تعقب هذه السبع المتواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان ؛ لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه فى سنى الخصب ، وهن السنبلات اليابسات) وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء ، ولهذا قال : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أى يأتيهم الغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون ، على عادتهم من زيت وعنب ونحوه» .

ومن قبل ذكر الإمام الطبرى ـ رحمه الله ـ كما ذكر بقية المفسرين كلامًا مشابهًا مع تفاوت بسيط فى شرح دلالة بعض كلمات الآية الكريمة ، ولذلك أرى الاكتفاء هنا بكلام الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ورحم جميع المفسرين الذين خدموا القرآن الكريم برحمته الواسعة ـ اللهم آمين .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

يعتبر القمح أهم أغذية الإنسان ، وقد عرف فى المشرق العربى قبل بدء التاريخ ، ثم انتشر إلى أواسط آسيا ، ومن بعد ذلك إلى بقية أجزاء العالم ، وكان قدماء المصريين من أوائل الشعوب التى زرعت القمح ، وإن كان تاريخ زراعته يرجع إلى العصر الحجرى إن لم يكن قبل ذلك .

والقمح يتبع «العائلة النجيلية ـ **Family Gramineae**» نسبة إلى نبات النجيل ، وتضم هذه العائلة بالإضافة إلى القمح عددا من المحاصيل الأخرى مثل الشعير ، الذرة ، الشوفان الراى أو الجاردار **(Rye)** ، «السُّرخوم ـ **Sorghum**» ، والأرز ، كما تشمل نباتات اقتصادية أخرى مثل قصب السكر ، والغاب والنجيل ؛ وغير ذلك من حشائش المراعى ، والأعشاب الطبية .

وتشمل عائلة النجيليات حوالى ٤٥٠ جنسا، وسبعة آلاف نوع من أنواع النباتات التى تنتشر على سطح الأرض لتغطى مساحات هائلة تفوق المساحات التى تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخرى، وتمثل العائلة النجيلية بأعشاب حولية أو معمرة، وإن كان بعضها يمثل بنباتات خشبية قد يصل طول الواحدة منها إلى أكثر من ثلاثين مترا كما هو الحال فى نباتات الخيزران الهندى. وأزهار النجيليات عادة ما تكون بسيطة التركيب صغيرة الحجم، خضراء ويتم تلقيحها بواسطة الرياح.

والقمح هو أهم أجناس العائلة النجيلية على الإطلاق، ويعرف منه فى مصر ثلاثة أنواع رئيسية - على الأقل - تعرف بالأسماء التالية:

(١) القمح شديد الاحتمال (الذكر) (***Triticum durum***) أو (***Emmer***) وهذا النوع من القمح يزرع فى جنوب صعيد مصر، وفى واحات الصحراء الغربية، وفى شبه جزيرة سيناء.

(٢) القمح البلدى (الهرمى) (***Triticum pyramidale***) ويزرع فى شمال صعيد مصر وفى الفيوم.

(٣) القمح الهندى (***Triticum Vulgare***) ويزرع فى الوجه البحرى.

وتتميز نباتات العائلة النجيلية بالجذور الليفية التى يحمل الكثير منها ريزومات عقدية ويتكاثر أغلبها بالأشطاء، وهى براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق كما هو الحال فى نبات القمح، الذى تتكون جذوره من مجموع أساسى خارج من البذرة النابتة، ومجموع عرضى يخرج من البراعم الجانبية، وكذلك الساق يتميز إلى ساق أساسى - يمثل نمو السويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة - وسيقان عرضية على هيئة أفرع قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية، المزدوجة، النامية على قاعدة الساق الأساسية عند منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق سطح الأرض مباشرة، وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من الأفرع أو السيقان المحيطة بالساق الرئيسى تعرف باسم الأشطاء - مفردها شطء - ويتراوح عددها فى المتوسط بين العشرين والثلاثين، وقد يصل إلى الخمسين، وعلى ذلك فإن نبتة القمح الواحدة توجد فى حزمة مركبة من الأشطاء

النامية حول الساق الأساسى وكلها متصلة ببعضها البعض فى مجموعة من الجذور الليفية مما يوضح خروجها من أصل واحد، أى من بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة، فالحبة النابتة تخرج منها البادرة، والبادرة تعطى الأشطاء فى منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق التربة مباشرة، ولا تلبث تلك أن تنمو حتى تصل إلى طول الساق الأصلية تقريبا وتعطى سنابل مثلها، بحيث يكون لكل شطء سنبلة خاصة به، وبذلك تنبت الحبة الواحدة نباتات تحمل عدة سنابل .

وأوراق شجيرة القمح متبادلة على ساقها، وكل واحدة منها تحمل زوجًا من الأذينات عند قاعدة النصل، وللساق غمد يحيط به . ونورة نبات القمح تتكون من حشد من الأزهار التى تتجمع على جزء من الساق، وبذلك تتركب النورة من جزء من الساق يسمى محور النورة، وعدد من الأزهار التى تخرج من آباط أوراق صغيرة تسمى القنابات أو العصيفات أو العصافات ـ مفردها عصيفة ـ، وفى بعض الأحيان تظهر الأزهار دون قنابات .

ونورة نبات القمح نورة مركبة يستطيل فيها المحور وتترتب عليه الأزهار الجالسة التى بعد إخصابها تعطى الثمرة وهى بذور القمح، وعند تمام الإخصاب تتحول نورة القمح إلى سنبلة خضراء ثم بعد تمام نضجها تتحول إلى سنبلة صفراء ذهبية .

وسنبلة القمح سنبلة مركبة، يحمل فيها المحور سنابل أصغر تعرف باسم السنيبلات، وهى جانبية الترتيب فى تبادل على صفين متقابلين، وينتهى المحور عادة بسنبلة طرفية . وتحمل السنبلة فى المتوسط (١٥ ـ ٢٠) سنيبلة، ويتفاوت عدد الأزهار فى السنيبلة الواحدة بين (٢ ، ٩) ويكون فى السنيبلة الواحدة حبتان إلى ثلاث حبات من القمح . ولبعض سلالات القمح شوكة طرفية دقيقة جدا تعرف باسم (السفا أو الحسكة) .

ونبات الشعير يشبه نبات القمح فى شكله وفى العديد من صفاته، والشعير من أقدم محاصيل الحبوب التى عرفها الإنسان وقام على زراعتها، وكان يعتبر المصدر الرئيسى لدقيق الخبز حتى حل القمح محله فى ذلك . ولكل من حبتى القمح والشعير غلاف رقيق ولكنه صلب، يلتصق بالحبة بشدة بالغة، ويعتبر حماية لها من

الرطوبة، والتغيرات المناخية، ومن مختلف أنواع الكائنات الحية الضارة، والملوثات الكيميائية، ويعرف باسم «الغلاف المحيط» (**Pericarp**)، وهو ينفصل عن حبة القمح - البرة - على هيئة النخالة عند الطحن، وتؤلف النخالة حوالى ٨,٥٪ من وزن حبة القمح وهى ثمرة جافة، صغيرة، التحم جدارها بغلاف البذرة التحامًا كاملاً.

وجنين بذرة القمح صغير جدا ويتكون من مركبات كيميائية ذات قيمة غذائية عالية من مثل البروتينات والفيتامينات والدهون، ويشكل ذلك حوالى ٢٪ - ٢,٥٪ من وزن حبة القمح، وعادة ما تستبعد الدهون من الدقيق عند طحنه لأنها تتحلل وتفسد مع التخزين لمدد طويلة، ويحاط الجنين بمخزون غذائى على هيئة طبقة بروتينية غنية بمادة «الجلوتين» (**Gluten**) وبمركبات الفوسفور والنشا، وجزيئات الجلوتين خيطية الشكل ومتشابكة مع بعضها البعض، ومن فوائدها أنها تجعل العجين لينًا سهل التشكيل، وقابلاً للتخمر بإضافة الخميرة إليه، ويمثل المخزون الغذائى فى حبة القمح حوالى ٨٧٪ إلى ٨٨٪ من كتلتها.

وحبة القمح تغلفها قنابة تسمى «العصافة» (**Glume**) هى التى تكون قشر الحنطة. والحبوب فى كل من السنيبلات والسنابل محاطة بأغلفة واقية وأشواك وشعيرات تحميها من الفطريات والبكتيريا والجراثيم، والحشرات، والرطوبة، ومن تقلبات الطقس وتيارات الهواء الجوى المباشر المحمل بالملوثات. وهذه الأغلفة بالرغم من صلابتها، وشدة إحكامها فإنها تسمح بقدر من التهوية غير المباشرة والمستمرة للجنين الكامن فى داخل البذرة - وهو فى حالة من الركود الحيوى والكمون والسكون -، وتحول فى نفس الوقت دون ارتفاع نسبة الرطوبة فيه وذلك للحيلولة دون إنبات الجنين فى أوقات التخزين. كذلك فإن البذرة الجافة وأغلفتها تحتوى على آثار طفيفة من مركبات كيميائية خاصة حافظة للبذرة، ومثبطة لعملية إنباتها تحت الظروف الجافة، وحاوية على مركبات أخرى مضادة لكل من البكتيريا، والفطريات والجراثيم المحتمل وصولها إلى الحبوب أثناء تخزينها.

انطلاقًا من ذلك كله جاءت الآية الكريمة التى نحن بصددها إلهاما من الله - سبحانه وتعالى - لنبيه يوسف عليه السلام لكى ينصح بخزن المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير، والأرز، والشوفان فى سنابلها،وقد أثبتت التجربة أنه أفضل نظام

لحفظ تلك المحاصيل طالت مدد ذلك الحفظ أم قصرت، وقد طبقها يوسف عليه السلام لمدة وصلت إلى خمس عشرة سنة دون أن تفسد، وبقيت طوال هذه المدة محافظة على قيمتها الغذائية كاملة، وعلى حيويتها،وقدرتها على الإنبات والنمو والإثمار.

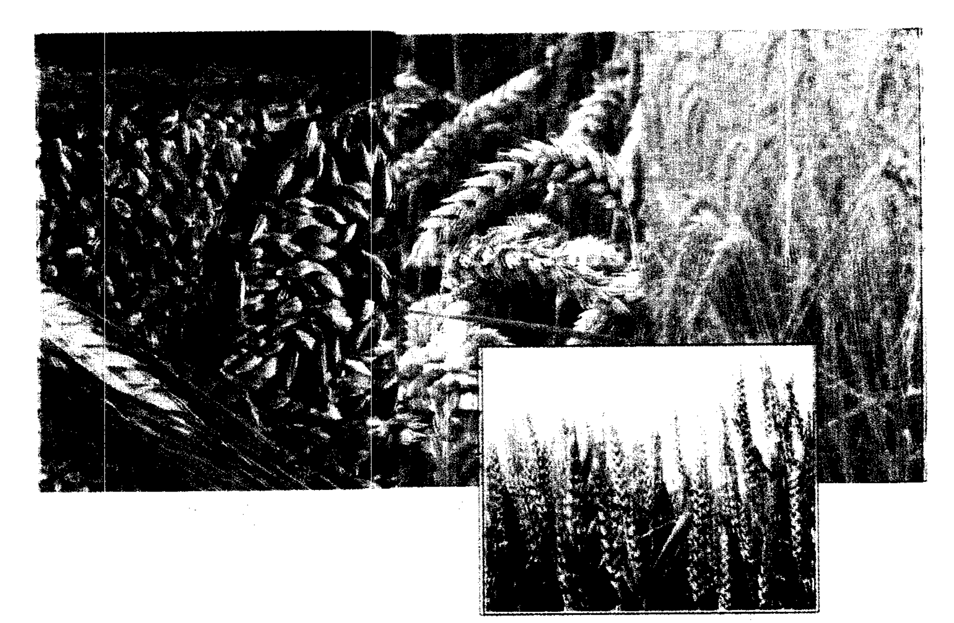
ولقد قام الأخ الدكتور عبد المجيد بلعابد ـ من جامعة وجدة بالمغرب العربى ـ بتجربة عملية للتأكد من ذلك فترك بذور القمح فى سنابلها لمدة عامين تحت ظروف عادية لم تراع فيها أية شروط من شروط تخزين الحبوب، وجرد بعض البذور من سنابلها وتركها أيضا تحت نفس الظروف ولنفس المدة الزمنية، فلاحظ أن الحبوب فى السنابل لم يطرأ عليها أى تغيير، لا فى محتواها من المواد الغذائية ولا فى قدرتها على الإنبات سوى فقدها لجزء من محتواها المائى مما جعلها أكثر جفافا، وأعلى فى قيمتها الغذائية وأصلح للحفظ وللإنبات لأن وجود الماء يسهل من تعفن القمح، خاصة وأن نسبة الماء فى بذوره تصل إلى ٣, ٢٠٪. فى نفس الوقت لاحظ الباحث أن حبوب القمح التى جردت من سنابلها فقدت ٢٠٪ من محتواها من المواد البروتينية بعد سنة من خزنها، وفقدت ٣٢٪ من هذا المحتوى بعد سنتين، وكذلك فقدت نسبة كبيرة من قدرتها على الإنبات والنمو والإثمار. وبذلك ثبت بالتجربة أن أفضل طريقة لتخزين المحاصيل النباتية التى تنتج فى سنابل كالقمح والشعير والأرز هو حفظها فى سنابلها التى خلقها الله ـ تعالى ـ فيها.

وهذا من الوحى الذى أوحاه الله ـ تعالى ـ إلى نبيه يوسف عليه السلام، وذكره مع قصته كاملة فى القرآن الكريم مما يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الخالق العليم الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ ويشهد لكل من يوسف بن يعقوب عليه السلام ولخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم بالنبوة وبالرسالة؛ وذلك لأن المصريين القدماء ما كانوا يعرفون طريقة لحفظ الغلال وخزنها إلا معزولة عن سنابلها، والأمر الإلهى بحفظها فى سنابلها لم يدرك إلا بعد مشورة هذا النبى سليل بيت النبوة ـ على نبينا وعليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ ولا يزال القمح يخزن فى أيامنا هذه مفروطًا من سنابله مما يعرضه لفساد كبير عند خزنه على الرغم من الاحتياطات الكثيرة التى تتخذ فى صوامع ومخازن الغلال.

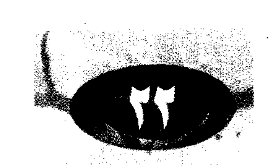
وإذا أضفنا إلى ذلك مقارنة قصة يوسف ﷺ كما أنزلت فى القرآن الكريم على نبى أمى ﷺ ، وسط أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ، مع ما ورد عنها فى سفر التكوين ، اتضحت لنا وحدة رسالة السماء ، والأخوة بين الأنبياء ، وفضل الإسلام العظيم على الناس أجمعين ، وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب ؛ لأن القصة فى سفر التكوين مع تشابهها مع ما جاء فى القرآن الكريم قد عابها كثير من التدخل البشرى ، والتحريف لأنها ظلت تروى مشافهة لأكثر من ثمانية قرون ، ودونت بعد ضياع مصادرها الأصلية بقرون متطاولة . وهنا يتضح فضل العهد الإلهى الذى قطعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية بحفظه للقرآن الكريم من لحظة نزوله وإلى قيام الساعة فقال عز من قائل : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] .

فالحمد لله على نعمة الإسلام ، والحمد لله على نعمة القرآن ، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى كافة أنبياء الله ورسله أجمعين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، ونسأل الله تعالى أن يخص خاتم الأنبياء والمرسلين وآل بيته الطيبين الطاهرين ، وصحابته الغر الميامين ، ومن والاهم وسار على دربهم إلى يوم الدين بأفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *





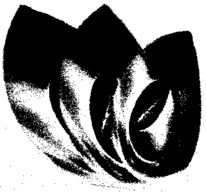


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

(الصافات ١٤٥ : ١٤٦)





هذه الآية الكريمة جاءت فى الخمس الأخير من سورة الصافات، وهى سورة مكية، وآياتها اثنتان وثمانون ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم بالملائكة الأطهار الذين لاينفكون عن عبادة الله - تعالى - ويصطفون فى طاعته بأفضل مما يصطف كثير من عباد الله المكلفين من الإنس والجن فى الصلاة.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول عدد من القواعد الرئيسية للعقيدة الإسلامية، وفى مقدمتها الإيمان بالله - تعالى - وتوحيده التوحيد الخالص لذاته العلية، وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله من قبيل نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد إليه - سبحانه وتعالى -، وغير ذلك من صفات المخلوقين؛ لأن الله - تعالى - منزه عن جميع صفات خلقه. ومن ركائز العقيدة الإسلامية فى سورة الصافات الإيمان بالله، وبملائكته، وبكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره؛ والإيمان بالوحى وحقيقته، وبالبعث بعد الموت وبحتميته وضرورته، وبالخلود فى الآخرة إما فى الجنة أو فى النار، وإنها لجنة أبدًا، أو نار أبدًا، كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -.

وفى سبيل الدعوة إلى الإيمان بهذه الركائز الإسلامية، والعمل على ترسيخها فى العقول والقلوب أشارت سورة «الصافات» إلى العديد من أشياء الكون وظواهره، ووظفتها فى الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وفى الشهادة للخالق - سبحانه وتعالى - بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالقدرة على البعث، كما وظفتها فى إقامة الحجة على أهل العلم - فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه - بأن القرآن الكريم لايمكن أن

يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، وبأن الرسول الخاتم الذى تلقاه كان موصولا بالوحى، ومُعَلَّما من قبَل خالق السماوات والأرض.

وفى نفس الوقت، وظفت سورة «الصافات» هذه الإشارات الكونية فى تفنيد دعاوى المبطلين من أهل الكفر والشرك والضلال، وفى تطهير العقول والنفوس من هذا الكم الهائل من الخرافات والأساطير التى نسجتها أنماط عديدة من العقول المريضة عبر التاريخ، انطلاقًا من همزات شياطين الإنس والجن، وتخرصات المبطلين، وشهوات الطامعين فى شىء من حطام هذه الدنيا الفانية. . !!

عرض موجز لسورة «الصافات»

استهلت سورة الصافات بقسم من الله ـ تعالى ـ بملائكته الكرام، وبعدد من الوظائف التى أمروا بها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن القسم لعباده، ثم يأتى جواب القسم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات: ٤].

وهو قرار إلهى يقتلع كل جذور الكفر والشرك والضلال من العقول والقلوب التى عششت فيها تلك الانحرافات الفكرية، وما أكثرها فى تاريخ البشرية الطويل، خاصة فى زمن الفتن التى تظلل أغلب أهل الأرض فى هذه الأيام. . !!

وتشير السورة الكريمة إلى محاولات مردة الجن وشياطينهم لاستراق السمع عن أهل السماء، وأكدت أن الله ـ تعالى ـ قد سخر الشهب الثاقبة لتَتَبُّعِهِمْ ودَحْرِهِمْ، وتوعدهم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعذاب شديد.

ثم يتوجه الخطاب بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بالأمر الإلهى أن يسأل منكرى البعث، المستبعدين لإمكانية وقوعه أن ينظروا فى خلقهم من طين لازب، وأن يُقَدِّرُوا محدودية كل فرد منهم بحدود مكانه فى بقعة محددة من الأرض، وبحدود زمانه (أى أجله)، ومقارنة ذلك بخلق السماوات والأرض بأبعادهما المذهلة، وأعمارهما المتطاولة، فيدركوا أن الذى خلقهم من طين لازب، وحددهم بحدود المكان والزمان، وخلق الكون بهذا الاتساع، والضخامة فى الأبعاد، وتعدد الأجرام، وتنوع صفاتها، هذا الإله الخالق قادر على بعثهم، وبعث آبائهم الأولين وهم أذلاء صاغرون.

ثم تعرض سورة «الصافات» لموقف من مواقف الآخرة، وقد أطلقت صيحة

البعث وجميع الذين كانوا ينكرونه فى الدنيا، وكانوا يسخرون من إمكانية وقوعه، وهم يخرجون من قبورهم مشدوهين، فزعين، مذعورين، وهم يقولون : ﴿ يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الصافات : ٢٠].

فيسمعون الرد عليهم فى قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢١ ـ ٢٤].

وتستطرد الآيات (الصافات : ٢٥ ـ ٧٤) فى استكمال عرض هذا المشهد، والكفار والمشركون، والعصاة الظالمون عاجزون عن مناصرة بعضهم بعضًا، والذين اتبعوا من المشركين وشركاؤهم يتلاومون، ويتبادلون تهم الضلال والغواية، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٣ ـ ٣٩].

وفى ذلك تأكيد لنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وشهادة من الله ـ تعالى ـ على صدق رسالته، وبرهان على وحدة رسالة السماء، وعلى أخوة الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين ـ، وهو فى الوقت نفسه رد إلهى جازم على الذين كذبوا ببعثته الشريفة، وتطاولوا على شخصه الكريم بأقلامهم الرخيصة، أو بألسنتهم البذيئة فى الإذاعات والفضائيات المأجورة الغربية من مثل «قناة الموت» المسماة كذبًا باسم «قناة الحياة» وادعاءاتها الباطلة، المختلفة والمفتراة وكلها مستمد من «كتاب الضلال» المسمى زوراً باسم «الهداية» والذى نشره الصهيونى المتنصر صموئيل زويمر ـ عليه لعنةالله ـ أو تستروا وراء شاشات «الشبكة العنكبوتية» كخفافيش الظلام ينفثون فيها جهلهم الفاضح، وأحكامهم الجائرة، وأحقادهم المريضة، وسمومهم البغيضة ضد الإسلام، وضد نبيه الكريم، وضد رموزه من عظماء المسلمين، بل ضد جميع المسلمين بما لايستطيع هؤلاء الأقزام

المأجورون أن يقولوه مواجهة، لجبنهم وعجزهم، وضعف حجتهم، وسقوط كل دعاواهم الباطلة. وهم يفعلون ذلك طمعا فى الصد عن دين الله الخاتم الذى لايرتضى ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينا سواه، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم تقارن الآيات فى سورة «الصافات» بين إكرام الله تعالى لعباده المؤمنين بتنعيمهم فى جنات الخلد، وبالفوز العظيم برضاه - سبحانه وتعالى - وبين ما يلقاه كل من الكفار والمشركين المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من عذاب فى الدنيا، ونار جهنم فى الآخرة، وهم يصطلون بجحيمها، ويأكلون من زقومها، وعليهم شوب من حميم.

وتستمر الآيات فى هذه السورة المباركة مؤكدة أن أكثر الأمم السابقة على بعثة الرسول الخاتم ﷺ كانوا قد ضلوا ضلالا بعيداً على الرغم من إرسال عدد من الأنبياء والمرسلين إليهم، منذرين من مغبة الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به، أو معصيته والانحراف عن المنهج الذى وضعه لاستقامة الحياة على الأرض، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

[الصافات: ٧١- ٧٤].

ولإثبات ذلك استعرضت سور «الصافات» فى أربع وسبعين آية من آياتها [٧٥ - ١٤٨] سير عدد من أنبياء الله ورسله منهم: نوح، إبراهيم وولداه: إسماعيل وإسحاق، موسى، وهارون، إلياس، لوط، ويونس - على نبينا وعليهم جميعًا من الله السلام -. وفى قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين تجلت معية الله - تعالى - لهم ولعباده المؤمنين، ورحمته بهم، وتعهده بنصرهم وبدحر أعدائهم من الكفار والمشركين والظالمين، والتنكيل بهؤلاء الضالين فى الدنيا قبل الآخرة.

وكان من الفريد فى قصص هؤلاء الأنبياء قصة نبى الله يونس عليه السلام الذى لبث فى قومه (أهل نينوى) ردحًا من الزمن يدعوهم إلى دين الله الخالص فلم يطيعوه، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضبًا من بين ظهرانيهم من قبل أن يأذن الله - تعالى - له بذلك، وركب البحر وبدأت السفينة تترنح، وكادت أن

تغرق، فاقترع أصحاب السفينة على ركابها وخرجت القرعة على نبى الله يونس (عليه السلام) فألقى به فى البحر فالتقمه الحوت، ولكن مع ترديده هذا الدعاء المنجى من كل كرب: (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) استجاب الله ـ تعالى ـ لدعائه فلفظه الحوت بالعراء وهو سقيم، وأظله الله ـ تعالى ـ بشجرة من يقطين فنجاه وشفاه مما كان يعانيه، وهنا يبرز السؤال: لماذا كانت الشجرة من يقطين؟

وتعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ليقوم بالرد على عدد من الخرافات والأساطير التى ابتدعها أهل الزيغ والضلال من الكفار والمشركين، والتى منها: الادعاء الباطل بوجود نسب بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبين الجن، وأنه بناء على هذه االعلاقة المختلقة بواسطة تصوراتهم السقيمة، ونفوسهم المريضة كانت الملائكة وقد ادعى هؤلاء المبطلون عليهم بأنهم إناث... !!

وكذلك الادعاء الباطل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنسبة الصاحبة والولد إليه وهما من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه تنزيهًا كاملاً عن جميع صفات خلقه، ولذلك قال عز من قائل:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات ١٤٩ ـ ١٥٩].

وتكرر الآيات فى خواتيم سورة «الصافات» وعد الله لأنبيائه ورسله، ولجنده المؤمنين بالنصر والتمكين، وهو وعد حق، تعهد ـ سبحانه وتعالى ـ به، والله لايخلف الوعد ولا الميعاد. ولذلك تطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ باعتزال الكفار والمشركين؛ لأنهم يستعجلون نزول عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا

يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٩].

وتختتم سورة الصافات بتنزيه من الله - تعالى - لذاته القدسية موجهًا الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢].

وفى ذلك تأكيد على ربوبية الخالق - سبحانه وتعالى -، وتنزيهٌ له - جل شأنه - عن كل وصف لا يليق بجلاله مما ادعى به كثير من المشركين، وتوقير لجميع رسل الله، وذكرهم بالسلام عليهم، وحمدا لله على فيض نعمه فى كل وقت وفى كل حين.

نبى الله يونس فى القرآن الكريم

جاء ذكر نبى الله يونس عليه السلام فى القرآن الكريم ست مرات، أربع منها باسمه الصريح (النساء : ١٦٣، الأنعام : ٨٦، يونس : ٩٨، والصافات : ١٣٩)، والخامسة جاءت بكنيته : ذا النون (الأنبياء : ٨٧)، والسادسة جاءت بصفته : صاحب الحوت (القلم : ٤٨)، وتكريمًا له عليه السلام سمى ربنا - تبارك وتعالى - إحدى سور القرآن الكريم باسمه وهى سورة «يونس».

وهذا النبى الصالح عرفه لنا المصطفى ﷺ باسم «يونس بن متى»، وذلك بقوله الشريف : «لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» (البخارى ومسلم)[1].

ويعرف نبى الله يونس بن متى عليه السلام عند أهل الكتاب باسم «يونان بن أمتَّاى» **(Jonah son of Amittai)**، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أهل نينوى، وهى محافظة فى أقصى الشمال الغربى من الجمهورية العراقية (التى ندعو الله - تعالى - أن يعجل بتحريرها من دنس الاحتلال الأنجلو أمريكى الصهيونى الصليبى الغاشم والبغيض، فى أقرب وقت ممكن إن شاء الله - تعالى). وتعرف محافظة نينوى اليوم باسم محافظة الموصل، ومدينة نينوى كانت عاصمة الإمبراطورية الآشورية بعد مدينة

(١) [صحيح] البخارى (٣٣٩٥ و٣٤١٦ و٧٥٣٩)، ومسلم ص (١٨٤٦).

آشور، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد وصلت أوج ازدهارها بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ولكنها دمرت حوالى سنة ٦١٢ ق. م. بعد غزو الميديين (The Medes) لها، وإن سكنتها بعض القبائل حتى العصور الوسطى. وبقيت أطلالها على الضفة الشرقية من نهر دجلة فى مقابلة مدينة الموصل تقريبًا، ولا يفصلهما إلا النهر. وكان أهل نينوى قد انتكسوا إلى عدد من الوثنيات القديمة وعبدوا الأصنام بعد أن عاشوا فترة على التوحيد الخالص لله، ثم بعث الله ـ تعالى ـ إليهم نبيه يونس ﷺ. وأقام فيهم ردحًا من الزمن يدعوهم إلى دين الله، ويقدم لهم الدليل تلو الدليل، ويقيم عليهم الحجة تلو الحجة، فأطاعوه واتبعوه، ثم عصوه، وكذبوا دعوته، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضبًا من بين ظهرانيهم قبل أن يأذن الله ـ تعالى ـ له بالخروج، فلامه الله ـ تعالى ـ على ذلك، بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

[الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

وفى مقام آخر قال تعالى:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]

ومعنى هذه الآيات المباركات أن يونس ﷺ حين خرج من نينوى مغاضبًا لقومه ركب البحر فى محاولة للابتعاد عنهم، ولكن القرآن الكريم لم يحدد لنا اسم البحر، ولذلك تساءل المفسرون: هل من الممكن أن يكون هو نهر دجلة؟، أو إحدى البحيرات القريبة من نينوى مثل بحيرة أرميا فى أقصى الشمال الغربى من إيران؟ أو البحر الأبيض المتوسط؟ والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو وحده الذى يعلم حقيقة هذا

الوسط المائى الذى التقم أحد حيتانه العملاقة نبى الله يونس ﷺ . ومع هول المفاجأة ظل نبى الله يونس يردد هذا الدعاء المنجى : «**لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**» فاستجاب الله لاستغاثاته، وأمر ذلك الحوت أن يلفظه إلى جانب البر حيا، وخرج يونس ﷺ سليمًا، معافى، فاهمًا لحقيقة الدرس الذى كان من أهدافه ألا يتصرف فى شأن من شئون الدعوة بغير أمر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وتروى لنا الآيات بعد ذلك أن الحوت لفظ عبد الله ونبيه «يونس بن متى» ملقيا به على الساحل، وهو فى حالة من الإعياء والذهول والهزال الشديد. فأنبت الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه شجرة من يقطين، أظلته، وسترته، وربما تناول شيئًا من ثمارها فعافاه الله تعالى من سقمه، وغفر له ذنبه، وهو ـ سبحانه ـ غفار الذنوب.

وهذه المعجزة التى أحدثها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه يونس ﷺ معجزة إلهية حقيقية، والمعجزات لا تعلل، ولاتفسر، لأنها خارقة لقوانين الدنيا، وإن كان العلم يؤكد إمكانية ابتلاع أحد حيتان البحر العملاقة لرجل، وبقاء هذا الرجل حيا فى فمه لبعض الوقت دون أن يصيبه أذى كبير، ثم يلفظه الحوت، خاصة إذا كان من نوع الحوت الأزرق (الهركول العملاق)، الذى يبلغ طوله نحو العشرين مترًا، ويتميز بأنه لا أسنان له، وحلقه أضيق من إمكانية ابتلاع جسد الرجل.

ثم رأى قوم يونس، بعد مغادرة نبيهم لأرضهم وهو مغاضب لهم أن إرهاصات العذاب الذى توعدهم به قد بدأت فى الظهور، فسارعوا بالتوبة إلى الله وبالإنابة إليه حتى كشف عنهم العذاب وعادوا مسلمين لله، موحدين لجلاله، مقيمين لشعائره، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [يونس : ٩٨].

وبعد خروجه من ابتلاءاته عاد يونس ﷺ إلى قومه وقد شفاه الله وعافاه، فوجدهم قد نبذوا الأصنام والأوثان. وعادوا إلى توحيد الله وعبادته وحده بما أمر، فسعد بهم وسعدوا به، وعاش بينهم داعيًا إلى الله على بصيرة حتى لقى ربه راضيًا مرضيًا. وعاش أهل نينوى على التوحيد الخالص لله إلى ما بعد وفاة نبيهم يونس ﷺ ، ثم عاود الشيطان الوسوسة إليهم حتى اجتالهم مرة أخرى، وحرفهم عن

دين الله، وأعادهم إلى وثنياتهم الأولى فضلوا ضلالاً بعيدا، وإن بقى فيهم بعض الأحناف الذين احتفظوا ببقايا الحق القديم، وكان منهم «عداس» الذى شهد لرسول الله ﷺ بالنبوة حين مر ﷺ ببستان كان يعمل فيه فى طريق العودة من الطائف إلى مكة المكرمة.

من الإشارات العلمية فى سورة الصافات

جاء فى سورة الصافات عدد من الإشارات العلمية التى يمكن إيجازها فى النقاط التالية:

(١) الإشارة إلى مابين السماوات والأرض، على ضخامة أبعاد السماوات، وضآلة أبعاد الأرض، مما يشير إلى مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، وقد أشار إليها المصطفى ﷺ فى أكثر من حديث، ويعجز العلم الكسبى عن تحقيقها. ووجود إشارات فى التراث القديم لتلك الحقيقة قد يكون من بقايا الوحى السماوى الذى أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قبل بعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

(٢) وصف الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لذاته العلية بأنه رب المشارق، وفى هذا الوصف من الحقائق العلمية مايشمل كلا من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وميل هذا المحور على مستوى الدوران، وجرى الأرض فى مدار محدد لها حول الشمس.

(٣) الإشارة إلى أن زينة السماء الدنيا هى الكواكب، وفى مقام آخر يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ** ﴾ [الملك: ٥]. وإجماع أهل العلم على أن المقصود بالتعبير القرآنى مصابيح هو النجوم، والجمع بين النجوم والكواكب، ورجوم الشياطين ـ الشهب والنيازك ـ فيه إشارة إلى وحدة البناء فى الكون، مما يشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ يخلق النجوم من دخان السماء، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعيد النجوم بانفجاراتها إلى دخان السماء، والكواكب والشهب والنيازك مفصولة أصلاً عن النجوم، أو هى من نواتج انفجار النجوم.

(٤) الوصف القرآنى للشهاب بأنه شهاب ثاقب، بمعنى ثقبه لظلمة السماء ثم

للغلاف الغازى للأرض، وذلك بتحركه بسرعات كونية هائلة قبل احتراقه بالكامل، وفى ذلك إشارة إلى تلك السرعات الفائقة التى يتحرك بها كل من النيازك والشهب.

(٥) الإشارة القرآنية إلى خلق الإنسان من طين لازب تؤكدها كل الدراسات العلمية المتقدمة لجسم الإنسان وتركيبه الكيميائى والمعدنى.

(٦) ذكر عدد كبير من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة الرسول الخاتم - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -، وسرد جوانب من قصصهم وأحوال أممهم بدقة تاريخية مذهلة، ودون أدنى خطأ واحد، وذلك من قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين، وفى أمة لم تكن أمة تدوين، وهذه الدقة التاريخية يفتقر إليها ما بقى بين أيدى الناس اليوم من ذكريات صحائف أهل الكتاب وجميع كتب التاريخ.

(٧) اختيار شجرة من يقطين - دون غيرها من أنواع النباتات - وجعلها ستراً وظلالة لنبى الله يونس ﷺ بعد أن أنقذه الله - سبحانه وتعالى - من فم الحوت الذى كان قد التقمه، مما يشير إلى ما فى اليقطينيات من فوائد علاجية وغذائية لمن كان فى مثل ظروف نبى الله يونس ﷺ فى أثناء ابتلائه بالحوت.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الأخيرة فى القائمة السابقة، وقبل الوصول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هاتين الآيتين الكريمتين رقم [١٤٥، ١٤٦ من سورة «الصافات»].

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى -:

﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

[الصافات: ١٤٥- ١٤٦].

* ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس: هى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء، قيل على جانب دجلة،

وقيل بأرض اليمن، والله أعلم، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى ضعيف البدن. . . ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: (اليقطين) هو القرع، وقال سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين، وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهى من اليقطين، وذكر بعضهم فى اليقطين أى الدباء أو القرع فوائد منها: سرعة إنباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لايقربه الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضًا، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشى الصفحة.

* وجاء فى كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعانى القرآن، والمنتخب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير كلام مشابه لكلام ابن كثير، ولا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين

بتأمل هاتين الآيتين الكريمتين (١٤٥، ١٤٦ من سورة «الصافات») يتبادر إلى الذهن اختيار الله - سبحانه وتعالى - للتعبير القرآنى شجرة من يقطين لحماية عبده ونبيه يونس بن متى - على نبينا وعليه من الله السلام - بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، أى: وهو منهك القوى من شدة المرض، وهذا التنكير فى الإشارة إلى شجرة اليقطين يفيد بأن الشجرة من جنس اليقطين الذى عرفه العرب ومنه كل من قرع الكوسة، والحنظل، وليست نوعًا محددا بذاته.

واليقطين ينتمى إلى مجموعة من النباتات العشبية، الزاحفة، التى تفترش الأرض، ومنها ماله قدرة على التسلق **بواسطة عدد من المحاليق الملتوية، التى تخرج من جوانب الساق بالقرب من أعناق الأوراق، ومنها الحولى،** ومنها المعمر، وتمتاز كلها بالسيقان العشبية الخماسية الأضلاع، وبالأوراق الكبيرة، الراحية أى الشبيهة براحة الكف، وهى مفصصة، ومتبادلة، ولها أعناق طويلة، بغير أذينات؛ وتمتاز بالوبر الكثيف الذى يغطى كلاً من السيقان والأوراق. وبالزهور الأحادية الجنس - أى المؤنثة أو المذكرة - التى تخرج من آباط الأوراق، وبالثمار اللبية/ الشحمية، المتباينة الأشكال، والأحجام، والألوان، والطعوم والروائح، والحاوية لأعداد من البذور.

وهذه النباتات تنطوى كلها فى عائلة واحدة تعرف باسم العائلة اليقطينية أو القرعية (Family Cucurbitaceae)، وفى رتبة واحدة تعرف باسم رتبة اليقطينيات. أو القرعيات (Order Cucurbitales)، وتشمل العائلة اليقطينية حوالى المائة جنس، يمثل كل منها بعشرة أنواع على الأقل، أى تحتوى على حوالى الألف نوع، تنتشر فى المناطق المدارية، وشبه المدارية من الكرة الأرضية، ومن أمثلتها : قرع الكوسة (أو الدباء) (Cucurbita pepo)، القرع العسلى (Cucurbita maxima) العجور، (Cucurbita melo var. flexuosus) الخيار، (Cucumis sativus) الشمام (Cucumis dudaim)، البطيخ، (Citrullas lanatus)، القاوون (Citrullus melo)، قرع الأوانى (أو قرع الزجاجة) (Lagenaria siceraria or L. vulgaris)، الليف (Luffa cylindrica)، والحنظل (Citrullus colocynthis).

ولما كانت هذه النباتات كلها من النباتات العشبية، ومن ثم يصعب وصفها بالأشجار؛ لأنه من المتعارف عليه أن الأشجار لها سيقان خشبية قوية، قائمة بذاتها، واليقطينيات سيقانها طرية، وغير قائمة بذاتها، يمكن افتراض أن الشجرة التى أنبتها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عبده ونبيه «يونس بن متى» كانت شجرة خاصة تجمع بين صفات اليقطينيات وصفات الشجر، ولكن لما كان القرآن الكريم قد عبر بالتعبيرين شجرة وأشجار عن النبات عمومًا، كما عبر بالتعبيرين دابة ودواب عن عالم الحيوان بأكمله، لانرى حاجة لهذا الافتراض. وإن كان فى المنظور العلمى لا يوجد مايمنع اليقطينيات من إمكانية التواجد على هيئة شجرية، على الرغم من ضخامة ثمارها التى قد يصل وزن الواحدة منها إلى أكثر من عشرة كيلو جرامات، وقد أفلحت التجارب الزراعية بالفعل فى تحقيق نمو بعض النباتات العشبية فى هيئة قائمة إما بمساعدة الأسلاك بداخل الصوب النباتية، أو بالمعالجة ببعض الهرمونات، أو باستخدام بعض وسائط الهندسة الوراثية، فإذا كان الإنسان قد حققه فإنه لا يعجز رب الإنسان.

(وأنبتنا عليه شجرة من يقطين)

من المقطوع به أن الشجرة التى أنبتها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ليظلل بها على عبده ونبيه يونس بن متى ﷺ، ويستره بأوراقها الكبيرة، ويداويه من سقمه بما فى

أوراقها، وزهورها، وثمارها، وأغصانها، وسيقانها، وعصائرها من مركبات هى شجرة خاصة معجزة، أنبتها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بأمره الذى لايرد، إلا أن الصياغة القرآنية : شجرة من يقطين توحى بأن المقصود هو عموم اليقطين الذى نعرفه . وهنا يظهر التساؤل المنطقى : وماذا فى اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التى مر بها نبى الله يونس ﷺ بعد أن التقمه الحوت ولفظه بالعراء وهو سقيم، أى مريض منهك القوى؟

وقد حاول الأخ الكريم الدكتور كمال فضل الخليفة ـ الأستاذ المشارك لعلم النبات بجامعة الخرطوم ـ الإجابة عن هذا السؤال فى رسالتين جامعيتين تمتا تحت إشرافه للحصول على درجة الماچستير فى العلوم، وأعد موجزًا عن نتائجهما فى مقال بعنوان «اليقطينيات وقاية وعلاج وغذاء»، نشره فى العدد الرابع عشر من مجلة الإعجاز العلمى الصادر بتاريخ الأول من ذى القعدة سنة ١٤٢٣ هـ.

وفى هذا المقال ذكر الباحث أنه اختار أربعًا من اليقطينيات المشهورة فى البلاد العربية وهى : قرع الأوانى، والقرع العسلى، والعجور، والحنظل، وقام بزراعتها وتعهدها حتى أثمرت، وجنى ثمارها، وفى هذه المراحل المختلفة قام بتحضير مستخلصات من مختلف أجزاء هذه النباتات الأربع مستخدمًا كلاً من الماء، والكحول الميثانولى، والكلوروفورم فى كل حالة، وتم له اختبار تلك المستخلصات ضد أربعة أنواع مختلفة من البكتريا فأظهرت جميعها فعالية واضحة فى مقاومتها مع اختلاف درجة تلك المقاومة باختلاف نوع النبات، واختلاف الأجزاء المختارة منه، والسائل المستخدم فى عملية تجهيز المستخلصات، ونوع البكتريا التى استخدمت تلك المستخلصات فى إبادتها.

وكانت أعلى درجات المقاومة من المستخلصات المستمدة من الزهور بصفة عامة، ومن زهور وثمار الحنظل بصفة خاصة، ثم من أوراق القرع العسلى، وكان الكحول الميثانولى أفضل سوائل الاستخلاص.

كذلك أثبت الباحث الأثر الواضح لليقطينيات الأربع المدروسة فى مقاومة وطرد بعض الحشرات من مثل الذبابة المنزلية، وآفات المخازن، وفى الوقاية من الأمراض التى يمكن لهذه الحشرات أن تنقلها.

وقـد ثبت أن هذه المقدرة على مـقاومـة الحـشرات مـردها إلى وجود العـديد من المركبـات الكيمـيائية المهـمة التى لهـا تأثير وقائى وطبى واضـح فى مقاومـة وعلاج العديد من الالتـهابات الجلدية وتقرحاتهـا، والأمراض التى يمكن أن تنتج عن ذلك. وقد ثبت بالفعل أن هذه المركبـات الكيميائية لها تأثيراتهـا الفاعلة فى علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمى والبولى، وفى مقاومة بعض الأمراض السرطانية ــ عافانا الله جمـيعًـا منها ــ . هذا بالإضـافة إلى القـيمة الغـذائية العـالية لثـمار اليقطـينيات المأكولة، والقيمة الطبية للثمار التى لا تؤكل مثل ثمار الحنظل.

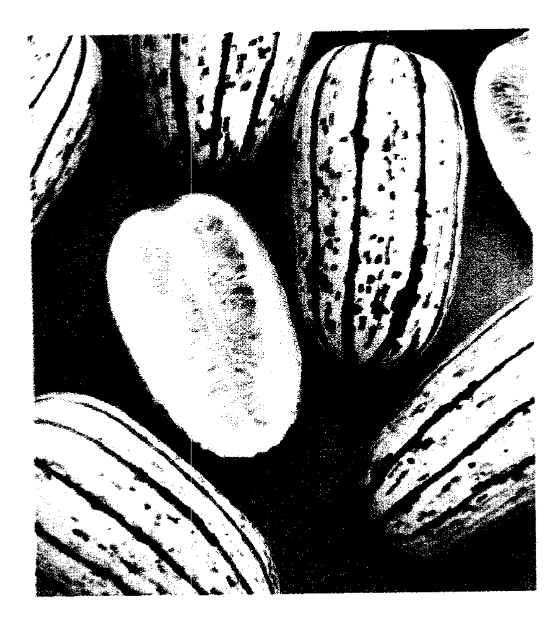
وهنا تتضح روعة الإشارة القرآنية المبهرة فى قول الحق تبارك وتعالى :

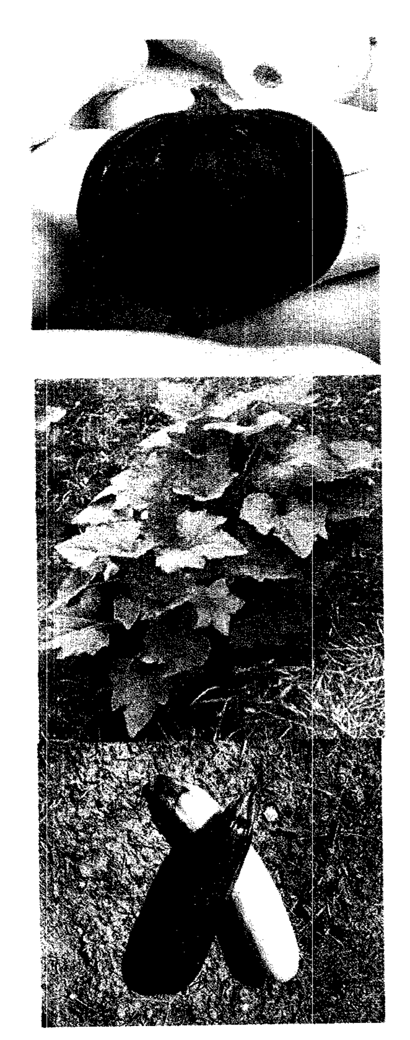
﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [الصافات : ١٤٦]. خاصة إذا أدركنا أن القرآن الكريم قد أنزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة من السنين على نبى أمى ﷺ ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين . ، فمثل هذه الومضات النورانية فى كتاب الله أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ شاهدة له بطلاقة القدرة على الخلق ، وعلى البعث ، ومؤكدة ألوهيته ، وربوبيته ، ووحدانيته ، وشاهدة للقرآن الكريم بأنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية ، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ، وتعهد بحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ، فبقى محفوظًا بحفظ الله كلمة كلمة ، وحرفًا حرفا على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا وسوف يظل محفوظًا بهذا العهد إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها .

وتبقى هذه الإشارات العلمية فى كتاب الله حجة على أهل عصرنا وشاهدة لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة ، وبأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان موصولاً بالوحى ، ومُعلَّما من قبل خالق السماوات والأرض .

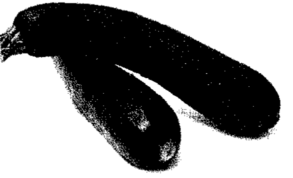
فالحمد لله على نعمة الإسلام ، والحمد لله على نعمة القرآن ، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين ، فصلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبع هداه ، ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين .

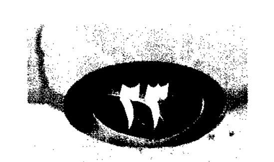
❊ ❊ ❊











بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

(عبس : ٢٤)



هذه الآية الكريمة جاءت فى أوائل النصف الثانى من «سورة عبس»، وهى سورة مكية، وعدد آياتها اثنتان وأربعون بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسى حول قيمة إسلامية كبرى مؤداها أن التفاضل بين الناس لا يكون إلا على أساس من تقواهم لله، بغض النظر عن أنسابهم، وإمكاناتهم المادية، ومستوياتهم الاجتماعية، وجاههم، وسلطانهم، وأعمارهم، وألوانهم، وأجناسهم.

وهذه القيمة الإنسانية أراد الله تعالى غرسها فى قلوب وعقول الناس منذ أول أيام الدعوة الإسلامية المباركة، ووضحها بواقعة حدثت مع رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة حين انشغل بدعوة نفر من زعماء قريش إلى دين الله الخاتم، وأعرض عن صحابى كفيف، من أوائل المسلمين، جاء يسأله فى أمر من أمور الدين، فأنزل الله - تعالى - فى مطلع هذه السورة المباركة عتابا لرسوله ونبيه الخاتم ﷺ حتى يؤكد الحقيقة التى أنزلها فى مقام آخر من محكم كتابه بقوله - عز من قائل - :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن أجل إقرار هذه القيمة الإنسانية، أنزل الله - سبحانه وتعالى - من فوق سبع سماوات هذا العتاب الشديد لأحب الخلق إليه، وأقربهم إلى رضوانه، لتبقى هذه القيمة حاكمة للمجتمعات البشرية إذا أرادت أن تعيش حسب منهج الله، وأن تحقق رسالتها فى هذه الحياة. ولذلك حفظ هذا العتاب فى كتابه الكريم الذى سيظل يتلى إلى يوم الدين. تذكرة للناس بهذه القيمة الإنسانية النبيلة.

وتلمس السورة الكريمة جانبًا من جوانب جحود الإنسان لخالقه - سبحانه وتعالى - وتذكره بأصله ونشأته، وتهيئة الله - تعالى - له، وتيسير السبل أمامه، كما تذكره بنهاية حياته الدنيوية بالموت والقبر، ثم إعادة بعثه ونشره ليلقى حسابه وجزاءه فى الآخرة، وعلى الرغم من ذلك كله فإنه لايتقيد فى الغالبية العظمى من أحواله - بأوامر الله ولا يقوم بتنفيذها.

وترد الآيات على هذا الجحود الإنسانى باستعراض عدد من دلائل القدرة الإلهية المبدعة فى خلق الإنسان، وإعداد طعامه وطعام أنعامه، وتذكره بالآخرة وأهوالها وشدائدها وذلك باستعراض عدد من مشاهدها، وتصوير انعكاس ذلك على الخلائق الذين سوف يتمايزون فيها إلى مؤمن مستبشر سعيد، وكافر شقى تعيس.

عرض موجز لسورة عبس

تبدأ السورة الكريمة بالإشارة إلى واقعة الصحابى الجليل «عبدالله عمرو بن قيس المعروف باسم ابن أم مكتوم» فى مكة المكرمة قبل الهجرة بعدة سنوات، وكان الرجل مكفوف البصر، ولكنه كان مفتح البصيرة فبادرمبكرًا بقبول الإسلام دينًا. وجاء فى يوم من الأيام إلى رسول الله ﷺ يسأله فى أمر من أمور الدين، والرسول منشغل فى مناقشة عدد من زعماء قريش ودعوتهم إلى دين الله الخاتم، لعل الله ـ تعالى ـ أن ينصر بهم هذا الدين الذى كانوا يقفون منه موقف المعاداة والصد، وفى هذه المعمعة كان ابن أم مكتوم يلح فى توجيه أسئلته، والرسول ﷺ يتمنى لو انتظر قليلا حتى يتمكن من الوصول إلى قناعة مع هؤلاء النفر من رءوس قريش، ولكن ابن أم مكتوم استمر فى إلحاحه بالسؤال، فعبس وجه رسول الله ﷺ ، وتولى عنه، وإن لم يدرك هذا الكفيف ذلك. إلا أن الله ـ تعالى ـ أنزل وحيه بهذه السورة المباركة يعاتب فيها سيد المرسلين عتابًا شديدًا بخطاب الغائب أولا، ثم بتوجيه الخطاب إليه مباشرة والذى يقول فيه:

﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾ [عبس١ : ١٦].

وبعد نزول هذه الآيات كان رسول الله ﷺ يكرم ابن أم مكتوم كلما رآه، ومن ذلك الإكرام كان استخلافه على المدينة المنورة مرتين، وقد كان من المهاجرين الأوائل إليها، واستشهد بالقادسية ـ رضى الله تبارك وتعالى عنه وأرضاه ـ.

كذلك يروى عن رسول الله ﷺ أنه ما عبس فى وجه فقير قط بعد هذه الواقعة، ولا تصدى لغنى قط، ويروى لنا سفيان الثورى رضي الله عنه أن الفقراء كانوا أمراء فى مجلسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن الدروس المستفادة من هذه الواقعة أنه يجب على الداعى إلى دين الله ألا يخص بالدعوة أحداً دون أحد، فالله ـ تعالى ـ وحده هو الذى يعلم أين يكمن الخير، والدعوة إلى دين الله الخاتم يجب أن تكون للناس كافة بغض النظر عن أعراقهم، وأنسابهم، وأجناسهم، وأعمارهم، وإمكاناتهم المادية، ومستوياتهم الاجتماعية، وغير ذلك من الفوارق الطبقية التى لايقرها الإسلام ولا يرضاها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أساسا للتفضيل بين خلقه.

ولقد كان فى إعلان رسول الله ﷺ لهذا العتاب الإلهى الشديد لشخصه الكريم أبلغ الشهادات على صدق نبوته، ونبل رسالته، وكمال عبوديته لله الخالق، فلا يقوى على إبراز مثل هذا العتاب للناس كافة، وعلى مر الدهور والأيام إلا نبى كريم، يعرف حقوق ربه عليه، وقدسية الوحى الذى يتنزل إليه بكلمات الله التامات المنزهة عن الحذف أو الإضافة أو غير ذلك من المداخلات البشرية التى تعرضت لها الرسالات السماوية السابقة جميعًا ودون استثناء واحد، لأن حفظها ترك لأتباعها فضيعوها.

كذلك كان فى إعلان هذا القرار الإلهى فى وجه زعامات قريش، والمسلمون فى مكة المكرمة قلة مستضعفة وسط بيئة جاهلية، تقتلها العصبيات العرقية العمياء، وتحكمها الأعراف الظالمة الجائرة، كان فى ذلك واحدة من أعظم الشهادات على أن هذا النبى والرسول الخاتم ﷺ كان موصولاً بالوحى، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، ومؤيداً بتأييده الذى لا يضام..!!

وتستمر الآيات فى تأكيد هذا القرار الإلهى تذكرة من الله ـ تعالى ـ لمن شاء أن يتذكر، خاصة أن التذكرة مدونة فى صحائف القرآن الكريم، وهى صحف مكرمة عند رب العالمين، مرفوعة مطهرة بتكريم الله لها، وحفظه إياها، وأشارت الآيات إلى أن هذه الصحائف مطهرة من أية مداخلات وضعية، أو تحريفات بشرية، أو محاولات للتزييف كالتى أصابت جميع الرسالات السابقة، أما الرسالة الخاتمة، فلكونها خاتمة، فهى محفوظة ﴿**بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾ وهم الملائكة المكرمون.

وإذا ما عاشت المجتمعات الإسلامية بهذه المعايير الربانية التى ترجح أهل الصلاح والتقوى والورع على أهل الفساد، والاحتيال، والشراهة والطمع، فإنها تحقق منهج الله فى الأرض وتقيم عدله عليها. وعلى العكس من ذلك فكلما ساد الظلمة الفجرة من أهل الضلال والخبث، وأهل التسلق من أجل الوصول إلى مقامات السلطة، وابتزاز العباد، ونهب المجتمعات، وإذلال الناس، والتجبر على الخلق، كلما فسدت المجتمعات وانحرفت عن منهج الله فشقيت وأشقت.. وإذا ما سادت معايير السماء على معايير الأرض سعدت المجتمعات الإنسانية وأسعدت، ولطالما انعكست الأوضاع، وانقلبت الموازين، وسادت معايير الأرض على معايير السماء.. فاضطربت القيم، واختلت المفاهيم، وساد الرعاع، وتكلم فى الناس الرويبضة، وصُدِّقَ الكاذب، وكُذِّب الصدوق.. واؤتُمِنَ الخائن.. وخُوِّن الأمين... فشقيت المجتمعات الإنسانية وأشقت...!!

وتتتابع الآيات بعد ذلك فى تعجب ساخر من موقف الإنسان الذى يكفر بالله، ويتجاهل ضرورة الإيمان به، ويُعْرِضُ عن هدايته، ويستعلى على رسالته وعلى الخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، فَتُذَكِّره الآيات بأصله ومنشئه، وضعفه فى بدايات وجوده، وحاجته إلى رعاية ربه فى مختلف مراحل نموه، وفى جميع لحظات وجوده، وقد أعطاه الله ـ تعالى ـ العديد من المواهب والقدرات، ويسر له سبل الحياة، وطرق الهداية، والإنسان غافل عن ذلك كل الغفلة، فلا يؤدى ما عليه لله ـ تعالى ـ من حقوق، ولا يقوم بدوره على الأرض كما رسمه له خالقه، فما أكفره بنعم الله، وما أجحده بأفضال خالقه عليه...!!

وتعبيراً عن هذا الموقف الجاحد من الإنسان الكافر والمتنكر لأفضال الله ونعمه قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧-٢٣].

ولفظ قتل هنا دعاء على الكافر، ولعن له، وهو من الله ـ تعالى ـ غضب عليه فى الدنيا، وعذاب ومهانة واقعان به لا محالة فى الآخرة، فمهما طال عمره فآخرته الموت والقبر تحت تراب الأرض، وليس له بعد ذلك إلا حساب القبر المرير، ثم البعث وأهواله، والحساب ودقته، ثم الخلود فى نار جهنم.

وتستدل السورة الكريمة على صدق ما جاء بها من حق بالإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة، وتقدير كل صفاته وجنسه، وأجله ورزقه، وتيسير سبل الحياة له، وسبل الهداية أو الضلال حتى يكون سعيدًا أو شقيًا باختياره وإرادته . والنطفة فى اللغة هى القليل من الماء الذى يعدل قطرة، ويقصد بها كل من نطفتى الرجل والمرأة واللذين إذا اتحدا كونا «النطفة الأمشاج» أى المختلطة (اللقيحة)، ويستمر مصطلح «النطفة» و«النطفة الأمشاج» حتى تصل مراحل نمو الجنين إلى طور الحرث ويقصد به الانغراس فى رحم الأم. وبعد خروج هذا الجنين إلى الحياة الدنيا، وانقضاء أجله، قدر الله ـ تعالى ـ عليه الموت ثم البعث والنشور، والحشر والحساب، ثم الخلود فى الحياة الآخرة إما فى الجنة أبدًا أو فى النار أبدًا، إلا أن يشاء الله.

وأمر الإنسان فى بدء خلقه كأمره فى يوم بعثه الذى يصفه المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا ويبلى،إلا عظما واحدا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1] .

وعلى ذلك فإن مصير الإنسان مرهون بيد خالقه من لحظة خلقه نطفة متناهية الضآلة فى الحجم إلى خروجه من بطن أمه طفلاً لا يعلم شيئًا، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ثم مروره بمختلف مراحل الحياة حتى الوفاة، فالله ـ تعالى ـ هو الذى خلقه فى صلب أبيه حين شاء، وأخرجه إلى مسرح الحياة حين شاء، وحيث أراد، وهو ـ سبحانه ـ الذى أنهى حياته حين شاء، وحيث أراد، وأبقاه فى قبره إلى أن يشاء، فإذا جاءت الآخرة بعثه ربه من بين التراب كيف يشاء، وأنشره ليوم الحساب والجزاء، حيث فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، وإنها لجنة أبدا، أو نار أبدا كما أخبر الصادق المصدوق ـ عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

وانطلاقًا من ذلك فعلى كل إنسان عاقل أن يستعد ليوم الحساب، وأن يجدّ من أجل النجاة من أهواله،فالحياة ليست للهو والعبث، ولايمكن أن تقضى سدى،فللإنسان فيها رسالة ذات وجهين: عبادة الله ــ تعالى ــ بما أمر، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها، وإقامة عدل الله فيها.

---

(١) البخارى فى «صحيحه» (٤٩٣٥)، ومسلم (١٤١/ ٢٩٥٥).

والناس فى غالبيتهم الساحقة تغيب عنهم هذه الحقيقة، فيهدرون أعمارهم وهم عن الحق لاهون حتى ينتهى بهم الأجل، فيفاجأون بلحظة الحساب، وما أشقها من لحظة. . !! لذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : ١٧].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بصيغة الاستفهام الاستنكارى التوبيخى، التقريعى للإنسان الكافر، بمعنى ما الذى حمله على الكفر بالله؟، أو ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسان الله ـ تعالى ـ إليه، والصيغة فى الحالين فيها التعجب من شدة كفره، والتأكيد على استحقاقه العقاب بأشد ألوانه. . . !!

ولذلك أتبعت هذه الآيات بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس : ٢٣].

ولفظة (كلاّ) هنا بمعنى (حقّا) إنه لم يفعل ما أمره به الله ـ تعالى ـ فاستحق العذاب الذى حذره ـ سبحانه ـ منه عن طريق الأنبياء والمرسلين.

وبعد ذلك ينتقل السياق إلى استعراض واحدة من آيات الله الكبرى فى الخلق، ألا وهى إعداد الطعام المناسب، والكافى، واللازم لكل حى على الأرض، ومن هؤلاء : الإنسان وأنعامه، ولذلك تلفت الآيات نظر هذا الإنسان الجاحد إلى تلك الحقيقة الواقعة، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢].

والأمر بالنظر هنا ليس المقصود به مجرد النظر للإبصار، ولكنه النظر للاعتبار؛ وذلك لأن الطعام ضرورة من ضرورات الحياة، ولازمة من لوازمها، كما أن الماء ضرورة من ضرورات الحياة ولازمة من لوازمها، ولا يملك إنسان عاقل الادعاء بأن له يدًا فى دورة الماء حول الأرض، والتى لا ينشئها، ولا يحركها إلا الله ـ تعالى ـ بعلمه وحكمته وقدرته، وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ فى الحديث القدسى الذى يرويه عن رب العزة والجلال: «... **أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر،فأما من قال:**

مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بى،كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى،مؤمن بالكوكب» (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : «... **ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله...**»(٢) .

ولا يملك إنسان عاقل كذلك الادعاء بأن له يدًا فى عملية إنبات البذور ، ولا فى شق الأرض لإخراج البادرات النباتية من داخلها . . !! ولا يستطيع الادعاء بأن له يدًا فى إخراج نوع واحد من أنواع نبات الأرض والذى تقدر أنواعه المعروفة لنا بأكثر من ثلاثمائة ألف نوع . ويمثل كل نوع من هذه الأنواع ببلايين الأفراد، وكل نوع من هذه الأنواع ،بل كل فرد من الأفراد له من صفاته الشكلية ، والتشريحية والوظائفية ما يميزه عن غيره .

وقد ضرب الله ـ تعالى ـ لنا فى سورة عبس من نماذج النباتات ما شمل الحبوب ، والأعناب ، والعلف الرطب للبهائم ، والتبن الجاف ، والزيتون ، والنخل ، والحدائق الغُلْب أى الملتفة الأشجار العظام الغليظة ، وأشجار الفاكهة ، والكلأ ، والمرعى ، وهذه النماذج المختارة فى سورة عبس تكاد تغطى كل ما يحتاجه الإنسان وأنعامه ودوابه من النباتات الرئيسة .

وخاتمة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، وخاتمة تمتعه بمباهجها وزخرفها هى الموت ، والقبر ، ثم البعث ، والعرض الأكبر أمام الله ـ تعالى ـ للحساب ، ثم الخلود فى الحياة القادمة إما فى الجنة أبدًا أو فى النار أبدًا ، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى ختام سورة عبس ما نصه :

﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** ﴾

[عبس : ٣٣ ـ ٤٢] .

---

(١) البخارى فى «صحيحه» (٨٤٦)، ومسلم (١٢٥/ ٧١) .

(٢) [صحيح] البخارى (٤٦٩٧) .

والصاخة هي النفخة الثانية فى الصور، وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان من شدتها وقد استخدمت اللفظة كاسم من أسماء القيامة، التى - من تعاظم أهوالها - تجعل الإنسان يفر من أقرب الناس إليه، وألصقهم به . . !!

وبعد الحساب ينقسم الناس إلى أصحاب الوجوه المؤمنة وهى وجوه مسفرة أى مشرقة، مضيئة، ضاحكة مستبشرة بتكريم الله - تعالى - لها فى الجنة، وقد بشرت بها، ووجوه أخرى للكفرة الفجرة، الذين كفروا بالله وبرسالته الخاتمة، وخرجوا على حدوده، وانتهكوا حرماته، وقد علاها الندم والحزن، وارتسمت على قسماتها بوادر الحسرة واليأس، وغشيتها ملامح الذل والعار، وقد علمت أن مصيرها إلى النار . . . !! وعلى هذه الوجوه المؤمنة، وتلك الوجوه الكافرة ترتسم مصائر العباد فى الآخرة، وبذلك وضع الله - تعالى - لنا فى مطلع سورة عبس معياراً من معايير الحق، من التزم به فاز فى الدنيا والآخرة، ومن ضيعه شقى فى الدنيا والآخرة، ووضع لنا فى خاتمة هذه السورة المباركة صورة من صور الثواب والعقاب فى الآخرة، فالتقى أول السورة بخاتمتها فى تزاوج عجيب يشهد لله - تعالى - بطلاقة القدرة التى أودعَتْ كتابه الخالد، هذا الكم من حقائق الوجود فى كل من الدنيا والآخرة.

من ركائز العقيدة فى سورة عبس

من الركائز العقدية التى ألمحت إليها هذه السورة المباركة ما يلى:

(١) الإيمان بالله - تعالى - ربًا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

(٢) التسليم بوحدة الجنس البشرى، وبالأخوة الإنسانية، ومن ثم فإن أساس المفاضلة بين الناس يجب أن يكون هو تقوى الله - تعالى - وخشيته، وحسن عبادته، وليست المستويات الاجتماعية، ولا الإمكانات المادية الزائلة من مال، وجاه، وسلطان.

(٣) اليقين بأن وحى السماء إلى العباد حق، تنقله الملائكة الكرام البررة إلى رسل الله المختارين فى الأرض ليبلغوه إلى الناس، كل إلى أمته، فلما بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كانت رسالته هى الرسالة السماوية الخاتمة، وكانت للناس جميعًا، بغض النظر عن أعراقهم، وألوانهم، ولهجاتهم المختلفة.

(٤) التصديق بأن القرآن الكريم هو آخر صور الوحى المنزلة من الله تعالى هداية للإنسان، وتذكرة له، فمن شاء منهم اهتدى بهديه، ومن لم يشأ فإثمه فوق رأسه، وبما أن القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة فهو محفوظ فى الأرض وفى السماء: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ وقد حفظه الله ـ تعالى ـ منزهًا عن عبث العابثين من شياطين الإنس والجن، وعن أى خلل أو نقص يمكن أن يطوله كما طال الصحف المُنَزَّلَةَ من قبله.

(٥) الإيمان الكامل بأن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان من نطفة فقدره، أى حدد له صفاته الوراثية والعقلية، والجسدية، وحدد له جنسه، وأجله ورزقه، وشقى أم سعيد، ويسَّر له سبل الخروج إلى الحياة، وأساليب الهداية فيها.

(٦) التصديق بأن الموت حق على العباد، وأن البعث والنشور، والحشر والحساب حتمى عليهم كذلك.

(٧) التسليم بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء، وأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أوجد طعام كل حَىٍّ ومن الأحياء الإنسان وأنعامه، ونباتاته التى أنبتها الله ـ تعالى ـ لهم من الأرض بمختلف أشكالها، وألوانها، وطعومها، بقدرة فائقة تشهد له ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية.

(٨) التصديق بالآخرة وأهوالها، وبحتمية وقوعها، وبانقسام الناس فيها بين مؤمن مستبشر سعيد، وكافر شقى تعيس، وشتان بين المصيرين.

من الإشارات الكونية فى سورة عبس

(١) الإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة تحمل كل صفاته، وجميع المقدر له، من تلك الصفات الوراثية، البدنية منها والنفسية؛ لأن لفظ التقدير يعنى التروى والتفكر فى تسوية أمر ما، وتهيئته وتقديره، وقد يقصد بالتقدير هنا تحديد الصفات التى سوف تظهر على الجنين فى المستقبل والتى تعرف بالصفات السائدة، وكذلك الصفات المتنحية التى قد تظهر فى الأجيال المستقبلية من نسله، وبذلك يتم تقدير أوصاف الجنين وتحديدها لذاته ولنسله من بعده إلى يوم الدين.

ويتضمن التقدير الذى يحدث فى النطفة الأمشاج (اللقيحة) تحديد جنس الجنين ذكراً كان أم أنثى، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

(٢) الإشارة إلى انتهاء فترة الحضانة الرحمية بولادة الجنين، وذلك بتذليل طريق خروجه من بطن أمه بيسر إلى الحياة الصاخبة من حولهما، وقد قدر الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ إتمام هذه العملية بإفراز العديد من الهرمونات، والسوائل المخاطية والأغشية ولذلك قال ـ عز من قائل ـ: ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس: ٢٠].

(٣) التأكيد على حتمية الموت، وحقيقة القبر، وضرورة البعث والحساب والجزاء.

(٤) تقرير حقيقة أن الكثير من الناس تمضى بهم الحياة دون أن يعرف الغاية من وجوده فيها أو أن يحقق شيئًا من واجباته فينتهى أجله ليلقى الله ـ تعالى ـ وهو صفر اليدين، مثقل الكاهل بالذنوب ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس: ٢٣].

(٥) لفت أنظار الناس إلى جوانب الإعجاز العلمى فى توفير كل الأسباب اللازمة لخلق طعام الإنسان، وطعام أنعامه، وطعام كل كائن حى على وجه الأرض.

(٦) التلميح إلى دورة الماء حول الأرض بإنزاله من السماء.

(٧) الإشارة إلى شق الأرض بواسطة إنزال الماء عليها أو ريها من أجل إعدادها للإنبات، أو شقها بواسطة البادرات النباتية الخارجة منها وكلاهما صحيح.

(٨) تقرير خلق مختلف أنواع النباتات، وإعطاء النماذج الأساسية لها التى يمكن أن تكون تمثيلا كاملا لمجموعات النباتات الراقية المزهرة، التى تشكل الغذاء الرئيسى لكل من الإنسان وأنعامه (من مثل الحبوب، والأعناب، والقضب (أى البقول والخضروات)، والزيتون، والنخل، والحدائق الغلب، والفاكهة والأب).

(٩) الاستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام فى يوم البعث بعد تحللها إلى تراب.

(١٠) وصف الهلع الذى يصيب الناس يوم البعث بأنه يجعل المرء يفر من أخيه، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]. وما جاء بعدها من آيات (٢٤ إلى ٣٢)، ولكن قبل ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآيات الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

* ذكر الطبري ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ﴾ يعني: الكافر ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كيف دبره الله؟ وقيل إلى مدخله فيه ومخرجه. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ الغيث ﴿صَبًّا﴾، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾: حب الزرع ﴿وَعِنَبًا﴾: كرومًا ﴿وَقَضْبًا﴾ يعني بها: الرطبة، وأهل مكة يسمون القت: القضب ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ بساتين محوطًا عليها ﴿غُلْبًا﴾: غلاظًا يستظل بها ﴿وَفَاكِهَةً﴾ من ثمار الأشجار ﴿وَأَبًّا﴾: ما تأكله البهائم من العشب والنبات ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ تتمتعون بها وتنتفعون».

* وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا بالية وترابًا متمزقًا، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ أي أمسكناه فيها فيدخل في تخومها، فنبت الزرع وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾، فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها القت أيضًا، ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به ﴿وَنَخْلاً﴾ يؤكل بلحا وبسرا، ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه رب وخل ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي بساتين، قال الحسن وقتادة: غلبًا نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل

ما التف واجتمع، وقال ابن عباس أيضًا: ﴿غُلْبًا﴾ الشجر الذى يستظل به، وقال عكرمة ﴿غُلْبًا﴾ أى غلاظ الأوساط، وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: كل ما أكل رطبا، والأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفى رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن: الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم، وعن عطاء كل شىء نبت على وجه الأرض فهو أب، وقال الضحاك: كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو الأب. وقال العوفى، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى...».

* وجاء فى تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما مختصره: «﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ﴾ نظر اعتبار ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كيف قدر ودبر له. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ من السحاب على الأرض ﴿صَبًّا﴾ أى بغزارة. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا﴾. ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير. ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ هو: القت الرطب علفا للدواب. ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾ أى: شجرتا الزيتون والنخل. ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ بساتين كثيرة الأشجار. ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ما ترعاه البهائم، وقيل التبن. ﴿مَتَاعًا﴾ متعة أو تمتيعًا. ﴿لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم».

*وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه: «وينتقل السياق إلى لمسة أخرى فى مقطع جديد... فتلك هى نشأة هذا الإنسان... فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه فى هذه الرحلة؟ وهى شىء واحد من أشياء يسرها له خالقه؟

هذه قصة طعامه مفصلة مرحلة مرحلة، هذه هى فلينظر إليها، فهل له من يد فيها؟ هل له من تدبير فى أمرها؟ إن اليد التى أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته، هى ذاتها اليد التى أخرجت طعامه، وأبدعت قصته... ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾، ألصق شىء به، وأقرب شىء إليه، وألزم شىء له.. لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المكرر. لينظر إلى قصته العجيب اليسيرة، فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب، وهى معجزة كمعجزة خلقه ونشأته، وكل خطوة من خطواتها بين القدرة التى أبدعته، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾.. وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة، فى أية درجة كان من درجات المعرفة

والتجربة. فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان، فأما حين تقدم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهداً من هذا المطر الذي يتكرر اليوم ويراه كل أحد.

واستعار صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فرضًا علميا عن أصل ماء الأرض نقله عن كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» (تأليف أ. كريسي موريسون وترجمه محمود صالح الفلكي) بعنوان: (العلم يدعو للإيمان) ثم أضاف: ذلك كان أول قصة الطعام: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾.. ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء في أي صورة من صوره، وفي أي تاريخ لحدوثه، ولا أنه صبه على الأرض صبّا لتسير قصة الطعام في هذا الطريق!.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾.. وهذه هي المرحلة التالية لصب الماء. وهي صالحة لأن يخاطب بها الإنسان الذي يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته، وتدبير غير تدبير. ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها. أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقًا بقدرة الخالق ـ سبحانه ـ وينمو على وجهها، ويمتد في الهواء فوقها.. وهو نحيل نحيل، والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة. ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقّا، وتعينه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف. وهي معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة، ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة في النبتة الرخية.

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعني له مدى آخر من التصور في هذا النص، وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور. إنه قد يكون ذلك التفتت في صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة...، وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التي يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التي كانت تكسو وجه الأرض وتكوّن قشرتها، حتى وجدت طبقة الطمي الصالحة للزرع. وكان هذا أثراً من آثار الماء تاليًا في تاريخه لصب الماء صبّا، مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذي تشير إليه النصوص.

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذي حدث، وهو الذي تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة في القصة هي النبات بكل صنوفه وأنواعه التي

يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين، وأعمها فى طعام الناس والحيوان: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ . . وهو يشمل جميع ما يأكله الناس فى أية صورة من صوره، وما يتغذى به الحيوان فى كل حالة من حالاته . ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ . . والعنب معروف، والقضب هو كل ما يؤكل رطبًا غضا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ . . . والزيتون والنخل معروفان لكل عربى، والحدائق جمع حديقة، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و(غلبا) جمع غلباء أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار . والفاكهة من ثمار الحدائق و(الأب) أغلب الظن أنه الذى ترعاه الأنعام» .

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه : «﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كيف دبر : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أنزلنا له الغيث من السماء إنزالا . ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ شققناها بالنبات شقّا بديعًا، لائقًا بما يشقها منه صغرًا وكبرًا، وشكلاً وهيئة . ﴿حَبًّا﴾ ما يقتات به الإنسان ويدخره ، من نحو الحنطة والشعير والذرة . ﴿وَعِنَبًا﴾ يتفكه به . ﴿وَقَضْبًا﴾ علفًا رطبًا للدواب ويسمى الفصْفصَة، وإذا يبس يسمى القت، وسمى قضبًا لأنه يقضب من النبات ليأكله مرة بَعد أخرى كالكلأ والبرسيم . وقيل : القضب ما يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضّا طريًا، كالبقول التى تقطع فينبت أصلها . ﴿وَحَدَائِقَ﴾ بساتين محوطة، جمع حديقة، وهى ما أحيط به من النخل والشجر ، فإذا لم يحط فليس بحديقة، بل هو بستان، ومنه أحدقوا به أى أحاطوا به . ﴿غُلْبًا﴾ عظامًا، جمع أغلب وغلباء . والغلباء هى الحديقة الغليظة الأشجار الملتفة . وأصلها من الغلب ـ بفتحتين ـ بمعنى الغلظ، يقال : غلب أى غلظ عنقه، ومنه : الأغلب للغليظ الرقبة، وهضبة غلباء : أى مشرفة . ﴿وَأَبًّا﴾ الأب : الكلأ والمرعى، وهو ما تأكله البهائم من العشب، من أبه : إذا أمه وقصده، لأنه يؤم ويقصد . أو من أب لكذا : إذا تهيأ له، لأنه متهيىء للرعى . أو ما تأكله البهائم من العشب والنبات، رطبًا كان أو يابسًا . فهو أعم من القضب، أو هو التبن خاصة .

* وذكر كلٌ من المنتخب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير كلامًا مشابهًا لا أرى داعيًا لتكراره هنا .

*** أولاً:** ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ [عبس : ٢٤] .

اعتمد الإنسان فى طعامه أساسًا على النبات ولذلك تحدثت الآيات عن صب الماء من السماء صبّا، ثم عن شق الأرض شقّا، ثم عن عدد من النباتات وثمارها تغطى كل ما يحتاجه الإنسان وأنعامه من الطعام النباتى، والطعام النباتى يحمل فى طياته الإشارة إلى الطعام الحيوانى. وذلك لأن الحيوانات التى يأكلها الإنسان تعتمد فى غذائها على النبات وثماره. والطعام هو مصدر الطاقة اللازمة لمختلف الأنشطة فى جسم الإنسان، وللمحافظة على درجة حرارته، ولبناء الخلايا والأنسجة اللازمة فى مختلف مراحل نموه ولتعويض الفاقد منها باستمرار.

وجسد الإنسان يحتاج لوجوده حيا إلى الهواء، والماء، والطعام، فلو انقطع عنه الهواء لدقائق معدودة هلك بالاختناق، وإذا انقطع عنه الماء فإنه يمكنه تحمل ذلك لعدة أيام، وإذا انقطع عنه الطعام يمكنه البقاء حيا لعدة أسابيع، مع نقص حاد فى الوزن، وتدهور فى حالته الصحية إن لم يتدارك ذلك بتعويض سريع.

ويحتاج الإنسان فى طعامه إلى المواد الأساسية التالية:

(١) **الكربوهيدرات**: وهى مركبات عضوية مهمة تتكون جزيئاتها باتحاد ذرات الكربون مع كل من ذرتى الأيدروچين والأكسچين بنسبة وجودهما فى الماء (٢ : ١)؛ ووجود الكربوهيدرات فى كل من النبات والحيوان فى هيئات متعددة أبسطها السكريات الأحادية مثل سكر العنب (الجلوكوز)، وسكر الفاكهة (الفركتوز)، ويمكن للسكريات الأحادية أن تتحد مع بعضها البعض بواسطة روابط خاصة لتكون سكريات ثنائية مثل سكر القصب والبنجر (السكروز)، وسكر الشعير (المالتوز)، وسكر الحليب (اللاكتوز)، أو سكريات ثلاثية مثل سكر الرافينوز، أو سكريات عديدة مثل النشا، والسيليولوز. والنشا يوجد فى كثير من النباتات مختزنًا فى بذورها أو فى درناتها وفى العديد من ثمارها، بينما تتكون جدران الخلايا النباتية أساسا من السيليولوز وهو يوجد فى القش، والخشب، والجوت، وفى ثمار القطن، وفى المجموعات الخضرية للنباتات.

(٢) **البروتينات**: وهى مركبات عضوية تتكون جزيئاتها العملاقة باتحاد ذرات الكربون مع كل من ذرات الإيدروچين والأكسچين والنيتروچين، وقد تحتوى بعض جزيئاتها على ذرات من الكبريت أو الفوسفور. وتوجد هذه العناصر فى سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، ويبلغ عدد الأحماض الأمينية المعروفة والتى تشترك فى بناء البروتينات عشرين حمضا، وترتبط مع بعضها البعض برابطة خاصة تعرف باسم «رابطة الپيپتيد» (**Peptide Bond**)، ويلتف الجزىء البروتينى على ذاته فى هيئة لولبية أو حلزونية. وتوجد البروتينات فى أنواع بسيطة تتكون من الأحماض الأمينية فقط، وأنواع معقدة (مقترنة) يدخل فى بنائها مجموعات من مركبات كيميائية أخرى. وتوجد البروتينات فى أنسجة الكائنات الحية وفى جبلتها (البروتو پلازم) وتلعب أدواراً مهمة فى العديد من أنشطتها الحيوية مثل الدعم والحركة فى العظام والعضلات، والنقل والاتصالات فى الدم وفى الأعصاب، وفى كتابة الشيفرة الوراثية، وفى تحفيز مختلف التفاعلات الحيوية مثل إفراز الإنزيمات وبعض الهرمونات.

(٣) **الزيوت والدهون**: وتتكون أساسًا من اتحاد ذرات الكربون مع ذرات كل من الإيدروچين والأكسچين بنسب أعلى من نسب وجودهما فى كل من الماء والكربوهيدرات، وبعض الدهون يحتوى بالإضافة إلى ذلك على عنصرى الفوسفور والنيتروچين. والزيوت والدهون لهما تركيب كيميائى متشابه، فإذا بقى هذا التركيب سائلا عند درجة عشرين مئوية سمى زيتًا، وإذا بقى جامداً سمى دهنا، والدهون تعرف باسم الجليسريدات لتكونها من اتحاد بعض الأحماض الدهنية مع الجليسرين. وتضم الشموع إلى مجموعة الزيوت والدهون تحت مسمى «اللپيدات» (**Lipids**).

وبعض الثمار النباتية مثل الزيتون، والسمسم، والفول السودانى، وفول الصويا، والخروع، وبذور الكتان، وبذور القطن، وبذور دوار الشمس، وثمار كل من نخيل الزيت، وجوز الهند؛ وبعض أجنة الحبوب مثل القمح، والذرة، والأرز، تعتبر من أهم مصادر الزيوت النباتية.

وهذه المركبات التى تدخل فى طعام الإنسان من الكربوهيدرات إلى البروتينات إلى الدهون على قدر هائل من الانتظام والدقة والتعقيد فى بنائها، مما يقطع بأنها لا

يمكن أن تكون قد أوجدت نفسها بنفسها، أو وجدت بمحض المصادفة، ولذلك تشهد لخالقها العظيم بطلاقة القدرة، وإبداع الصنعة، وإحكام الخلق، ودقة التقدير، ومن هنا كان لفت نظر الإنسان إلى طعامه. . . . !!

و(الطعام) و(الطعم) هو كل ما يؤكل، و(الطعم) تناول الغذاء، و(الطعمة) المأكلة، ويقال: (طعم) (طعمًا) إذا أكل أو ذاق فهو (طاعم)، و(استطعمه) أى سأله أن يطعمه فأطعمه. وقد يستعمل الفعل (طعم) في الشراب أيضًا لقول الحق - تبارك وتعالى - على لسان طالوت لجنوده: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي** ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقول رسول الله ﷺ في وصفه لماء زمزم «**إنه طعام طعم وشفاء سقم**».

ولذلك بدأت هذه المجموعة من الآيات التي تتحدث عن الطعام في «سورة عبس» بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ **أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا** ﴾.

ومن الثابت علميًا أن الماء سابق في وجوده على خلق الحياة؛ لأن الحياة الأرضية التي نعرفها لا تقوم بغير الماء الذي أخرجه ربنا - تبارك وتعالى - أصلاً من داخل الأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١].

وعلى الماء قامت حياة كل من النبات والحيوان والإنسان، وأعد الله - تعالى - للإنسان كل صنوف الطعام التي يحتاجها في حياته، وأولها النباتات ومن هنا كانت الإشارة إليه لينظر إلى طعامه نظر تدبر وتفكر واعتبار.

ثانيًا: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ [عبس: ٢٥]:

تعتبر دورة الماء حول الأرض من دلالات طلاقة القدرة الإلهية، فقبل إخراج ماء الأرض من داخلها عبر فوهات البراكين، كان الله - تعالى - قد هيأ لها سقفًا باردًا تتكثف عنده يتمثل اليوم في الحد العلوي لنطاق الرجع - نطاق التغيرات المناخية - الذي تصل عنده درجة الحرارة فوق خط الاستواء إلى (٦٠) درجة مئوية تحت الصفر، ولولا هذه الحقيقة لارتفع بخار الماء المتصاعد من الأرض إلى طبقات الجو العليا وانفلت من نطاق جاذبية الأرض إلى فسحة الكون، ولو حدث ذلك ما كنا ولا كانت الحياة من حولنا على الإطلاق.

وعند وصول بخار الماء المتصاعد من الأرض إلى الحد الأعلى لنطاق الرجع تكثف وعاد إلى الأرض مطراً، وساعد تكرر نزول المطر على تبرد الغلاف الصخرى للأرض ، كما ساعد على سيلان الماء على سطح الأرض شاقًا أودية له على هيئة أعداد من الأنهار والجداول، وساعد كذلك على تحركه إلى منخفضات الأرض ليملأها بالماء مكونًا البحار والمحيطات والبحيرات وغير ذلك من تجمعات الماء على سطح الأرض، وبمجرد تكون ذلك بدأت أشعة الشمس فى تبخير هذا الماء ليرتفع على هيئة بخار يتعلق بأجزاء من الغلاف الغازى للأرض مكونًا السحب التى يتكثف منها الماء ليعود إلى الأرض مطراً، أو برداً، أو ثلجًا بإذن الله ـ تعالى ـ.

وقد استمرت دورة الماء حول الأرض منذ أن أخرج الله منها ماءها وسوف تستمر إلى أن يرث الأرض ومن عليها. وبهذه الدورة المعجزة التى يتحرك بها الماء من غلاف الأرض المائى إلى غلافها الهوائى يتطهر مما تجمع فيه من ملوثات، وأملاح أذابها من الغلاف الصخرى للأرض، أو علقت به فى أثناء جريانه على سطحها، أو من بقايا الكائنات الحية التى تحيا وتموت فى الأوساط المائية ببلايين الأفراد فى كل لحظة.

وتمتد دورة الماء من نحو الكيلومتر الواحد تحت سطح الأرض إلى ارتفاع يقدر بنحو خمسة عشر كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر فى المتوسط، فتعمل على تطهير الماء، وتلطيف الجو، وتوفير نسبة معينة من الرطوبة فى كل من الغلاف الغازى للأرض وتربتها، وغالبية صور الحياة إن لم تكن جميعها خاصة فى المناطق الصحراوية تحتاج إلى تلك النسبة من الرطوبة.

وبواسطة هذه الدورة المائية التى استمرت على مدار عمر الأرض المقدر بنحو خمسة بلايين من السنين تمت تسوية سطح الأرض، وشق الفجاج والسبل فيها، كما تم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية، وخزن قدر من هذا الماء فيها وفى غيرها من صخور قشرة الأرض ، وتكوين أعداد من الصخور الاقتصادية والركازات المعدنية المهمة.

ولولا هذا الإعداد الربانى الدقيق ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمران، ولذلك يمن علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو صاحب الفضل والمنة بقوله

العزيز: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أى أنزلنا الغيث من السماء إنزالا؛ لأن صب الماء هو إراقته من أعلى، فإذا علمنا أن كمية الماء الأرضى تقدر بنحو (١,٤) بليون كيلومتر مكعب، وأن من هذه الكمية الهائلة التى أخرجها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لنا من داخل الأرض، يتبخر منها سنويًا ٣٨٠ ألف كيلومتر مكعب، ثم تعود كلها إلى الأرض مرة أخرى ماءً طهورًا، يوزعه الله ـ تعالى ـ بعلمه، وحكمته، وقدرته.

إذا علمنا ذلك لأدركنا قيمة هذه النعمة الإلهية الكبرى التى وصفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾، وقوله ـ عز من قائل: ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩].

وصب الماء إراقته من أعلى، أى إنزاله من السماء بغزارة كالغيث، والصبيب هو المصبوب من ماء المطر، ولولا دورة الماء حول الأرض لفسد كل مائها الذى هو شريان الحياة، والذى يحيا ويموت فيه بلايين الأفراد من الكائنات الحية فى كل لحظة. ولا يستطيع التحكم فى دورة الماء حول الأرض إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد من الخلق أن ينزل قطرة من ماء السماء حيث أو متى يشاء، ومن هنا كانت الإشارة إلى إنزال ماء السماء على أنها من أوضح «الدلالات على طلاقة القدرة الإلهية.

ثالثا: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ [عبس: ٢٦]:

ترد كلمة الأرض فى القرآن الكريم بثلاثة معان محددة لتعنى كوكب الأرض فى مجمله، أو الغلاف الصخرى المكون لليابسة التى نحيا عليها، أو قطاع التربة الذى يغطى ذلك الغلاف الصخرى فى بعض أجزائه، كما هو واضح من الآية الكريمة التى نحن بصددها لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾. وذلك لأن الحب لا ينبت إلا فى التربة، وكذلك الغالبية الساحقة من النباتات. وتتكون تربة الأرض بالتفاعل المعقد بين أغلفتها الصخرية، والمائية، والهوائية، والحيوية، مما يؤدى إلى التفكك الفيزيائى والتحلل الكيميائى والحيوى لصخور الأرض بواسطة عوامل التعرية

المختلفة، وتلعب الكائنات الحية من مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب، وجميع النباتات، وبعض الحيوانات دوراً رئيسيًا في تكون التربة التي تعتبر مصدر الغذاء والماء لحياة كل النباتات الأرضية، وبالتالي لحياة كل من الإنسان والحيوان.

وتتكون التربة الأرضية في قطاعها العلوي أساسًا من معادن الصلصال، وحبات الرمل، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم، وإن كانت أنواع التربة تتعدد تعدداً هائلاً بتعدد أنواع الصخور التي تنشأ عنها، والظروف الطبيعية والكيميائية التي تتعرض لها، وأنواع الكائنات الحية التي تزخر بها، والتي تلعب أدواراً رئيسية في إعدادها.

وعلى الرغم من ذلك تبقى المعادن الصلصالية قاسمًا مشتركًا في معظم أنواع تربة الأرض، والمعادن الصلصالية لها شراهة شديدة للماء، فإذا وصلها امتصته بسرعة فتميأت مما يؤدي إلى زيادة في حجمها فتهتز وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة، فتنشق لتفسح طريقًا آمنًا لسويقة النبتة المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة في التربة، ومن هنا كانت تلك الإشارة القرآنية المعجزة في هذه السورة المباركة التي جمعت بين صب الماء، وشق الأرض، والإنبات في تسلسل دقيق معجز يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾

[عبس: ٢٥: ٢٧].

ومن أسباب اهتزاز التربة وربوها (أي ارتفاعها إلى أعلى) حتى تنشق دقة حجم حبيبات المعادن الصلصالية (أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر) التي تتحول إلى الحالة الغروية بمجرد اختلاط الماء بها بكمية كافية، وهي حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وأقدار غير متساوية في جميع الاتجاهات، وعلى كل المستويات في حركة دائبة تؤدي إلى اهتزاز التربة وانتفاخها وانتفاضها بشدة حتى تنشق، وكلما زادت كمية الماء المختلط بالتربة زاد اهتزازها وارتفاعها وسارع ذلك في تشققها بإذن الله ـ تعالى ـ.

والشق هو واحد الشقوق، وهي الفتحات الطولية الواقعة في الشيء، ولعل المقصود بالفعل (شققنا) هنا هو النحر الرأسي لماء المطر حينما يصب على الأرض

صبّا، وقد ثبت أن ماء المطر الساقط على الأرض يستطيع إحداث شقوق فيها تتراوح أعماقها بين أمتار قليلة والمائتى متر، مما يعين على تخلل الماء للصخور المنفذة ليكون المخزون المائى تحت سطحها، ويجدد عذوبته ومحتواه من غاز الأكسچين.

وكلما اتصلت هذه الشقوق (الناتجة عن الحفر الرأسى لماء المطر النازل من السماء كالغيث) مع أشباهها من فواصل الصخور وتشققاتها، ومستويات التطبق فى الصخور الرسوبية، وكهوف الإذابة فى كل من الصخور الكلسية والملحية وما يرتبط بها من حفر، وممرات، ودهاليز، وأغوار، قد يصل طولها إلى عشرات الكيلومترات، أفسح كل ذلك مجالاً رحبًا لتجوية الصخور ولخزن الماء تحت سطح الأرض، وتعظيم دوره فى توسيع تلك الشقوق والحفر، بمختلف صور التجوية الميكانيكية (من مثل فعل الصقيع) والتجوية بفعل الكائنات الحية، والتجوية الكيميائية (عن طريق الإذابة، والكربنة، والإحلال، والتميؤ، والأكسدة) التى تضعف من تماسك الصخر، وتعين على تشققه وتفتته وتكون التربة من هذا الفتات، كما تعظم من دور الماء تحت سطح الأرض، فى المساعدة على إمداد نباتات الأرض بما تحتاجه من ماء وعناصر غذائية، وهذا المعنى يبدو لى أنه الأقرب - والله تعالى أعلى وأعلم - وذلك لوروده بعد الإشارة إلى صب الماء من السماء صبا.
ولكن لا يستبعد أيضا أن يكون المقصود بشق الأرض بعد صب ماء المطر عليها، هو تشقق التربة نتيجة لاختلاطها بماء السماء، والتربة الزراعية يغلب على تركيبها المعادن الصلصالية التى تتكون أساسا من سليكات الألومنيوم المميأة، والمتراصة فوق بعضها البعض فى رقائق دقيقة، وهذا المركب الكيميائى له شراهة شديدة للماء، فإذا وصله البلل انتفش وانتفخ، وارتفع إلى أعلى حتى ترق التربة رقة شديدة ثم تنشق لتفسح طريقًا سهلاً للسويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة فى التربة لتصل السويقة إلى ما فوق سطح الأرض. ويعين على ذلك إزاحة الماء لقدر من الهواء الموجود بين رقائق الصلصال، والحركة البراونية للمادة الغروية فى دقائق التربة من المعادن الصلصالية، وتنافر الشحنات الكهربية المتشابهة على أسطح تلك الرقائق مع بعضها البعض، ومع قطبى جزئ الماء المزدوج القطبية، ونشاط كل صور الحياة الكامنة فى قطاع التربة وفيها البلايين من الكائنات الحية الكامنة، فإذا وصلها

الماء استيقظت ونشطت ومن ذلك بذور النباتات، وبيض بعض الحيوانات ويرقاتها، وبعض البكتيريا والفطريات وغيرها، ومخزون التربة من هذه الكائنات يتراوح ما بين الميكروسكوبية والفقارية، وقوة إنبات البذور من القوى التى لايمكن الاستهانة بها.

* رابعا: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٧ - ٣٢]

وهذه الآيات احتوت كل صنوف النبات الأساسية التى يحتاجها الإنسان وأنعامه فى طعامهم، والتى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

(١) فلفظة (الحب) تشمل جميع أنواع الحبوب (من ذوات الفلقة الواحدة) مثل القمح والشعير، والذرة، والشوفان والأرز وغيرها، من النباتات الزهرية ذات الفلقة الواحدة، والتى تجمع فى العائلة النجيلية، وهى أهم عائلات النبات من الناحية الاقتصادية للإنسان ولأنعامه لأنها تشمل أكثر من سبعة آلاف نوع من أنواع النباتات التى تضم محاصيل الحبوب، وعدداً من المحاصيل الأخرى المهمة من مثل قصب السكر وبعض النباتات الخشبية مثل الخيزران.

و تضم العائلة النجيلية كذلك كثيراً من حشائش المراعى التى تصلح لرعى الحيوانات آكلة الأعشاب من مثل الأنعام. ومن هذه الحشائش الحولى والمعمر، وتغطى نباتات العائلة النجيلية أكثر المساحات المزروعة على سطح الأرض.

(٢) والتعبير القرآنى: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أيضًا تعبير معجز لأن (العنب) يشير إلى رتبة كاملة من نباتات الثمار المهمة هى رتبة العنابيات، وتشمل عائلتين مهمتين هما: عائلة العناب وتضم (٤٥) جنسًا، و(٥٥٠) نوعًا من أنواع النباتات واسعة الانتشار من مثل العناب، والنبق، وعائلة الأعناب، وتشمل(١١) جنسًا، وأكثر من (٦٠٠) نوع من أنواع العنب وهو واحد من أهم المحاصيل النباتية.

أما (القضب) و(القضبة) فهو الرطب من ثمار النباتات، و(القضب) أصلا هو القطع، و(اقتضبه) أى اقتطعه، ولذا استعير (القضب) لما يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضا طريًا كالبقول التى تقطف ثمارها فينبت مكانها، أو تقطف النبتة

فينبت أصلها، وفى ذلك إشارة إلى العائلة البقولية، وهى ثانى أكبر عائلة نباتية بذرية يعتمد عليها كل من الإنسان وأنعامه فى طعامه، بعد العائلة النجيلية، وهى عائلة نباتاتها منتشرة فى جميع أنحاء العالم، وتشمل نحو (٦٠٠) جنس، و(١٢,٠٠٠) نوع من أنواع النباتات ذات الفلقتين وتشمل فيما تشمل: الفول، العدس، الحمص، الفاصوليا، اللوبيا، البازلاء، فول الصويا، الفول السودانى، الترمس، الحلبة، الخروب، التمر هندى، وغيرها، وكلها من ذات الثمار القرنية، ولذلك تعرف أحيانًا باسم «العائلة القرنية».

كذلك تشمل هذه العائلة نبات البرسيم الحجازى الذى يعتبر علفًا رئيسيّا للحيوانات آكلة الأعشاب كالأنعام، وتشمل غيره من أعشاب المراعى والأعلاف، كالكلأ، كما يشكل عددًا من نباتات الزهور، والنباتات الطبية، والقضب عامة هو العلف الرطب للأنعام والدواب.

(٣) والتعبير القرآنى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾: يشير إلى عائلتين من أهم العائلات النباتية هما العائلة الزيتونية، والعائلة النخيلية، والأولى تشمل (٢٢) جنسًا، وأكثر من (٥٠٠) نوع من أنواع الأشجار الزيتونية وهى أشجار معمرة، تعيش لأكثر من ألفى سنة. وشجرة الزيتون شجرة مباركة كما وصفها القرآن الكريم ونعتتها أحاديث رسول الله ﷺ. أما العائلة النخيلية فتشمل حوالى (٢٠٠) جنس، وأكثر من أربعة آلاف نوع من أنواع النخيل، وغيره من الأشجار والشجيرات القائمة والمتسلقة المنتشرة فى كل من المناطق الاستوائية والمعتدلة، وأشجار النخيل من أكثر النباتات احتمالاً للجفاف والملوحة، وتنمو فى المناطق الحارة الجافة والمعتدلة، وثمارها ومنتجاتها تعتبر من أهم المصادر النباتية التى اعتمد عليها الإنسان فى حياته منذ وطئت قدماه هذه الأرض.

(٤) والتعبير القرآنى: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أى حدائق عظامًا وهى البساتين المحوطة ذات الأشجار الغليظة، الملتفة الأغصان. وهذه تشمل الغالبية الباقية من أنواع النباتات، خاصة نباتات الظل، والزينة، الأخشاب، كما تشمل الكثير من نباتات الثمار المختلفة التى لا تنضوى فى المجموعات السابقة.

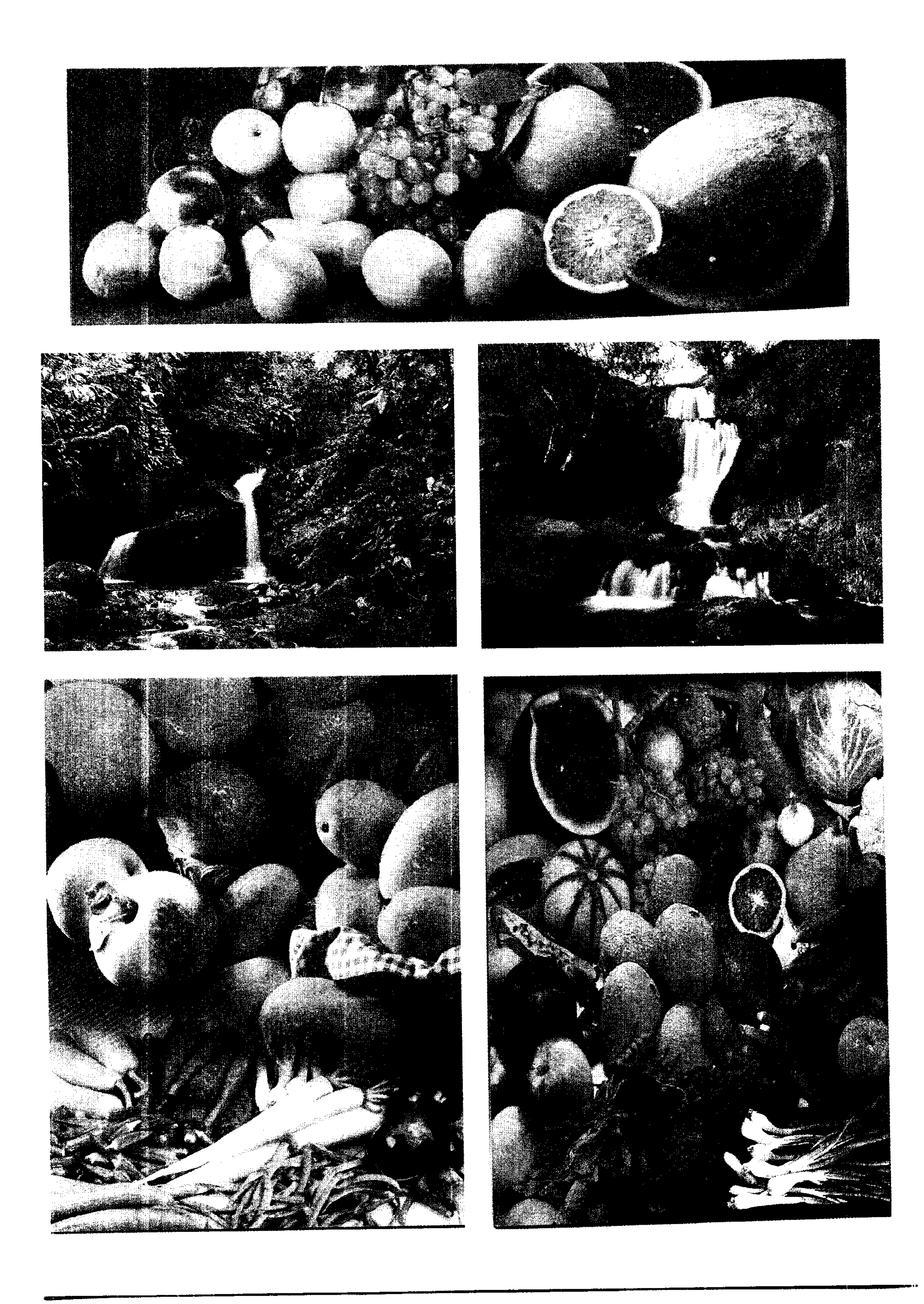
(٥) أما التعبير القرآني : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فإن الفاكهة هى كل ما يتفكه به الإنسان من الثمار، ويتمتع به من كل رطب لذيذ الطعم خاصة الثمار حلوة المذاق؛ لأنه يقال فى العربية تفكه بالشيء أى تمتع به، وقيل فى الفاكهة : إنها الثمار كلها ما عدا العنب والرمان.

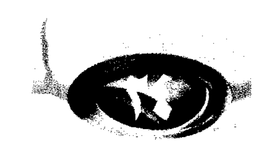
وأوضح الأمر أن لفظة (فاكهة) هنا يقصد بها نباتات الفاكهة المختلفة التى لا تحتويها المجموعات السابقة من مثل العائلات التوتية (وتشمل التين والجميز والتوت، وغيرها)، والوردية (وتشمل المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكريز، واللوز فيما يعرف باسم العائلة المشمشية) والتفاح، والكمثرى، والبشملة، والسفرجل (فيما يعرف باسم العائلة التفاحية) ومن مثل العائلة السذبية (عائلة الموالح) وغيرها .

أما (الأب) فهو الكلأ والمرعى، وما تأكله البهائم كالأنعام والدواب من غير ذلك من العشب، ومختلف أجزاء النبات رطبًا كان أو يابسًا (مثل التبن والدريس) وهو فى ذلك أعم من القضب.

وهكذا نرى فى هذا التسلسل المعجز لخمس آيات قصار لا تشغل أكثر من سطرين استعراضًا لأهم النباتات التى تشكل الطعام الرئيسى لكل من الإنسان وأنعامه، ولذا ختمت سورة «عبس» بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ٣٢]. وهذه الحقائق العلمية لم تعرف إلا فى القرن العشرين، وذلك لأن علوم تصنيف الحياة بصفة عامة، وعلم تقسيم النبات بصفة خاصة هى علوم مستحدثة فى تاريخ الإنسان، بدأت مع منتصف القرن الثامن عشر الميلادى، ولم تتبلور إلا فى أواخر القرن العشرين؛ واستعراض الآيات التى نحن بصددها لأهم مجموعات النبات فى طعام كل من الإنسان وأنعامه بهذه الإحاطة، والدقة، والشمول، فى كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرنًا على نبى أمى، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين. لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للرسول الخاتم الذى تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. . والحمد لله رب العالمين.

* * *



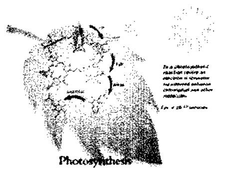


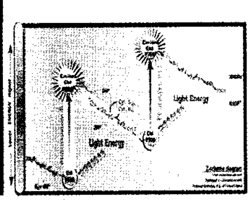
بسم الله الرحمن الرحيم

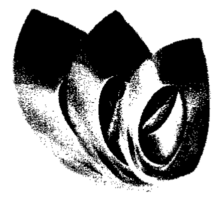
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس : ٨٠)











هذه الآية الكريمة جاءت فى خواتيم سورة «يس»، وهى سورة مكية، وعدد آياتها ثلاث وثمانون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الذى قيل إنه من أسماء رسول الله ﷺ بدليل توجيه الخطاب إليه فى جواب القسم(بالقرآن الحكيم) مباشرة على صدق نبوته ورسالته، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ١ ـ ٦].

وقيل إن «يس» لقب من ألقاب رسول الله ﷺ وأن معناها يا سيد البشر، والله ـ تعالى ـ أعلم، وقيل إنها من الفواتح الهجائية التى افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم. ويدور المحور الرئيسى للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية التى أوردت عدداً من الركائز المهمة لها.

عرض موجز لسورة «يس»

أنذرت سورة «يس» من عواقب التكذيب بوحى السماء، ومن أجل ذلك أوردت قصة أهل القرية التى كذبت رسل ربها، وجحدت نصح الناصحين من أبنائها الذين شرح الله صدورهم للإيمان، وقد بعث الله ـ تعالى ـ إليهم بثلاثة من رسله الكرام فكذبوهم، فأوفد إليهم رجلاً منهم ينصحهم بضرورة الإيمان بالله، والتوحيد المطلق لجلاله فكذبوه وقتلوه، فأدخله الله ـ تعالى ـ الجنة، ولم يمهل المجرمين من قومه فدمرهم من بعده تدميراً...!!

ومن العجيب أن الناس ـ فى القديم والحديث- لا يعتبرون بسير السابقين من الأمم البائدة إلا من رحم ربك، والقصص القرآنى خير شاهد على ذلك. فقد استعرضت سورة «يس» عدداً من مواقف المعرضين عن الهداية الربانية، والمكذبين

بالآخرة، ووصفت جوانب من سلوكياتهم الشاذة، ورسمت ملامح لشخصياتهم المهزوزة، ونفسياتهم المريضة، وطرائق تفكيرهم السقيمة، وعرضت لشيء من ضلالاتهم البعيدة، وضياعهم وحيرتهم فى الدنيا، كما عرضت لمصائرهم السوداء فى الآخرة، وذلهم ومهانتهم فى يوم البعث وما فيه من أهوال، منها نفخة الصور الأولى التى تعرف باسم «نفخة الفزع الأكبر»، والتى تصدر إعلانًا عن نهاية الحياة الدنيا، ثم تليها نفخة الصعق التى يصعق بها كل حى فيموت فى الحال، ثم تجيء بعد ذلك نفخة البعث والنشور التى يخرج بها الخلق مذهولين من قبورهم، ليعلموا أن وعد الله حق . . . !! وقيل إن نفخة الصور الأولى هى نفسها نفخة الصعق والله ـ تعالى ـ أعلم .

وتمايز سورة «يس» بين مصائر أهل الجنة، ومصائر أهل النار فى الآخرة، وتؤكد أن طول الأجل فى الحياة الدنيا منتكس للإنسان من القوة إلى الضعف، ومن الزيادة إلى النقص، مما يؤكد عجز الإنسان أمام حتمية الموت .

وتدفع الآيات عن رسول الله ﷺ تهمة الشعر التى ادّعاها عليه الكفار كذبًا، فى محاولة لنسبة القرآن الكريم إليه، ويبرئه الله ـ تعالى ـ من هذه التهمة الباطلة بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [يس : ٦٩، ٧٠] .

وتُثبّته الآيات ﷺ بخطاب من الحق ـ تبارك وتعالى ـ إليه يقول فيه :

﴿ **فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ [يس : ٧٦] .

واستعرضت سورة «يس» فى ثناياها عدداً من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة، وأكدت تمجيد الله الخلاق العلى القدير الذى يصف ذاته العلية بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾

[يس : ٨٢] .

وختمت سورة «يس» بهذه الآية الجامعة التى تهز القلوب والعقول والأبدان عند كل حصيف من بنى الإنسان، ويتحرك لوقعها كل جماد ونبات وحيوان حيث تقول : ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [يس : ٨٣] .

(١) الإيمان بأن القرآن الحكيم هو تنزيل من الله العزيز الرحيم لإنذار الخلق أجمعين؛ لأنه آخر الكتب السماوية، وأتمها وأكملها، والكتاب الوحيد الذى تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه، فحفظ بنفس لغة وحيه - اللغة العربية -، وحفظ حفظًا كاملاً: حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة بنفس ترتيب المصحف الموجود بين أيدينا اليوم على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية، وسيظل محفوظا بأمر الله - تعالى - إلى ما شاء تحقيقا لوعده - سبحانه - الذى قطعه على ذاته العلية بذلك الحفظ.

(٢) التصديق بأنبياء الله وبرسله أجمعين، وعلى رأسهم إمامهم وخاتمهم، سيد الخلق من الأولين والآخرين: سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ صاحب النور المبين، والصراط المستقيم، والذى قد آتاه الله - تعالى - جوامع الكلم، ولم يكن شاعرًا، ولا الشعر ينبغى له، وبأنه ما كان عليه إلا البلاغ المبين - كما أنه لم يكن على المرسلين من قبله إلا ذلك.

(٣) اليقين بأن الله - تعالى - سوف يحيى الموتى، وأنه يكتب ما قدموا وآثارهم، وأن كل شىء محصى عنده فى إمام مبين.

(٤) التسليم بأن الله - تعالى - هو خالق كل شىء، وأنه يعلم ما يُسرُّ الخلق وما يعلنون، وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وأن بيده ملكوتَ كل شىء، وأنه هو النافع الضار، وأن إليه يرجع الأمر كله؛ وأنه أحكم الحاكمين؛ وأن تقوى الله من مبررات نزول رحماته على عباده المتقين.

(٥) الإيمان بأن الشرك بالله ظلم عظيم، وأنه من وساوس الشيطان، وأن الشيطان للإنسان عدو مبين.

(٦) اليقين بحتمية الموت على جميع الخلق - كل عند أجله المحتوم -، ثم بحتمية البعث والنشور عليهم أجمعين.

(٧) التسليم بحقيقة الجنة ونعيمها، وبحقيقة النار وجحيمها، إيمانًا لا يداخله أدنى شك أو ريبة.

الآيات الكونية التى استشهدت بها سورة يس

استشهدت سورة «يس» على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة، وعلى صدق ما جاء بها من عقائد وقصص وأحداث بعدد كبير من الآيات الكونية، التى يمكن إيجازها فيما يلى:

(١) الإشارة إلى إحياء الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، وإخراج الحب منها، أى من ثمار النباتات المنبثقة من خلالها، وإثرائها بجنات من نخيل وأعناب، وتفجير أعداد من العيون فيها.

(٢) التأكيد على خلق كل شىء فى زوجية واضحة، حتى يبقى الله ـ سبحانه وتعالى ـ متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

(٣) الإشارة بسلخ النهار من الليل إلى رقة طبقة النهار، وإلى حقيقة أن الظلمة هى الأصل فى الكون، وأن النور نعمة عارضة فيه، واستخدام ظاهرة تبادل الليل والنهار على نصفى الأرض للتأكيد على حقيقة كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس.

(٤) تقرير جرى الشمس إلى مستقر لها حسب تقدير العزيز العليم.

(٥) إثبات دوران القمر حول الأرض فى منازل محددة، متدرجًا فى مراحل متتالية حتى يعود هلالاً كالعرجون القديم.

(٦) تأكيد جرى كل من الأرض والقمر والشمس فى مداره المحدد له، وكذلك كل جرم من أجرام السماء.

(٧) الإشارة إلى حمل الأفراد من ذرية آدم الذين نجوا من الطوفان مع نبى الله نوح فى الفلك المشحون. والتأكيد على خلق وسائل ركوب أخرى للإنسان بعد ذلك. وقد أثبتت الدراسات الأثرية حقيقة وجود بقايا سفينة نوح عليه السلام فوق جبل الجودى فى جنوب شرقى تركيا.

(٨) إقرار شهادة الأيدى والأرجل على أصحابها يوم القيامة، والعلوم التجريبية تثبت أن لكل خلية حية قدراً من الوعى والإدراك والقدرة على استيعاب المعلومات وتخزينها.

(٩) التأكيد على أن من طال عمره زادت قوى الهدم فى جسده على قوى البناء، وبدأ الضمور يظهر على أجهزة هذا الجسد حتى يعمه كله فينتهى بالموت.

(١٠) الإشارة إلى خلق الأنعام وتذليلها للإنسان.

(١١) التأكيد على خلق الإنسان من نطفة، فإذا هو لخالقه خصيم مبين، وهو ما أثبتته الكشوف العلمية وأكدته التجارب البشرية.

(١٢) التأكيد على حقيقة أن منشئ العظام أول مرة قادر على أن يحييها وهى رميم؛ لأنه - تعالى - عليم بخلقه، قادر على كل شىء.

(١٣) الإشارة إلى جعل الشجر الأخضر مصدراً رئيساً للتزود فى كل نهار بقدر من طاقة الشمس تحتاجه كل صور الحياة على الأرض، ويبقى المصدر الرئيس للطاقة المختزنة فى أوراق وأنسجة وثمار الشجر الأخضر وزيوته ودهونه، والتى قد تتحول عند الجفاف إلى القش، أو الحطب، أو الخشب الذى قد يتفحم بمعزل عن الهواء إلى أى من الفحم النباتى أو الحجرى أو إلى غاز الفحم، وإذا أكلته الحيوانات تحولت فضلاتها إلى مصادر للوقود، وإذا تحللت أجسادها بمعزل عن الهواء أعطت كلاً من النفط والغاز الطبيعى؛ وهذه حقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

(١٤) التأكيد على أن خالق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم؛ لأنه هو الخلاق العليم.

(١٥) إثبات أن من صفات الألوهية أن يأمر الله - تعالى - الشىء بـ (كن فيكون).

(١٦) تأكيد أن الله - تعالى - بيده ملكوت كل شىء، وأن كل شىء فى الوجود (غيره) عائد إليه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الثالثة عشرة فى القائمة السابقة، والتى تتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى جعل الشجر الأخضر مصدراً للنار التى يوقد منها الناس، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس : ٨٠]

* ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره : «أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء ؛ قال قتادة : هذا الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه ؛ وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار بينهما كالزناد سواء» .

* وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره : «﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ في جملة الناس ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار ، أو هو حطب كل شجر . . . ﴿نارا فإذا أنتم منه توقدون﴾ تقدحون وتشعلون ، وهذا دال على القدرة على البعث ، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب ، فلا الماء يطفئ النار ، ولا النار تحرق الخشب» .

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : «عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد نارًا ، ثم يصير هو وقود النار ، بعد اللدونة والاخضرار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ؛ والتي تولد النار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق . . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزًا في الحس ووضوحًا ، والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه ، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» .

* وجاء في كل من صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ وصفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيرًا ـ كلام مشابه لا حاجة إلى إعادته .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيرًا ـ ما نصه : «الذي خلق لكم من الشجر الأخضر ـ بعد جفافه ويبسه ـ نارًا» .

وجاء تعليق الخبراء بالهامش على النحو التالى : «إن طاقة الشمس تنتقل إلى جسم النبات بعملية التمثيل الضوئى، إذ تمتص خلاياه المحتوية على المادة الخضراء فى النبات (الكلوروفيل) ثانى أكسيد الكربون من الجو، وبتفاعل هذا الغاز مع الماء الذى يمتصه النبات تنتج المواد (الكربوهيدراتية) بتأثير الطاقة المستمدة من ضوء الشمس، ومن ثم يتكون الخشب الذى يتركب أساسًا من مركبات كيميائية محتوية على الكربون والهيدروچين والأكسچين، ومن هذا الخشب يتكون الفحم النباتى المستعمل فى الوقود، إذ بإحراق هذا الفحم تنطلق الطاقة المدخرة فيه . . . وما الفحم الحجرى . . . إلا نباتات . . . دفنت بطريقة ما وتحولت بالتحلل الجزئى بعد مضى ملايين السنين إلى الفحم المذكور . . . ويجب أن يلاحظ أن لفظ الاخضرار فى الآية ووصف الشجر بهذا اللون . . . إنما هو إشارة إلى مادة الكلوروفيل الخضراء اللازمة لتمثيل غاز ثانى أكسيد الكربون» .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

تستدل الآيات السبع من خواتيم سورة «يس» على قدرة الله ـ تعالى ـ فى الخلق بتلك القدرة التى وضعها فى الشجر الأخضر، ومكنه من استخدام طاقة الشمس فى تثبيت ما يمتص من ذرات الكربون الموجودة فى غاز ثانى أكسيد الكربون المكون للغلاف الغازى للأرض وربطها بذرات الهيدروچين المستخلصة من ماء الأرض، على هيئة مركبات عضوية تكون أهم مصادر الغذاء والوقود على الأرض، حتى يمكن لكل من الإنسان والحيوان الاستفادة بها .

واستخدمت الآيات هذا المثل فى الاستدلال أيضًا على أن الله ـ تعالى ـ الذى خلق هذا الكون قادر على إفنائه، وعلى إعادة خلقه من جديد ـ أى بعثه ـ وفى ذلك تقول الآيات فى ختام سورة «يس» :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ

﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس : ٧٧ ـ ٨٣].

وهذه الآيات المباركات تشير إلى حقيقة علمية مبهرة، هى واحدة من أهم العمليات الحيوية الأساسية، ألا وهى عملية البناء الحيوى التى يقوم بها النبات الأخضر، والتى عرفت باسم «عملية التمثيل الضوئى»، أو «عملية البناء الضوئى»، والتى بواسطتها تبنى كل سلاسل الطعام على الأرض.

والنباتات الخضراء قد خصها الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بصبغ اليخضور (الكلوروفيل) الملون لأوراق وأنسجة النباتات ذاتية التغذية باللون الأخضر؛ وأعطى هذا الصبغ وغيره من الأصباغ النباتية القدرة على اصطياد وتخزين جزء من طاقة الشمس التى تصل إلى الأرض، وهى طاقة كهرومغناطيسية تتركب من موجات ذات أطوال متعددة تتحرك من أشعة جاما، إلى الأشعة السينية، إلى الأشعة فوق البنفسجية، إلى الأطياف المرئية، (أو أطياف النور الأبيض)، إلى الأشعة تحت الحمراء، إلى الموجات الراديوية بمختلف أطوالها.

وهناك ثمانية أنواع من هذه الأصباغ الخضراء التى تشبه فى تركيبها الكيميائى جزىء الهيموجلوبين ـ الذى يعطى لدم الإنسان ولدماء كثير من الحيوانات لونها الأحمر القانى ـ والشبه تام فى بناء كل من الجزيئين، فيما عدا استبدال ذرة الحديد المركزية فى جزىء الهيموجلوبين بذرة مغنسيوم فى جزىء اليخضور؛ ويشير ذلك إلى وحدة البناء كما يشير إلى وحدة البانى ـ سبحانه وتعالى.

وتوجد الأصباغ الخضراء ـ مادة الكلوروفيل ـ فى داخل جسيمات دقيقة للغاية بالخلية النباتية تعرف باسم البلاستيدات، ويوجد منها ثلاثة أنواع مميزة هى الخضراء، والملونة بألوان أخرى، والبيضاء، ويبدأ تكون كل منها من أجزاء أبسط وأدق كثيراً فى الحجم تعرف باسم «البلاستيدات الأولية».

والبلاستيدات هى جسيمات متناهية الضآلة فى الحجم توجد فى داخل الخلايا العمادية الطولية العمودية على جدار الأوراق النباتية، ولها حرية التحرك داخل

الخلية لزيادة قدرتها على اصطياد أشعة الشمس من أية زاوية تسقط بها على ورقة الشجر. والپلاستيدات جسيمات بويضية الشكل عادة، يحاط كل منها بغشاءين رقيقين، الخارجى منهما أملس، والداخلى متعرج على هيئة ثنيات داخلية تفصلها صفائح رقيقة جدًا؛ وتحتوى الثنيات على الأصباغ الخضراء، بينما تفتقر إليها الصفائح الفاصلة بينها، وتحتوى الپلاستيدات بالإضافة إلى الأصباغ النباتية على العديد من الأحماض الأمينية، والمركبات الپروتينية الأخرى كالدهون المفسفرة، وغيرها. ويقوم الصبغ الأخضر - اليخضور - فى هذه الپلاستيدات بالتقاط الطاقة القادمة من الشمس واستخدامها فى تأيين الماء الذى يروى به النبات، أو الذى يمتصه من التربة إلى الأكسچين الذى ينطلق عبر ثغور ورقة النبات إلى الغلاف الغازى للأرض، والهيدروچين الذى يتفاعل مع ذرة الكربون المنتزعة من جزىء غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يأخذه النبات من الجو لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات؛ وغاز ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الغلاف الغازى للأرض لا تكاد نسبته تتعدى ٠٣, ٠٪.

وتتم عملية البناء الضوئى التى تقوم بها النباتات الخضراء على مرحلتين، الأولى منهما تحدث فى الضوء، والثانية تحدث فى الظلام. والمرحلة الضوئية يتم فيها تأيين الماء إلى مكوناته من الأكسچين، ونوى ذرات الهيدروچين، وأعداد من الإلكترونات، وينطلق غاز الأكسچين إلى الجو، وتستخدم كل من نوى ذرات الهيدروچين والإلكترونات الطليقة فى المرحلة الثانية التى تتم فى الظلام، والتى من نتائجها تحويل ذرة الكربون المنتزعة من جزىء غاز ثانى أكسيد الكربون إلى السكريات والنشويات وغير ذلك من المواد الكربوهيدراتية.

وعلى العكس من ذلك فإذا أحرق السكر أو أية مواد كربوهيدراتية فى وجود الأكسچين، فإنه يتحول إلى ثانى أكسيد الكربون والماء، وتنطلق الطاقة، وكأن عملية التمثيل الضوئى هى عملية تكوين السكر بخلط ستة جزيئات من الماء مع ستة جزيئات من ثانى أكسيد الكربون فى وجود الطاقة الشمسية ومادة اليخضور، فينتج عن ذلك جزىء واحد من السكر وستة جزيئات من الأكسچين.

وكما يأخذ النبات من طاقة الشمس بالقدر اللازم لنموه، فيحول تلك الطاقة

الضوئية الحرارية إلى عدد من الروابط الكيميائية بتفاعلها مع كل من الماء وثاني أكسيد الكربون فيكون مختلف المواد الكربوهيدراتية ـ أى المكونة من الكربون والهيدروچين ـ التى يستخدمها النبات فى بناء مختلف خلاياه وأنسجته، ويختزن الفائض منها عن حاجته على هيئة النشويات البسيطة والمركبة، والسكريات المتنوعة؛ فإن النبات يأخذ كذلك العديد من عناصر الأرض والماء الصاعدين مع العصارة الغذائية التى يمتصها من التربة بواسطة جذوره، وتنتقل هذه العصارة الغذائية إلى كل من الساق والفروع والأوراق عبر أوعية خاصة تعرف باسم «الأوعية الخشبية» التى تمتد فى جسم النبات كله حتى تصل إلى كل ورقة من أوراق النبات على هيئة عرق وسطى له تفرعاته العديدة التى تنقل تلك العصارة الغذائية إلى كل خلايا الورقة الخضراء، حيث يعاد تشكيلها على هيئة العديد من المركبات العضوية التى يحتاجها النبات، وتعود المركبات المصنعة فى الأوراق الخضراء عبر أوعية خاصة تعرف باسم «أوعية اللحاء» لتقوم بتوزيعها على جميع خلايا وأنسجة النبات حسب احتياج كل واحد منها.

ومن المركبات العضوية التى تنتجها النباتات الخضراء: البروتينات من مثل الزيوت والدهون النباتية، والأحماض الأمينية، والإنزيمات، والهرمونات، والڤيتامينات التى تسهم فى بناء مختلف الخلايا والأنسجة المتخصصة من مثل الألياف، والأخشاب، والزهور، والثمار، والبذور، والإفرازات النباتية المتعددة كالمواد الصمغية والراتنجية وغيرها.

وباستمرار عملية التمثيل الضوئى، تتركز بلايين البلايين من ذرات الكربون المكونة لثانى أكسيد الكربون الجوى فى داخل خلايا النباتات الخضراء خاصة فى الأوراق، وبذلك نجد أن وزن المادة الحيّة النباتية فى تزايد مستمر مع الزمن. ولما كان كلٌ من الإنسان وأعداد كبيرة من الأنواع فى مملكة الحيوان يتغذى على المواد النباتية ومنتجاتها، ويستخدم تلك الطاقة الكيميائية المختزنة فيها فى تكوين مركبات كيميائية أخرى تختزن أجزاء من تلك الطاقة، وتحول أجزاء منها إلى طاقة حرارية، وحركية، وكهربائية؛ ولما كان الإنسان وبعض أنواع الحيوان يأكل كلاً من النبات والحيوان، فإن جزءاً من طاقة الشمس ينتقل إلى هؤلاء الآكلين، وبذلك يزداد كم

المادة الحية بتكرار تلك العمليات الحياتية والتى يلعب النبات الأخضر فيها دورا أساسيّا، ويصل معدل الإنتاج السنوى من المواد العضوية النباتية إلى أكثر من أربعة آلاف تريليون طن.

وتقوم النباتات الخضراء بتثبيت أربعمائة مليار طن سنويا فى المتوسط من الكربون المستخلص من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى. وقد لعبت هذه العملية دوراً مهمّا فى تكوين بلايين الأطنان من الفحم الحجرى عبر تاريخ الأرض الطويل خاصة فى صخور العصر الفحمى (أو الكربونى).

والمنتجات النباتية هى مصدر الطاقة الحيوية فى أجساد بنى الإنسان وفى أجساد الحيوانات من آكلات الأعشاب، والتى تمثل مصدراً أساسيّا لطعام الحيوانات آكلة اللحوم. ومن فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان، تتكون جميع أنواع المحروقات، وذلك بعد تجفيفها أو دفنها وتحللها بمعزل عن الهواء.

فالمادة العضوية فى كل من النبات والحيوان والإنسان، تتكون أصلا من عناصر الأرض الأساسية، والماء، والأكسچين، والنيتروچين، وثانى أكسيد الكربون.

وبعملية التمثيل الضوئى يعطى النبات الأخضر الأكسچين لكل من الإنسان والحيوان ببثه فى جو الأرض، ويأخذ منهما ثانى أكسيد الكربون الذى يبثانه إلى جو الأرض، وكل من النبات والحيوان يعطى الإنسان الغذاء والطاقة ويأخذ منه فضلاته.

والأرض تعطى كل صور الحياة مختلف العناصر التى تحتاجها، والماء الذى يعين على إتمام كل العمليات الحيوية.

والشمس تعطى كل هذه الصور الحياتية من نباتية، وحيوانية، وبشرية كل الطاقة التى تحتاجها، والله يهب ذلك كله من فضله، وكرمه، وجوده، ومَنِّه، وعطائه، وبديع صنعه، وعظيم حكمته.

فمركبات اليخضور تختزن الطاقة فى خلايا الشجر الأخضر، ويقابلها فى الخلايا الحيوانية جسيمات «الميتوكوندريا ـ Mitochondria» التى تستهلك الطاقة المأخوذة من أى من النبات أو الحيوان أو منهما معًا.

وعند جفاف الشجر الأخضر وغيره من النباتات الخضراء، فإنها تتحول إلى

أغلب مصادر الطاقة الطبيعية تقريبًا ما عدا الطاقة النووية، وطاقة الرياح، وطاقة المد والجزر، والحرارة الأرضية، والطاقة الشمسية المباشرة.

والطاقة فى الشجر الأخضر أصلها من طاقة الشمس، فعند جفاف النباتات الخضراء تتحول بقاياها إلى الحطب أو القش، أو التبن، أو الخشب، أو الفحم النباتى ـ إذا أحرق ذلك بواسطة الإنسان فى معزل عن الهواء .

وإذا دفنت البقايا النباتية فى البحيرات الداخلية أو فى دالات الأنهار أو فى الشواطئ الضحلة للبحار دفنًا طبيعيا، فإنها تتفحم بمعزل عن الهواء متحولة إلى الفحم الحجرى. وإذا زاد الضغط والحرارة على الفحم الحجرى فى باطن قشرة الأرض فإنه يتحول إلى غاز الفحم الطبيعى.

وعندما تتغذى الحيوانات البحرية ـ خاصة الدقيقة منها ـ على النباتات الدقيقة أو على فتات النباتات الكبيرة ومنتجاتها الدقيقة، فإن طاقة الشمس المختزنة فى تلك النباتات وفتاتها تتحول فى أجساد الحيوانات إلى مواد بروتينية من الزيوت والدهون الحيوانية التى تتحلل بمعزل عن الهواء إلى النفط والغاز الطبيعى المصاحب له. وكلما زادت الحرارة والضغط على النفط المخزون فى قلب قشرة الأرض تحول بالكامل إلى الغاز الطبيعى.

وعندما يُحرق أىٌّ من مصادر الوقود هذه طلبًا للطاقة الحرارية الكامنة فيه، فإن أكسچين الجو يتحد مع كل من الهيدروچين والكربون المتجمعين فى تلك المصادر محولاً إياها إلى بخار الماء وغاز ثانى أكسيد الكربون اللذين ينطلقان عائدين إلى الغلاف الغازى للأرض.

وبذلك فإن الطاقة التى استمدها الشجر الأخضر من أشعة الشمس الواصلة إلى كوكب الأرض، فانتزع بها ذرة الكربون من جزيئات ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الغلاف الغازى للأرض، هى نفس الطاقة التى تنطلق على هيئة اللهب الحار الناتج عن احتراق أى من مصادر الطاقة تلك فى أكسچين الغلاف الغازى للأرض ـ من مثل الخشب، أو الحطب، أو القش أو التبن أو الفحم النباتى أو الفحم الحجرى

أو الغاز الفحمى أو النفط أو الغاز الطبيعى، أو غاز الميثين الناتج عن تحلل الفضلات بصفة عامة، وبذلك تتحد ذرات الكربون المختزنة فى تلك المصادر المتعددة للطاقة بذرات الأكسچين الموجودة فى الغلاف الغازى للأرض كما تتحد ذرات الهيدروچين مع أكسچين الجو لتعود إليه على هيئة جزيئات كل من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء وتنطلق الطاقة.

وعلى ذلك فإن عمليات الاحتراق على سطح الأرض هى عمليات أكسدة لكل من ذرات الكربون وذرات الهيدروچين المختزنة فى المواد العضوية لمختلف أشكال الوقود، لتعود مرة أخرى على هيئة ثانى أكسيد الكربون الجوى وبخار الماء؛ وهى تشبه عملية التنفس فى كل من الإنسان والحيوان، حيث يستفاد بالأكسچين الموجود فى الغلاف الغازى للأرض فى أكسدة ذرات كل من الكربون والهيدروچين الموجودة فى المواد الغذائية لتتحول إلى ثانى أكسيد الكربون الذى انتزع أصلاً من الغلاف الغازى للأرض بواسطة النباتات الخضراء، وبخار الماء الذى انتزع من الأرض.

مما سبق يتضح المضمون العلمى للآية الكريمة التى فهمها أهل البادية على عهد رسول الله ﷺ بالخشب أو الحطب، أو بكل من المرخ والعفار، ونفهمها اليوم فى إطار كل صور الطاقة ذات الأصل العضوى من النفط والغاز المصاحب له، إلى الفحم الحجرى والغازات المصاحبة له، إلى الفحم النباتى، إلى كل من الخشب والحطب والقش والتبن وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التى يلعب الدور الرئيسى فى تكوينها الشجر الأخضر وما وهبه الله - تعالى - من قدرة فائقة على احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه على إتمام عملية تأين الماء إلى أيون إيدروچين يحمل كل منهما شحنة موجبة، وأيون أكسچين يحمل شحنة سالبة، ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جدًا فى الغلاف الغازى للأرض لا تتعدى ٠٣, ٠٪، وذلك بواسطة أيون الهيدروجين الناتج عن تحلل الماء، وإطلاق الأكسچين إلى الغلاف الغازى للأرض، وكأن حركة الطاقة على الأرض، أو بالأحرى حركة الحياة، تتلخص فى تبادل ذرة الكربون بين النبات

والحيوان والإنسان، يأخذها النبات من الغلاف الغازى للأرض بعملية التمثيل الضوئى ويهبها لكل من الإنسان والحيوان، ثم يطلقها كل من الإنسان والحيوان إلى الغلاف الغازى للأرض بعملية التنفس، وبين العمليتين يختزن لنا ربنا ــ تبارك وتعالى ــ كمّا هائلا من مختلف مصادر الطاقة تختزن فيه ذرات الكربون التى أخذها الشجر الأخضر من الجو وأعطاها للأرض إما مباشرة أو عن طريق تخزينها على هيئة راقات هائلة من الفحم أو مخزون ضخم من النفط والغاز يحرقه الإنسان فيرده مرة أخرى إلى الغلاف الغازى للأرض.

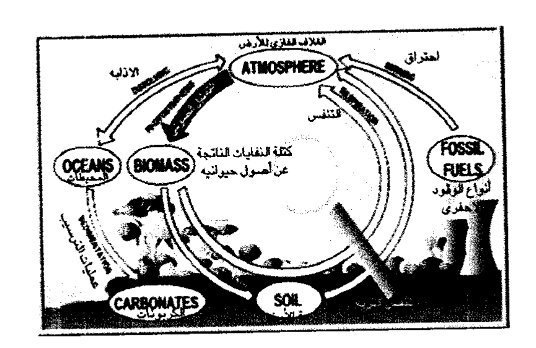
فسبحان القائل: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]

والقائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

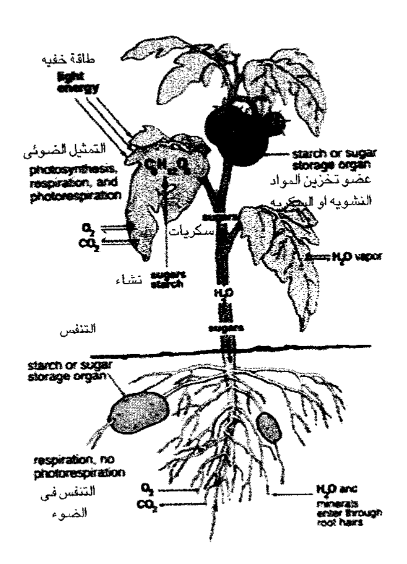
[الواقعة: ٧١- ٧٤].

فالحمد لله رب العالمين الذى أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وصلى الله وسلم وبارك على النبى الخاتم والرسول الخاتم الذى تلقى هذا القرآن العظيم، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين والحمد لله الذى حفظ لنا هذا القرآن بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، بكل إشراقاته النورانية، وصفائه الربانى، وإعجاز آياته لفظًا ومحتوى فى كل قضية تناولتها، وكل أمر تعرضت له، حتى يبقى هذا الوحى الخاتم حجة على الناس جميعًا فى كل عصر وفى كل حين من وقت نزوله إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

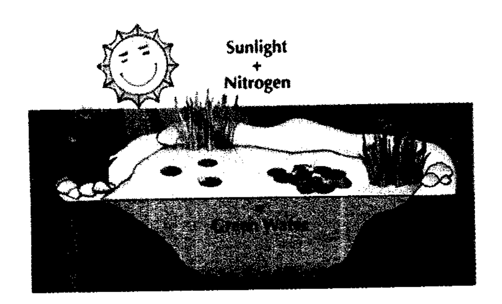
* * *



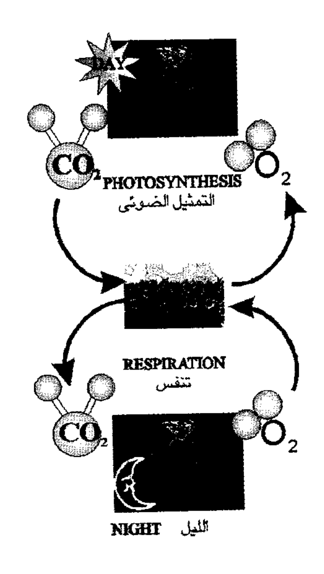
الغلاف الغازي للأرض
ATMOSPHERE
احتراق
الإذابة
التنفس
OCEANS
المحيطات
BIOMASS
كتلة النفايات الناتجة
عن أصول حيوانيه
FOSSIL
FUELS
أنواع الوقود
الحفرى
CARBONATES
كربونات
SOIL



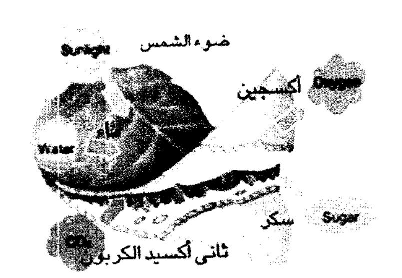
طاقة خفيه
light
energy
التمثيل الضوئى
photosynthesis,
respiration, and
photorespiration
starch or sugar
storage organ
عضو تخزين المواد
النشويه او السكريه
سكريات
نشاء
sugars
starch
H_2O vapor
O_2
CO_2
H_2O
sugars
التنفس
starch or sugar
storage organ
respiration, no
photorespiration
التنفس فى
الضوء
O_2
CO_2
H_2O and
minerals
enter through
root hairs



Sunlight
+
Nitrogen
Green Water



DAY
CO_2
PHOTOSYNTHESIS
التمثيل الضوئى
O_2
RESPIRATION
تنفس
CO_2
O_2
NIGHT
الليل



Sunlight
ضوء الشمس
أكسجين
Oxygen
Water
سكر
Sugar
CO_2
ثاني أكسيد الكربون





الخاتمة

هذا هو الكتاب السادس من السلسلة الصادرة تحت عنوان: «من آيات الإعجاز العلمى»، ويمثل الجزء الثالث من العنوان الفرعى لهذه السلسلة والمسمى: «النبات فى القرآن الكريم».

وفى الجزءين الأول والثانى تمت مناقشة خمس عشرة آية أو نصّا قرآنيّا كريمًا لإبراز ما فيه من جوانب السبق العلمى الذى يشهد لهذا الكتاب المجيد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعة لرسالة سماوية سابقة ـ فحفظه حفظًا كاملاً فى نفس لغة وحية ـ اللغة العربية ـ وحفظه كلمة كلمة، وحرفا حرفا بكل ما فيه من حق وصدق وسمو يعلو على قدرات الخلق مجتمعين، وتعهد بهذا الحفظ إلى يوم الدين حتى يبقى القرآن الكريم شاهدا على الخلق أجمعين حتى لقاء رب العالمين.

وفى هذا الجزء الثالث من «النبات فى القرآن الكريم» عرضنا للإعجاز العلمى فى تسع آيات ونصوص قرآنية كريمة ليصبح مجموع ما تناولناه فى الأجزاء الثلاثة أربعًا وعشرين آية ونصّا. وإذا علمنا أن القرآن الكريم يحوى أكثر من مائة إشارة إلى النباتات وثمارها علمنا كم هو طويل مشوار استكمال ما فى بقية هذه الآيات من جوانب الإعجاز العلمى، والقرآن الكريم لا تنتهى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

والآيات والنصوص القرآنية التسعة التى نوقشت فى هذا الجزء وما ظهر لنا فيها من جوانب الإعجاز العلمى يمكن إيجازه فيما يلى:

(١) ﴿. . . وَمِنَ النَّخْلِ من طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام: ٩٩]:

والنصف الأول من هذه الآية الكريمة تمت مناقشته فى الجزء السابق من هذه السلسلة، وقد أشار إلى عملية التمثيل الضوئى بذكر اليخضور (فأخرجنا منه خضرا) الذى هو أصل كل الحبوب والثمار قبل أن تصل العلوم المكتسبة إلى معرفة ذلك بقرون طويلة. وفى كلمات محددة أشار هذا النص القرآنى المعجز فى تسلسل رائع إلى محاصيل النباتات وثمارها من الحب المتراكب إلى ثمار كل من النخيل، والأعناب، والزيتون، والرمان، ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسى للإنسان ولأنعامه، ويشير إلى مصادرها فى النبات وهى المادة الخضراء. أما باقى النباتات الراقية المعروفة لنا فهى أما تنتج من كماليات الطعام، أو من الأخشاب والأعشاب، أو هى من نباتات الظل أو الزينة ـ وذلك على أهميته ـ من الكماليات وليس من الضروريات الملحة لحياة الإنسان وأنعامه.

وبالإضافة إلى هذا الشمول يأتى التعبير الإلهى المعجز فى هذا النص بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ليعبر عن حقيقة التنوع الهائل لتلك النباتات بما أودعها الله ـ تعالى ـ من قدرات وراثية هائلة فى داخل كل خلية نباتية.

(٢) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]:

وهذه الآية الكريمة تشير إلى القوى التى وهبها الله ـ تعالى ـ للنخل الطوال كى تمكنها من رفع العصارة الغذائية من التربة إلى قمتها، وإلى أن هناك ما يقرب من عشرة آلاف زهرة على الطلع الواحد منضودة (أى متراكبة بعضها فوق بعض) فتأتى الثمار منضودة كذلك، وهذه الحقائق لم تكن معروفة فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذه الدقة العلمية فى كتاب أنزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى ﷺ وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه كلام الله ـ الخالق ـ ويشهد للنبى الخاتم الذى تلقاه ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

(٣) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون : ٢٠] :

وهذه الآية الكريمة تشير إلى عدد من الحقائق العلمية المهمة أولها أفضلية زيت الزيتون على غيره من الزيوت النباتية، وفوائده الصحية العديدة، والقيمة الغذائية لثمرة الزيتون، والقيمة النباتية لشجرته المباركة وهى من الأشجار دائمة الخضرة، والتى لا تحتاج إلى كثير من الرعاية من الإنسان، وأخشابها وثمارها وزيوتها لها صفات متميزة عن غيرها. والآية الكريمة تشير إلى تميز شجر الزيتون الذى ينبت فى طور سيناء بصفة خاصة وفى المنطقة من حوله بصفة عامة، كما تشير إلى احتمال أن تكون هذه المنطقة هى مصدر أشجار الزيتون فى العالم، وعلى علماء المسلمين إثبات ذلك.

(٤) ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين : ١، ٣] :

هذه الآيات القرآنية الثلاث يقسم فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بكل من التين، والزيتون، وجبل طور سيناء، ومكة المكرمة، والله ـ تعالى ـ غنى عن القسم لعباده ـ ولكن إذا جاءت الآية القرآنية بصيغة القسم كان فى ذلك تنبيها لنا بأهمية الأمر المقسم به، وفى القسم بالتين تأكيد على تميز ثمرته، وقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مفيدة وغيرها من المركبات الكيميائية المضادة للسرطانات والفيروسات والبكتيريا والطفيليات.

وفى القسم بالزيتون إشارة إلى تميز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوافر لغيره من النباتات كما أسلفنا فى النقطة السابقة. وفى القسم بكل من جبل طور سيناء الذى ناجى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عبده موسى من جانبه الأيمن، ومكة المكرمة أشرف بقاع الأرض قاطبة التى أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ملائكته ببناء الكعبة المشرفة فيها كأول بيت وضع للناس، ودحى من موقعها كل اليابسة، وأهبط فيها أبو البشر وأول الأنبياء، وبعث فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ليلتقى أول النبوة بختامها فيها تأكيداً على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء، ولذلك جعلها قبلة للصلاة، وجعل حجها والاعتمار إليها من أجل العبادات لله، وجعل الحسنة فيها بمائة ألف ضعف.

(٥) ﴿. . . وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]:

هذا النص القرآنى الكريم يشير إلى حقيقة علمية لم تكن معروفة فى زمن الوحى ولا لقرون عديدة من بعده وهى حقيقة تكاثر النباتات بالأشطاء، وهى عبارة عن سيقان إضافية تنمو من براعم قاعدية عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما هو الحال فى نباتات القمح والشعير والشوفان والأرز وغيرها حيث ينمو الساق الأساسى أولاً من داخل البذرة النابتة، ثم ينمو العديد من هذه السيقان الإضافية التى تندفع من قاعدة الساق، والتى قد يزيد عددها عن الثلاثين فى النبتة الواحدة، والتى سرعان ما تنمو حتى تصل إلى طول الساق الأصلية تقريبًا، وتعطى سنابل مثلها. وهذه الأشطاء تخرج متلاحقة الواحد تلو الآخر، ومن هنا كان التعبير بالإفراد فى هذا النص القرآنى المعجز ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، وكان وصف التتابع بحرف العطف (ف) الذى يدل على الترتيب مع التعقيب فقال ـ تعالى ـ : ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ...﴾.

وبهذا النمط من التكاثر فإن الساق الأصلى للنبات يحاط بعدد من السيقان الثانوية التى تنمو حوله على هيئة حزمة من الأعواد القائمة التى تزيد من سمك النبتة الأساسية، وتغلظ من قطرها، وتمكنها من الانتصاب قائمة فوق مجموعها الجذرى، فتزيد من قدرتها على مقاومة هبوب الريح، وتبعد كلا من الأعشاب الضارة والآفات والحيوانات عنها، وتضاعف من غلتها.

وهذا النص القرآنى الكريم جاء فى مقام التشبيه لصحابة رسول الله ﷺ فى التفافهم حوله، وحبهم له، وتلقيهم عنه، وافتدائهم له بالنفس والنفيس بالأشطاء حول النبتة الأساسية. ويأتى التشبيه فى غاية الدقة من التعبير اللغوى والعلمى والنفسى ليشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله ـ الخالق ـ ويشهد للنبى الخاتم الذى تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

(٦) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]:

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن أفضل وسيلة لحفظ المحاصيل الزراعية التى تنبت فى سنابل كالقمح والشعير والشوفان والأرز وأمثالها هى حفظها فى سنابلها، وقد أثبتت الدراسات التجريبية صحة ذلك ودقته، وقد طبقها نبى الله يوسف (على نبينا وعليه من الله السلام) لمدد وصلت إلى خمس عشرة سنة دون أن تفسد أو أن يصيبها شىء من العطب، بل بقيت محتفظة بقيمتها الغذائية كاملة، وبحيويتها وقدرتها على الإنبات والنمو والإثمار.

(٧) ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦]:

من المسلمات فى الإسلام العظيم أن المعجزات هى خوارق للسنن، وبالتالى فإن العلوم المكتسبة لا تستطيع تفسيرها، والشجرة التى أنبتها الله ـ تعالى ـ ليظلل بها عبده ونبيه يونس بن متى (على نبينا وعليه من الله السلام) هى من المعجزات، ولكن الإشارة إلى شجرة من يقطين تظلل رجلا نبذ بالعراء وهو سقيم أى منهك القوى مهترئ الجلد تضمر علاقة اليقطين بشفاء مثل هذه الحالة. وثبت بالدراسة المختبرية التى قام بها الدكتور كمال فضل الخليفة الأستاذ المشارك لعلم النبات بجامعة الخرطوم أن باليقطينيات عدد من المركبات الكيميائية المهمة التى لها تأثير طبى علاجى ووقائى واضح أبرزه فى مقاومة الحشرات، وفى علاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها.

وهنا يبرز التساؤل: إذا كان القرآن الكريم من كتابة رسول الله ﷺ كما يدعى أهل الكفر والشرك والضلال فى القديم والحديث فمن الذى أخبره من قبل ألف وأربعمائة سنة بما ثبت منذ أقل من عشر سنوات عن فوائد اليقطين ثماراً، وزهوراً، وأوراقًا، وفروعًا، وسيقانًا، وجذوراً فى علاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها؟

وهل يمكن أن يكون مثل هذا الكلام التاريخى الدقيق واللغوى الرفيع، والعلمى الدقيق، لغير الله الخالق؟

وهل يمكن أن يكون منقولاً عن أساطير الأولين أو عما بقى من ذكريات التوراة والإنجيل؟ فى سفر يونس (أو يونان = Jonah) فى سلسلة تومبسون للإنجيل المفهرس

ـ الطبعة الدولية الحديثة ـ طبعة الملك چيمس (Thompson Chain - Referenve Bible: New International Version King James Version) والتى قام على جمعها وتحريرها القس فرانك تشارلس تومبسون (Frank Charles Thompson) والمنشورة فى كل من ولايتى إنديانا (إنديانا بوليس) وميتشيجان (جراند رابدز) والمنشورة من سنة ١٩٠٨م إلى ١٩٨٢م، وطبعت عدة مرات بعد ذلك جاء النص التالى فى ص ٩٤٧: "But the Lord Provided a great fish and Jonah was inside the Fish three days and three nights".

وفى الترجمة العربية للعهد القديم والمنشورة بواسطة دار الكتاب المقدس للشرق الأوسط ص ١٢١٦ جاء ما يلى:

«وأما الرب فأعد حوتًا عظيمًا ليبتلع يونان. فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال».

فالترجمة الإنجليزية تقول: سمكة كبيرة، والترجمة العربية تقول: «حوتًا عظيمًا ليبتلع يونان..» ولو ابتلعه لقضى عليه.

والنص القرآنى الكريم يقول ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ أى أخذه كاللقمة فى فمه ولم يبتلعه. ومن الحيتان نوع يعرف باسم الحوت الأزرق، هو أضخم حيوان نعرفه، وهو مع ضخامته ليست له أسنان ويتغذى على الكائنات الهائمة فى ماء البحر، وبلعومه لا يمرر سمكة صغيرة فضلاً عن إنسان كامل.

وهذا يوضح الفارق الكبير بين كلام الله المتصف بالكمال المطلق، وكلام البشر المتصف بالنقص والقصور.

كذلك جاء بالترجمة الإنجليزية ص ٩٤٨ ما يلى:

" Then the Lord God provided a vine and made it grow up over Jonah to give shade for his head to ease his discomfort, and Jonah was very happy about the vine".

وجاء فى الترجمة العربية لهذا النص فيما توزعه دار الكتاب المقدس فى الشرق

الأوسط ص ١٢١٧ ما يلى: «فأعد الرب الإله يقطينه فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه لكى يخلصه من غُمه، ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحًا عظيمًا».
وظلت الترجمة تذكر (اليقطينة) خمس مرات والترجمة الإنجليزية تقول: كرمة عنب، والقرآن الكريم يقول لنا فيه رب العالمين: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

فمن أخذ عن من؟

وأى الترجمتين أصدق؟ الإنجليزية أم العربية؟

وهل الأصل الذى ترجم عنه موجود؟ وأين هو للرجوع إليه إن كان لا يزال موجودًا؟

هذا غيض من فيض يخرس الألسنة المتطاولة على كتاب الله وعلى خاتم أنبيائه ورسله من أمثال عصابة الجهلة المأجورين، الخونة الضالين فى قناة الأموات المسماة خطأ باسم «الحياة»، وأمثالهم من الكفار والمشركين على وجه الأرض اليوم كثير وغداً سوف يدعون إلى نار جهنم دعا، وسيعرفون كم كانوا على الأرض من الضالين، وسوف يندمون غاية الندم يوم لا يجدى الندم ولا يفيد.

(٨) ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]:

تشير هذه الآية الكريمة إلى أهمية الطعام فى حياة الإنسان؛ لأن الطعام هو مصدر الطاقة اللازمة لمختلف الأنشطة فى جسم الإنسان لبناء خلاياه وأنسجته فى مختلف مراحل نموه، وللإحلال محل الذى يهلك منها بعد تمام النمو، وللمحافظة على درجة حرارة جسمه. ويحتاج الإنسان فى طعامه إلى الكربوهيدرات والبروتينات والزيوت والدهون، وقد هيأ الله - تعالى - النبات ليصنع لنا كل الكربوهيدرات التى يحتاجها الإنسان والحيوان الآكل للأعشاب فى حياته، ويصنع عدداً من البروتينات كالزيوت والدهون، ويتم ذلك بعمليات معجزة تشهد للإله الخالق - سبحانه وتعالى - بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق كما تشهد له - سبحانه - بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

كذلك هيأ الله - الخالق - للحيوان القدرة على تحويل ما يأكله من النبات إلى سلسلة طويلة من البروتينات التى يحتاجها كلٌ من الإنسان وبعض الحيوان فى

طعامه، وذلك عبر العديد من العمليات المعقدة التى تشهد للخالق - سبحانه وتعالى - بأنه هو الله .

وبعد استعراض معجزات إنزال الماء من السماء، وشق الأرض، وإنبات الحب، والعنب والقضب، والزيتون والنخل فيها، بالإضافة إلى الحدائق الغلب، والفاكهة والأب عرضت سورة عبس فى ثمانى آيات قصار لا تشغل أكثر من سطرين أهم النباتات التى تشكل الطعام الرئيسى للإنسان وأنعامه، ولذا ختمت بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ .

وهذا الحصر الدقيق لما يحتاجه الإنسان وأنعامه من طعام فى كلمات قليلة يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، كما يشهد للرجل الصالح الذى تلقاه بالنبوة وبالرسالة فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

(٩) ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس : ٨٠] :

هذه الآية الكريمة تحقيق واقعى لقول رسول الله ﷺ فى وصفه للقرآن الكريم بأنه لا تنتهى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد؛ وذلك لأن أهل البادية فهموها من قبل ألف وأربعمائة سنة بالخشب أو الحطب أو بشجرتى المرخ والعفار، ونحن نفهمها اليوم فى إطار كل صور الطاقة ذات الأصل العضوى من كل الفضلات النباتية والحيوانية مثل التبن والقش، والحطب والخشب، إلى الفحم النباتى، والفحم الحجرى والغازات المصاحبة له، إلى الطفلة الزيتية إلى النفط والغازات المصاحبة له . وكل هذه المصادر للطاقة تلعب الدور الرئيسى فى تكوينها الشجر الأخضر وما وهبه الله - تعالى - من قدرة على احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه على تحليل الماء إلى مكوناته الأساسية : الإيدروچين والأكسيچين، وعلى تحليل ثانى أكسيد الكربون الذى يمتصه النبات من الغلاف الغازى إلى مكوناته الأساسية : الكربون والأكسيچين، وإطلاق الأكسيچين من المصدرين إلى الجو، ثم ربط ذرات الكربون والإيدروچين بروابط كيميائية على هيئة سلاسل الكربوهيدرات المختلفة (السكر بمختلف أنواعه، النشا، السيليولوز، وغيرها) التى

تشكل كل محاصيل وثمار النباتات التى يقتات عليها الإنسان وبعض النباتات وفضلاتها التى يتغذى عليها كثير من الحيوانات آكلة الأعشاب .

وعلى ذلك فإن حركة الطاقة على الأرض تتلخص فى تبادل ذرة الكربون بين الهواء والنبات والحيوان والإنسان، يأخذها النبات من الغلاف الغازى للأرض بعملية التمثيل الضوئى ويهبها لكل من الحيوان والإنسان، ثم يعاود كل من النبات والحيوان والإنسان إطلاقها إلى الغلاف الغازى للأرض بعمليات التنفس، وبين عمليتى أخذ ثانى أكسيد الكربون من الجو وإعادة إطلاقه إليه يختزن لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كمّا هائلاً من ذرات الكربون ليشكل مختلف مصادر الطاقة التى يحرقها الإنسان ليردها مرة أخرى إلى الغلاف الغازى للأرض . وهذه الدورة لم تكتشف إلا مؤخراً، وورود الإشارة إليها فى القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة سنة لمما يقطع بأن هذا الكتاب العزيز لا يمكن أن يكون صناعة بشرية .

هذه الآيات التسع ـ منفردة ومتجمعة ـ تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لكتاب غيره ـ وحفظه حفظًا كاملاً: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا فى نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ بكل ما فيه من خلال الربوبية، وصدق الإله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً، والذى هو رب العالمين، رب كل شىء ومليكه، وعالم الغيب والشهادة، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ولعل فى هذا الاستعراض ما يقنع كل ذى بصيرة بجدوى توظيف الحقائق العلمية الثابتة فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله لحسن فهم دلالاتها وتدبر معانيها **أولاً**: وهو أمر مطلوب منا، ثم **ثانيًا**: لإثبات سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى العديد من حقائق هذا الكون فى زمن لم يكن لأحد من الخلق إلمام بها أو إدراك لها، وهو ما يثبت أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ويشهد بالنبوة وبالرسالة للرسول الخاتم الذى تلقاه، وهاتان القضيتان هما محور الصراع فى عالم اليوم الذى توفر للإنسان فيه من أسباب التقدم العلمى والتقنى والمعرفة بالكون ومكوناته وظواهره ما لم يتوفر لجيل من البشر من قبل، وأصبح العلم هو اللغة التى

يفهمها أهل العصر، ولا يفهمون سواها، وكلما ركزنا الجهود فى إثبات صدق القرآن الكريم فيما جاء به من حقائق الكون، تمكنا من كسب جولة الصراع المحتدمة من حولنا اليوم؛ لأن الأصل فى الإنسان الخير، والشر عارض له، وكلما استطعنا الوصول إلى الفطرة السوية فى قلوب وعقول الناس، تمكنا من حل مشاكل العالم المتزايدة والمتراكمة والمتفاقمة، والتى يملك أهل الباطل فيه كل أسباب الغلبة المادية وعلومها وتقنياتها، وتخلف أهل الحق فى كل ذلك وتفرقوا شيعًا، ولم يعد بأيديهم من سلاح إلا سلاح الدعوة إلى دين الله على بصيرة، بالكلمة الطيبة، والحجة البالغة، والمنطق السوى، وأنسب أسلوب لتحقيق ذلك هو الأسلوب العلمى الذى لا يفهم أهل عصرنا أسلوبًا سواه.

ولعل ذلك يقنع الحفنة من أبناء المسلمين الذين تنكبوا الطريق وانطلقوا فى عدد من الصحف والمجلات الصفراء ينفثون سمومهم وجهلهم الفاضح وأحقادهم الدفينة ضد قضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى للقران الكريم بغير أدنى قدر من المنطق، ولهؤلاء أقول إن للعاملين فى حقل التفسير والإعجاز العلمى للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة رسالة يؤدونها بتجرد لله وإخلاص لجلاله، ولن يثنيهم عن ذلك تطاول المتطاولين، ولا أحقاد الحاقدين ولا خبث الخبثاء الضالين، والله يقول الحق وهو يهدى إلى سواء السبيل.

* * *

ثبت بالمراجع

أولاً: المراجع العربية:

١ - **أبو العطا، نظمى خليل** (١٩٨٧م): «إعجاز النبات فى القرآن»، مكتبة النور.

٢ - ــــــــــــ (١٩٩٨م): «آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات»، دار الجميل - القاهرة.

٣ - **الألوسى**: أبو الفضل شهاب الدين محمود شكرى (ت ١٢٧٠ هـ): «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى» - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م)؛ دار إحياء التراث العربى/ الحلبى/ مصر (ط ٤) ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٤ - **ابن أبى الإصبع، العدوانى المصرى**: «بديع القرآن» - القاهرة (١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧م).

٥ - **ابن حزم الأندلسى، على بن أحمد بن حزم الظاهرى**: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى، المطابع الأميرية - القاهرة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

٦ - **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد**: «المقدمة» - القاهرة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)؛ دار الشعب - القاهرة بتحقيق د. على عبد الواحد وافى (بدون تاريخ).

٧ - ــــــــــــ «ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر» - بيروت (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) - (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

٨ - ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ): «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٩ - **ابن عاشور، محمد الطاهر**: تفسير «التحرير والتنوير»، الدار التونسية للنشر - تونس (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

١٠ - **ابن العربى، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م).

١١ - **ابن عطية الأندلسى، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٦هـ)**: «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - الدوحة) (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)؛ دار الكتب العلمية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

١٢ - **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)**:«تفسير القرآن العظيم» (٤ أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة - القاهرة (ط ٢)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

١٣ - ــــــــــــــــ «فضائل القرآن» - مطبعة المنار - (القاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

١٤ - **أبو حيان الأندلسى، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» - مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، دار الفكر - بيروت (ط ٢) (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

١٥ - **البتانونى، كمال الدين حسن (١٩٨٦م)**: «نباتات فى أحاديث الرسول ﷺ»، إدارة إحياء التراث الإسلامى - قطر.

١٦ - **إمام، محمد سعيد**: «حديث الإسلام عن الأشجار» المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر - (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١٧ - **أبو السعود، محمد بن محمد العمارى**: تفسير أبى السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية - بولاق - القاهرة - (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م).

١٨ - **الباقلانى، القاضى أبو بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)**: «إعجاز القرآن» - تحقيق أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)؛ ومصطفى الحلبى (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وعالم الكتب - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٩ - **البغوى، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوى المسمى «معالم التنزيل» - تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة - بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

٢٠ - **البقاعى، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر فى تناسب الآى والسور»، دار الكتاب الإسلامى - القاهرة (ط ٢)، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)؛ دار الكتب العلمية- بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

٢١ - **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن)**: «الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية، وبيانية»، دار المعارف (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٢٢ ــــــــــــــــــــ «التفسير البيانى للقرآن الكريم» (فى جزأين) - دار المعارف - القاهرة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

٢٣ - **البيضاوى، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازى**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية - القاهرة (١٣٠٥هـ/ ١٩١٠م).

٢٤ - **البيومى، محمد رجب**: «البيان القرآنى» - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

٢٥ - **التجيبى، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبرى» - دار الفجر الإسلامى - دمشق (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٦ - **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام

محمد هارون؛ مكتبة الخانجي - القاهرة؛ دار الرفاعي بالرياض (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٢٧ - **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي - القاهرة (ط ٢)، مطبعة المنار - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)، أعيدت طباعته بالاتفاق بين مكتبتي الخانجي والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٨ - ________________ «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٢٩ - **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية - بيروت - الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م). منشورات المكتب الإسلامي - بيروت (الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م).

٣٠ - **جوهري، طنطاوي (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)**: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) - (في ٢٦ جزءًا، ١٣ مجلدًا) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م) (الطبعة الثانية: شوال ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

٣١ - **حوى، سعيد**: «الأساس في التفسير» - دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٣٢ - **الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل في معاني التنزيل» وبهامشه تفسير البغوي (في ٧ أجزاء)، المطبعة الأميرية - القاهرة (١٢٣١/ ١٢٣٢هـ) الموافق (١٨١٥/ ١٨١٦م). أعاد طباعته كل من دار المعرفة، ودار الفكر - بيروت.

٣٣ - **الخطابى، أبو سلمان حمد محمد بن إبراهيم (ت ٣٨٨هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٣٤ - **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة فى القرآن»، القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).

٣٥ - **الذهبى، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة - القاهرة (الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

٣٦ - **الرازى، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)**: تفسير الرازى أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (فى ٨ مجلدات)، المطبعة البهية - القاهرة (١٣٠٧هـ/ ١٣٢١هـ) الموافق (١٨٨٩م/ ١٩٠٣م)، أعادت طباعته كلٌ من دار الكتب العلمية - طهران (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ودار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣٧ - **الرازى، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر - (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

٣٨ - **الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت٥٠٣هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» - تحقيق: نديم مرعشلى، دار الكاتب العربى (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

٣٩ - رضا، **محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» - دار المنار/ القاهرة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)؛ دار المعرفة - بيروت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٤٠ - **الرمانى، أبو الحسن على بن عيسى (ت٣٨٦هـ)**: «النكت فى إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

٤١ - **الزرقانـي، محمـد بن عبـد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)**: «مناهل العرفان فى علوم القرآن» (فى جزأين) مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م).

٤٢ - **الزركـشى، بدر الدين مـحـمد بن عـبـد الله (ت٧٩٤هـ)**: «البرهان فى علوم القرآن» - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (فى أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية - الحلبى - القاهرة، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة - بيروت (١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م).

٤٣ - **الزمخشـرى، أبو القاسم جار الله محمـود بن عمر (ت ٥٣٨)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» - (فى أربعة أجزاء) - مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م)، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م).

٤٤ - **زيدان، السيـد محـمد (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)**: «من إعجاز القرآن العلمى فى نبات المحاصيل»، من نشرات هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، نشرة رقم (٢٠).

٤٥ - **سعد، شكرى إبراهيم (١٩٧٥م)**: «تصنيف النباتات الزهرية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الطبعة الثالثة) ـ الإسكندرية.

٤٦ - **السعدى، عبد الرحمن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٤٧ - **سعيـد، عبد الستـار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعى»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٤٨ - السعيـد، عبد الله عبد الرازق (١٩٨٥م): «الإعجاز الطبى فى القرآن والأحاديث النبوية: الرطب والنخلة»، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٤٩ - السيوطى، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين - أبو بكر - **الأسيوطى أو السـيوطى (ت ٩١١هـ)**: «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (فى

ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٥٠ - ________________

«الإتقان فى علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، مصطفى الحلبى (الطبعة الرابعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، مكتبة دار التراث - القاهرة (الطبعة الخامسة: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٥١ - **شحاته، عبد الله:** «آيات الله فى الكون تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

٥٢ - **الشنقيطى، محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى:** «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدنى بالرياض (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

٥٣ - **الشوكانى، محمد بن على بن محمد (ت ١٢٥٠هـ):** «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابى الحلبى - مصر (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م)، (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٥٤ - **شيحا، منير يوسف (١٩٨٤م):** «ريادة النبات فى الكويت»، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى.

٥٥ - **الصابونى، محمد على:** «مختصر تفسير ابن كثير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٥٦ - ________________ «صفوة التفاسير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٥٧ - **الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):** تفسير الطبرى المعنون «جامع البيان عن تأويل آى القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية - بولاق - القاهرة (فى ١٥ مجلدًا)،

ودار المعارف - القاهرة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٥٨ - **عارف، أبو الفداء محمد عزت محمد (١٩٩٨م)**: «شجرة المعجزات: التمر وفوائده الطبية»، دار الاعتصام.

٥٩ - **عبد الباقى، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب - القاهرة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م).

٦٠ - **عروة، أحمد (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)**: «أفرأيتم النار التى تورون»، من منشورات هيئة الإعجاز العلمى للقرآن والسنة: نشرة رقم (١٩).

٦١ - **العك، خالد عبد الرحمن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابى - دمشق (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٦٢ - **الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى (ت ٥٠٥هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)؛ دار المعرفة - بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

٦٣ - ــــــــــــــــــ «جواهر القرآن»، مكتبة الجندى - القاهرة (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة - بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٦٤ - **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)**: «معانى القرآن»، تحقيق النجاتى، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

٦٥ - **فرغلى، قطب عامر (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)**: «اختلاط الماء بالأرض الهامدة» من منشورات هيئة الإعجاز العلمى للقرآن والسنة، نشرة رقم (٢٠).

٦٦ - **القاسمى، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقى.

٦٧ - **القرطبى، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى (ت ٦٧١هـ)**: تفسير القرطبى المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (فى ٢٠ مجلدًا) دار الكتب المصرية (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)، (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)؛ دار القلم بيروت (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)؛ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٦٨ - **القطان، مناع خليل**: «مباحث فى علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

٦٩ - **قطب، سيد**: «فى ظلال القرآن» (فى ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

٧٠ - ―――― «التصوير الفنى فى القرآن»، مكتبة وهبة - القاهرة (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م).

٧١ - **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامى: بيروت، دمشق (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٧٢ - **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج.م.ع.**: «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م). المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج.م.ع. القاهرة.

٧٣ - **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعانى القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٧٤ - **المراغى، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغى» - دار إحياء التراث العربى - بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٧٥ - **مسلم، مصطفى**: «مباحث فى التفسير الموضوعى» دار القلم - دمشق، بيروت - الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٧٦ - ―――― «مباحث فى إعجاز القرآن» - دار المنارة - جدة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٧٧ - **النسفى، أبو البركات عبد الله بن أحمد:** تفسير النسفى المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (فى مجلدين) مطابع الحلبى - القاهرة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م).

٧٨ - **نوفل، عبد الرزاق** (١٩٨٦م): «دنيا الزراعة والنبات وما فيها من آيات» كتاب اليوم - دار أخبار اليوم - القاهرة.

* * *

ثانياً: الكتب الأجنبية والمترجمة:

٧٩ - بوكاي، موريس: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقـدسـة فى ضـوء المعـارف الحـديثـة» - دار المعـارف - القـاهرة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م). (Maurice Bucaille (1976): "La Bible, le Coran et la Science", Editions Seghers, 6, Place Saint - Sulpice, 75006 Paris.

٨٠ - مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير): «الله يتجلى فى عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندى، الناشر: مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة (The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monsma; 1958; Published by G. P. Putnam's & Sons, New York).

* * *



رقم الإيداع ٢٠٦٣٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى 9-1027-09-977 - I.S.B.N

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com